إحياء فقه الدعوة -٢-



محمد أحمد الراشد

العوائق

مؤسسة الرسالة

إحياء فقه الدعوة

الكتاب الثاني

العوائق

محمد أحمد الراشد

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٩٥٥٠١ / ٢٤١٦٩٢ ص ب ٧٤٦٠ برقياً : بيوشران

هَـذِهِ الزَهـْـرَة الحَـمْراء

مقدمــة

ان طريقاً جميلاً فسيحاً يغريك بالتوغل ، تتفرع عنه دروب ضيقة ، وانعطافات حادّة ، لن تدعك شرطة السير والمرور تسير فيه بسيارتك دون علامات تحذير حمراء وإشارات للأخطار ، فترسم لك خطاً عمودياً وسط مثلث يطلب منك الانتباه ، وخطاً أفقياً أبيض وسط دائرة حمراء يمنعك الدخول ، وسهماً منكسراً جنب سهم مستقيم مشطوباً بخط أحمر يمنعك تجاوز من يسير أمامك وسبقه بسيارتك .

فما من سائر يلتزم حدود هذه اللافتات ، إلاّ ويصل مراده وغايته آمناً ، ساكن القلب ، في لذة غامرة .

وطريق العمل الإسلامي الحركي واسع لاحب ، ولكن شأنه مشابه ، إذ أوجدت الاجتهادات الشاذة والأهواء في جوانبه وخلاله دروباً ضيقة ، وانعطافات مهلكة ، وعوائق معرقلة ، أبت الغيرة عليك غير إنارته لك بانوار ساطعة لامعة، في صف مستقيم ، تكشف لك دربك اذا حلّ ظلام الفتن وغير التصدي لتحذيرك من العوائق والمضايق باشارة حمراء ،ليسلم « منطلقك » .

لكن الروابط بيننا روابط قلبية ، ومشاعرنا رقيقة ، ومعاني الوصال معك متبخترة ميّاسة ، بالغة اللطف ، فأبت إشارتنا أن تتمثل خطــاً وسهماً ، بل نبتت زهرة حمراء في أرض قلبي ، تعكس أوراقهــا ومضات صفاء نفوس سالف المؤمنين ، وخفة روح الشعراء ، تنبهك إلى أخطار الطريق .

فهذي زهرة نبتت بتُربي بَدَت في حُمرة من ذَوْب قلبي
تَقَبَّلها ، بهذا القلب رِفقاً فلي قلب ، وهذا القلب حَسْبي

نبتت في قلب إقبال من قبل ، وأودعها هديته الحجازية . فما أدري بعد : أهذه الحمرة القانية في زهرتي هي حمرة خجل ، من واقع كثير من الدعاة انتسبُ الى رهطهم ، ألهاهم انتصارهم لنفوسهم عن الموازين الشرعية في الخلاف ، فهم في حيصة اضطراب ، تفوتهم معها الفرص ، والنصر منهم قريب ، لو سكنوا ، لتناوشوه ؟

أم هي حمرة الدماء النازفة سقت زهرتي ، من قلب جرحته مصائب المسلمين ، وفتن هؤلاء الدعاة ، في وقت يلزمنا فيه الكثير من الجسد ، ليناسب ضخامة الحاجة ؟

إلا أنه نزف مؤلم من جرح آذاني ، لم أستطع معه كبت الأنين ، فخالطت لغتي الرقيقة ألفاظ عتاب شديد وتأنيب وتقريع ، عسى أن تنكسر لأنيني قلوب المختلفين ، فتعاف لغطها اللاهب ، وتسكن الى أفياء التآخي الباردة .

بل هي تنهدات وعبرات ، تابعت بها كمال عبد الرحيم رشيد ، في شدوه مع الغرباء ، يوم :

آذاه جُرح أوجعه ، فبكى وأبكى مَــن معــه

جرح قديم راعــف ، أحيا القصيدَ ورَجّعه

فكان هذا الإحياء لقصيد فقهاء الدعوة ، وكان هذا الترجيع ، الذي لا يملك معه صاحب القلب الصادق إلا المشاركة في البكاء .

غير أنه بكاء ليس له نسب مع بكاء الحسرة واليأس ، فان من العار أن نبكي هذا البكاء الممنوع شرعاً ، كما أن من الظلم للجيل الجديد من ناشئة الدعوة أن نبكيه ونحن نراهم يفتحون تباعاً أبواب الآمال في همة عالية وتصميم على الاستدراك ، إنما هو بكاء مفروض في الفطرة على كل نفس، عند كل وخزة مؤلمة، يخالطه بكاء حياء بين يدي رب رقيب سبحانه ، يحب أن يرى مآقي عبده تترقرق فيها دموع الخشية بعد الأخطاء .

فانزل أخي، واسق زهرتي ، فان أمامك مزالق وعوائق ، وهي منتصبة لك ، تداعب أوراقها الحمراء نسمات الإيمان ، تنبهك إلى أدب السير في ... هذا الطريق .

زمرة القلب الواحد

١

عهود متكاملة تلك التي يلتزم الدعاة بها ، لا ينفك بعضها عن بعض ، ولا يتجزأ .

فهم يعلنون ميثاقهم مع أول قدم :

الكفوف في الكفوف فاشهدوا عهودنا :
الثبات في الصفوف والمضاء والفنا

فكما انهما المضاء والفناء تسرع اليهما عصبة الدعاة الفقهاء ، عبر جهاد مستبصر ، فانها الطاعة الواعية ، والثبات في صفوف لا تسمع خلالها لاغية .

وكما ان الايمان بالجنة يدفع إلى سباق في الجهاد ، فانه أيضاً يدفع إلى سباق آخر في الطاعة والحب الأخوي والصفاء القلبي ، بين أفراد الجماعة المسلمة ، كل يحرص على أن يكون ضمن

المقدمة السابقة ، والزمرة الأولى التي تدخل الجنة ، بما كان لهم من الوحدة ، وأنهم – كما يقول النبي ﷺ : –

(لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد) .[1]

فهي طاعة تبغي ان تصيب هذا الصفاء ، وتنسب صاحبها إلى هذه الزمرة الفائزة ، من الايمان تنطلق ، وبقواعده تسترشد ، واليه تعود ، وليست هي استكانة خاضع راهب ، ولا تملق طامع مصلحي راغب .

انها طاعة اسلامية مميزة ، ليست ككل طاعة ، يعتبرها الدعاة ركناً في إيمانهم ، لا كمال له بدونها ، ويعتوره النقص بفقدانها .

قوم يرون الحق نصر أميرهم ويرون طاعة أمره ايمانـــا

ولذلك يسوغ من أجلها اتهام العقل عند اختلاف الاجتهاد ، والضغط على القلب عند نداء الرغبات ، حفظاً لهذا الايمان من أن ينثلم .

● فتور واخلاط

وما دامت هذه الطاعة قد انتسبت إلى الايمان ، فانها معرضة لما يتعرض له الايمان من الزيادة والنقص ، فان الايمان يزيد

---

(١) صحيح البخاري ١٤٣/٤

وينقص كما يقول جمهور المحدثين والفقهاء ، وأصبحت ككل عمل ايماني ، يعلو فيصل الأوج والذروة أحياناً ، اعتقاداً وممارسة ، وينحدر متضائلاً تارة أخرى ، والفائز من لا يغالي عند التعالي ، ولا يسرف عند الهبوط ، بأن يلزم هدي السنة النبوية الشريفة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح من أنـــه :

(لكل عمل شِرّة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنّي فقد اهتدى) . (١)

وفي لفظ آخر صحيح أيضاً :

(فمن كانت شرته إلى سنّي فقد اهتدى) . (٢)

والشرة : هي بلوغ أقصى الجد والاجتهاد والحرص على الاتقان .

والفترة : هي الفتور ، اي التراخي من بعد الجد ، والجنوح إلى الكسل والسكون وإيثار الدعة والراحة .

والطاعة من هذا الكل ، لها شرة وفترة ، وتتضح صورها للمؤمن او تغبش ، وتقييد الطاعة المتصاعدة بالعزة السنية والحيلولة دون تحولها خنوعاً وذلاً جمال انما يكمله جمال آخر يمسك بزمام رغبة التفلت الجامحة ويمنع تأديتها إلى تسيب وتفرد

---

(١) (٢) مسند الامام احمد ، وصححه احمد محمد شاكر

وافتتان يحرم مقترفه أجر العمل الجماعي ، ويمنعه ولوج الجنة مع تلك الزمرة . ويظل هذان الجمالان يتألقان حتى يغدو وجه الواحد من المؤمنين الذين مع تلك الزمرة على هيئة القمر البدر ليلة تمامه ، كما أخبر الرسول ﷺ في نفس الحديث الآنف .

من هنا كان فحص القلب واجباً ، ليعرف المؤمن درجته من الزيادة والنقصان ، فيحمد ربه او يستدرك .

ومن هنا كان نداء الجنيد رحمه الله أن :

(انظر ماذا خالط قلبك ؟)

فسماها أخلاطاً ، أي أنها شوائب ، تعكر الصفاء ، وتوهم بالاطمئنان في غير موضع الرجاء .

أخلاط مردية ، تغر وتخدع ، تعطيك الصورة ، وتمنعك الحقيقة ، وتطرحك أرضاً من بعد شرة ، وتسرق منك هوية الانتساب إلى زمرة القلب للواحد .

فتعرف عليها معنا ، في جولة فقهية ، نكفك بالعلم شر الجهل .

● وداد وانتماء

وإنما يساعدك على التعرف الانصاف ، فانك مجاهد ، والمجاهد حر رفض الذل فتحرك ، وللحر سمات وطباع ، ذاك السير إلى العز أولها ، وليس بكلها ، وكما ان الحر به يعرف ،

فانه برد الجميل من بعده ينخلع عن نوع من خلق العبودية ويصرف ، وذلك الذي أشار اليه الامام الشافعي حين يقول :

(الحر من راعى وداد لحظة ، او انتمى لمن أفاده لفظة) .

وهذه الدعوة علمتك دهراً معنى الوداد ، وافادتك كل الالفاظ لا مجرد لفظة ، فان كنت حراً راعيت ودادها ، واخلصت لها ، وابتعدت عن فتن تتربص بها . وان سلبك الانتصار للنفس حريتك فشأنك وما اخترت .

ولا ينتصب أحد لفتنة من بعد ستر ، ولا يكسل كسلان فينقطع ويترك ويستبدل أصحاباً بأصحاب ، إلا لنقص معنى الحرية فيه ، وإلا لتقمصه بعض أثواب عبودية الدنيا .

وما ثبت داعية على الطريق وازداد بذلاً وإيثاراً إلا لاكتمال معنى الحرية والوفاء فيه ، ومراعاته الوداد وما أرشد اليه الشافعي من الانتماء .

وانه معدن الاخلاق والعفة نحرص عليه قبل ان يكون شرط علم وكفاية ادارة ، وكانت الطاعة من قبل في جمهرة الدعاة تتحرى عفة القائد قبل ان تسأل عن خبرته في السياسة ، فقال الشاعر :

سكن الدعاة إلى أمير سلامة عف الضمير مهذب الأخلاق
أعطته صفقتها الضمائر طاعة قبل الأكف بأوكد الميثاق

وكلا نريد ، خلق وخبرة ، ولكن ميزان الدعاة في أحكام

التفاضل يقدم ويؤخر بعيداً عن أعراف السياسة ، يعلمون ان الخلق تقوى ، وان التقوى باب الوعي ، بوجودها يتعلم الساذج ، ويلهم الصواب إلهاماً .

ثم انه تأديب شامل يجبر الحر على دوام الانتماء إلى الدعاة الذين ربوه ، وما هي لفظة عابرة .

فـان دعــاة غذوك الفكـــر ۝ بهم هدي الشرق والمغـرب
وفي أدب منهم مــا نشـأت ۝ ونعم لعمـــرك ما أدبـــوا

وقد حفزك القرآن إلى أن تقيس توقير المؤدب المربي على توقير المسلم للرسول ﷺ لما قال الله تعالى :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » .

(فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ ، حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه . وهي لفتة ضرورية ، فلا بد للمربي من وقار ، ولا بد للقائد من هيبة . وفرق بين ان يكون هو متواضعاً هيناً ليناً ، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض . يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم ، ويستحيون هم ان يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير) . (١)

ولا تقولن : فلان من أترابي ، أو : هو متأخر عني ، لم يربني ، فربما أسدى لك نصيحة يوماً ما عصمتك ، ورب

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٧/١٨

ناشيء لم يعرف الدعوة إلا هذا اليوم ، ترى من حماسته ما يعديك ، ويستفزك للخير ، وكل ذلك تربية ، يطلب منك لمثلها الوداد .

● الامارة الناصحة سبّاقة

ولا شك أنه واجب مزدوج وحرص ينبغي أن يصدر عن كلا الطرفين : قيادة تسبق ، وداعية يطيع .

فالقيادة يجب أن تكون سابقة لمجموع الدعاة في طرحها للاجتهاد الذي يقتضيه تطور الأوضاع ، وفي تنسيقها لدروس التجربة ، فان من لم تسعفه بفقه واضح سيدور دوماً مع الخطأ ، ويراوح في مكان محصور ، وليس لك من سبيل لوم ، وإلاّ أرهقته من أمره عسراً .

والقيادة من بعد يجب أن تكون سابقة في توفير مناخ العمل للجميع وفقاً لتطور كفاياتهم ونمو آمالهم وتوسع آفاقهم ، وإلا فان من لم تصرف طاقته في دروب الخير المستقيمة سيبددها في متاهات الشر ، أو يجمعها ليعصف بك .

وكل ذلك من كمال معاني النصح والجهد الواجبة على كل أمير في قول النبي ﷺ :

(ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة) . (٢)

---

(١) صحيح مسلم ١/٨٨

انها طاقة هائلة تتمثل في كل جيل من الدعاة ، أما أن يجاد استخدامها وإلا ضغطت وهدمت ، بطغيان وفتن وتهورات .

هو السيل ان واجهته انقدت طوعه
وتقتاده من جانبيـــه فيتبـــع

فأمر الطاقة المعطلة المحبوسة كالفيضان والسيل تماماً ، يكون خيراً لمن عرف شق الجداول للاستفادة منه ، وضرراً لمن أهمل ، فكل جيل سيل ، بيدنا ان نجعله مفيداً او نتركه يضر .

● التحريش الغامض

وكأن هذا هو السر الكامن فيما قرره القرآن الكريم من مرق المسلمين وجعل بأسهم بينهم اذا تركوا الجهاد ، فان في الجهاد تصريفاً للطاقة في دروب الخير ، تتحول لتستهلك نفسها إذا حصرت ، وفي قوله تعالى : « ان لا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ، ويستبدل قوماً غيركم » . ايماء جلي إلى هذا المعنى .

قال ابن تيمية في تفسيرها :

(قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيدي العباد ، فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع ، فان الناس اذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم ، واذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض)[1]

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ١٥/٤٤

وقديماً قال أهل المثل :

(العسكر الذي تسوده البطالة يجيد المشاغبات) .

فانما يكون تحريش الشيطان في مجالات الركود ، ولئن أنجى الله المصلين من عبادة الشيطان ، فانه سبحانه قد ترك له مجالاً للتحريش ؛ كما قال النبي ﷺ :

(ان الشيطان قد أيس ان يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم) . [1]

لا يقول لهم : هذا تحريش ، وأنا شيطان ، وإنما يلبس لباس الزاهد العابد ، ويتكلم بفصاحة الناصح الأمين ، حتى اذا خدع وأوهم ، وفرق وأبهم : ولى مقهقها وهم يبكون .

هكذا دائماً أسلوب الشيطان :

(يعرض الشر في معرض الخير ، والتمييز في ذلك غامض ، وأكثر العباد به يهلكون) [2] .

● لا خير في طاعة هاوية

وإنما يعصى الشيطان بمبادرة من الداعية يجدد فيها عزمه على الطاعة ، فانه هو المسؤول عن هذه المبادرة ، واليه يتوجه الخطاب ، وأن ظن أن في الطاعة تفويتاً لصواب يعتقده ،

---

(١) صحيح مسلم ١٣٨/٨

(٢) احياء علوم الدين ٢٩/٣

فانما يبني كيان الجماعات والجيوش والدول على هذا التنازل من الأكثرية لقلة ترسم الطريق وتقود ، كافرها ومسلمها ، في القرون الأولى وفي المستقبل .

ومن أحدث ما قرأنا عن شروط انتصار الجيوش كلام القائد الانكليزي مونتغمري ، المنتصر في العلمين على رومل ، حين يقول في مذكراته :

(انني أدخلت عنصراً هاماً في نظام العمل ، وهو أن أوامر القيادة يجب أن لا تناقش من قبل الضباط الصغار . كما لاحظت عادة في كثير من الحالات ، لانه متى كثرت الخطط لا بد أن يفشل الجنود ، لكونهم غير واثقين من صوابية خطة واحدة) [1] .

فكثرة الادلاء بالآراء تسبب الخلاف ، فالجدال ، فتضييع الوقت ، فاختلاف القلوب ، ففقدان الحماس ، فالوهن والتراجع .

عندئذ تكون الطاعة محكومة بالهوى ، يطيع المطيعون فيما وافق مذاهبهم وكان الأمر عليهم خفيفاً ، ويعصون ان خولفوا وكان الأمر عليهم ثقيلاً .

(يسارعون إلى الطاعة فيما يحبون ، ويبطئون فيما يكرهون. فان امتحنوا بأمر يكرهونه وفيه صلاح الجماعة عذروا وولوا ، أو أطاعوا كارهين ، وامتثلوا ساخطين .

---

(١) مجلة (الحوادث) اللبنانية عدد ٨٦٥ الصادر في ١٩٧٣/٦/٨

وانما أداء الواجب ان تؤديه في المنشط والمكره ، وتصدع به فيما تحب وتبغض وان تتلقاه عزيمة لا رخصة فيها ، وحزماً لا تردد فيه ، وجداً لا هوادة لديه ، حتى لا يكون للرأي فيه تردد ، ولا للهوى فيه خيار . وهو الواجب تلقاه راضياً ، وتمضي به مقدماً ، وتحتمله صابراً . وهو حلو عندك ، وان أمر ، ونافع ، وان يلك أضر .

هكذا تمضي الجماعات والآحاد بواجباتها ، غير معذرة فيها ، حتى يكون أداء الواجب ديدنا لا مفر منه ، وعزماً لا محيص عنه .

ذلكم قياس الصدق في الآحاد ، وميزان الاخلاص في الجماعات)[1] .

وانما تلك الطاعة الهاوية بقية من خلق بني اسرائيل يربأ المؤمن بنفسه عنها ، فانهم طلبوا القتال في سبيل الله ، « فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم » .

(سمة خاصة من سمات بني اسرائيل في نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولي عن الحق البين .

ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الايمانية ، فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الايمانية

---

(١) الشوارد ، لعبد الوهاب عزام /٦/ مع تصرف

العالية الطويلة الامد ، العميقة التأثير . وهي – من ثم – سمة ينبغي للقيادة ان تكون منها على حذر ، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر ، كي لا تفاجأ بها ، فيتعاظمها الأمر ، فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب ، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل)[١] .

من أجل ذلك كانت التربية على الطاعة من أساس دعوتنا ، فأوضح الامام المرشد ان طريقنا يعتمد على :

(التكوين : باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض) .

(والدعوة فيه « خاصة » لا يتصل بها إلا من استعد استعداداً حقيقياً لتحمل أعباء جهاد طويل المدى ، كثير التبعات . وأول بوادر هذا الاستعداد : « كمال الطاعة » .)

والشعار في هذه المرحلة : (دائماً : « أمر وطاعة ، » من غير تردد ، ولا مراجعة ، ولا شك ، ولا حرج)[٢] .

---

(١) الظلال ٢/٢٢٦

(٢) المجموعة /رسالة التعاليم/١٦

٢ نحوَ تَربيَـة تَستَدرِك

ما تأمل متأمل من دعاة الاسلام ذاك الحوار الصريح بين موسى عليه السلام والعبد الرحيم إلا وفرح بكل كلمة تقال له تبين له أدب الطاعة .

(قال له موسى : هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟

قال : انك لن تستطيع معي صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟

قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصي لـــك أمراً) .

انها ليست بالكلمات العابرة يقولها موسى يراعي بها أدب المجاملة ، ولكنه عهد سن خلاله سنة طاعة التابع لمن اختار

اتباعه برضاه ، واصطلاحات شرعية يعرف مدلولها رسم بها قانون تفويض القادة حق الأمر .

وانما قالها توكيداً من بعد ان خاف عليه العبد الرحيم إبهاماً يخرجه إلى حيرة ففترة ، وان يكون مكاناً تلجأ اليه الدهشة .

وبهذا التخوف من العبد الرحيم ، وإيراده احتمال ذهول التابع ، حازت بحوث فقه الدعوة مبرراً وسبباً مقبولاً لان تخاطب الحين بعد الحين كل داعية ، تحذره الغفلة وبطء الوفاء ، فان من هو خير منه قد خوطب بمثل ذلك وجرى معه الحوار ، ولم يك عاصياً اذ ذاك ، ولا أظهر استغراباً ولا كان قد حار .

ان الطاعة ليست بدعة نتنادى لها اليوم ، ولكنها المذهب القديم الذي أعلنه موسى عليه السلام ، فأداه فنه في الطاعة إلى فن في القيادة سديد .

ألا وان أزمة الاسلام ومشكلته الحاضرة تكمن في حاجته إلى القادة ، ولن يصل مخلص إلى وعي فن القيادة حتّى تتعود قدمه المشي في درب الطاعة اللاحب السليك .

● لذة تغري القلب فيتورط

ويتساءل البعض عن شباب ناشئة ، امتلأت قلوبهم أول مقدمهم الدعوة إيماناً ومحبة وأخوة وحماسة ، فلما لبثوا سنوات ، بردت حماستهم واختلفت آراؤهم وخرجوا إلى تعصب فرق بينهم .

انه وصف يترجم ظاهرة تتكرر في بلاد شتى ، في أوقات متعاقبة .

وسبب ذلك ــ والله أعلم ــ ان القلب الانساني يشعر بلذة عارمة اذا تمكن صاحبه من تنفيذ ما يعتقده صواباً ، لكنه لا يقنع ، بل يتسع ممتداً إلى آفاق مترامية فيتطلع إلى إشباع كامل يستغرق هذا الامتداد الواسع ويريد تصاعد اللذة سريعاً ، فلا يصبر بما أودع الله فيه من سر العجلة ، فيخرج مدفوعاً بطمعه وعجلته إلى افراط في تشغيل الجوارح بما يعود باللذة على القلب ، فتتعب وينعكس تعبها على القلب في صورة ملل ، فتختلط اللذة بالمغارم وتعود ثقلاً محمولاً من بعد ما كانت مركباً حاملاً وتظل المغارم تضغط عليه حتى ينكمش ويضيق من بعد الاتساع الذي جبل عليه وشب في كنفه فلا يعود فيه محل لحلم ، ولا لاحتمال يتركه لغيره في ان يصيب ولا لمصلحة غيره في ان تأخذ حقها .

ان هذه الظاهرة في عمل القلوب وطبائعها تفسر لنا بعض جوانب ما نرى في عمل الدعوات الاسلامية من جناية الأخطاء التخطيطية والتربوية على أمثال هؤلاء الشباب الدعاة . ولعل البعض يظن أن أمر تصويبها يحتاج إلى معادلات واحصاءات وخطوط بيان ، بينما هو أقرب من ذلك لمن جرب عن كثب إذ يمكنه ان يتناوش التصويب من خلال معرفة بسيطة بسياسة القلوب ، ليست بنائية عنه ، ولا هي في مكان بعيد .

ان قرة عين الدعاة برؤية زمرة القلب الواحد ، والانغماس فيها ، تجرّ جرّاً إلى تلمّس ما فعله ضعف التربية بالأمس من فتن أبدت ذهولاً عن قواعد التعامل الايماني ، وجفل خلالها الأنصار .

ولا بد أن نراجع أنفسنا ونستدرك نقصنا ، بجولة إيمانية طويلة نصفي فيها عقائدنا ونزيد عبادتنا ، ونسمو باخلاقنا وأذواقنا ونثبت قلوبنا ، ونجرد دعوتنا للآخرين على أساس عقائدي ايماني يزهد بنا معها الطامع ، والمستعجل ، ومتقلب القلب .

● ريش يوحي

انها ليست بدائية الأسلوب ، ولا بداوة المحيط ، جعلتا دعوة كل الأنبياء عليهم السلام تركز على معنى التوحيد ، وتدندن حوله وتتممه بمكارم الأخلاق .

كلا انهم .. ليسوا كما يظن المستعجلون .

انها حكمة الله جعلتهم يعلمون اتباعهم الريش والاحتجاب التربوي ، وفصاحة اللغة القلبية .

وهو حب الله ، يروونه ويبشرون به من يكون حليماً متأنياً ، كما قال النبي ﷺ للأشج رضي الله عنه رئيس قبيلة عبد القيس :

« ان فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والاناة »[1] .

فحلم الحليم حصانة له ضد الافتتان يعصمه عن الغضب والانتصار للنفس فيلزم العدل في أحكامه . وأما تأني المتأني فأظهر في تأديته إلى العصمة ، يمنح فرصة للتأمل والقياس ، فيزول الالتباس .

وانها فطنة الرسول ﷺ حين رأى تكرر الآيات التي تذم المتكبرين ، فراح يعلم الاجيال مقاصد القرآن ، فقال :

« الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس »[2] .

اي جحد الاحتكام إلى قواعد الشرع ، وغمط الناس حقوقهم بعدم تنزيلهم منازلهم وبتجاهل حسنات المخالفين .

● ورثة الانبياء على درب الاناة

ثم هي كذلك الحكمة كانت تحوط ورثة الانبياء حين كان إغراء المال يقوى ، أو حين كانت الفتن تسود ، ويكثر قيل وقال .

فما هو بأول طرق لأبواب الوعاة حين طرق اولئك باب الفضيل بن عياض رحمه الله .

(فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ، والدموع تتقاطر من وجهه ولحيته ، وهو يضطرب .

---

(١) (٢) صحيح مسلم ٦٥/٣٧/١

فقال لهم : ما بالكم ؟

فقالوا له : عظنا يا أبا علي) .

ولا هو بأول جواب من مثله حين وعظهم فقال :

(عليكم بالقرآن .

عليكم بالسنة .

عليكم بالصلاة .

ويحكم ! !

هذا الزمان ليس بزمان حديث ، وانما هو زمان : احفظ لسانك ، واخف مكانك وعالج بالليل ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر) .

انها السياسة التربوية الدائمة لكل جماعة اسلامية عاملة .

يريد الاسلام ان نصفيها قلوباً .

تربية طويلة ، لأطول مما منحناها من الوقت آنفاً، مادتها القرآن والسنة وخلوات الثلث الآخر ، تعلمنا صواب القول والعمل وإنكار الذات ، وتقذف في القلب ميزاناً فرقاناً بين معروف ومنكر .

يجب أن تتعود قلوب الدعاة على ان تأخذ ما تعرف أخذ عبادة وسرور ورجاء ثواب، وان تدع ما تنكر ، ترك عبادة ونفور وخوف عقاب .

● طريقة سلفية في تعليم الوفاء

وبهذه السجية اشرق جمال وفاء من وفى ممن سلف وظل ينير مجالس أجيال الذاكرين حتى وصل إلى دعاة اليوم يحثهم إلى إتساء وإقتداء ، ويلوم من تخلف ويوسعه تقريعاً .

* انها ومضات إشراق الوفاء تدفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى التغني بها وإلى جعلها عنوان المسلم، فسيرها كلمات هاديات لما جاءه عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه في وفد .

يقول عدي :

(فجعل يدعو رجلاً رجلاً ، ويسميهم . فقلت : أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟

قال : بلى .

أسلمت إذ كفروا .

واقبلت اذ ادبروا .

ووفيت إذ غدروا .

وعرفت إذ أنكروا .

فقال عدي : فلا أبالي اذاً)[1] .

تلك جوانب شخصية المسلم الحق وهويته :

اقبال حين الادبار .

ووفاء حين الغدر .

ومعرفة حين الانكار .

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٢١

لا يبالي بعدها ان جهل اسمه الجاهلون او ذهل عن نسبه الناظرون ، طالما أنه شمخ بمنقباته على حضيض من حام حول دنيا وحظوظ ، وتسامى بهن محلقاً إلى الأفق الأعلى .

* ثم يظل خير طالب السلامة يزداد ، ويعظم حتى يكون مربياً لغيره معلماً ، يعلمهم سبيل السّتر والبراءة ، كما كان التابعي الجليل كعب بن سور رحمه الله فانه لما حدث الخلاف بين الصحابة ، وجر إلى القتال :

(دخل في بيت ، وطين عليه ، وجعل فيه كوة يناول منها طعامه وشرابه ، اعتزالاً للفتنة) [1] .

ومن لم يخبر التّربية يظن ذلك تكلفاً يهيجه الرياء ، وربما سارع إلى رمي كعب بقلة العقل ، ولكنها التّربية بالمنظر العملي يفعل ذلك ليراه المتورط المستدرج والمدعو المغرى فيكون ثم سؤال من انفسهما لانفسهما ومراجعة وتحقيق وتدقيق،لعل القلوب تسكن وتهدأ فترجع إلى العقول فكرتها وتنظر الأمور مع عاقبتها ، وتتجاوز رؤية يومها إلى مصيرها في غدها .

وانما يكون هذا الاعتزال اذا كان ثمة إشكال ، أو إرهاق ودماء .

أما حين تتوافر الأدلة على شرعية أمير ، فليس غير الطاعة ، مهما نازعه الناكثون .

---

(١) طبقات ابن سعد ٩٢/٧

٣ التأويل المستدرج

ما برح مقدار إدراك معنى الأخوة يميز ويفاضل بين الدعاة . ولن يرتقي داعية إلى أوج الوعي إلا إذا اعتبر إبراز خلق الأخوة الايمانية وتعليم موازين الإخاء هدفاً أساسياً من بين أهداف الدعوة الاسلامية وإلا اذا أدرك ان إحلال هذا الخلق في التعامل الواقعي بين المسلمين ، وتجسيده في صورة جماعة عمل متآخية ، يخول الدعوة إدعاء النجاح ، ويمنحها لوحده مبرر الوجود حتى ولو لم تصب سرعة التأثير ، أو صد عنها جمهور سذج الناس صدوداً .

● اخوة العمل لله

انها اخوة العقيدة التي يكفي تمثلها في فئة قليلة ، تورثها بالتعليم إلى خلف يواصل إحياءها .

وانها اخوة العمل التي تتخطى الألوان والأقوام ، وتمزج العاملين معاً ، لتفنى خصائصهم ، وتكون ثم سبيكة تجيب طارقها برنين واحد متجانس :

ان يبل مصطنع الاخاء فاننـــا نغدو ونسري في اخاء تالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
او يفترق نسب يؤلف بيننـــا عمل اقمناه مقـــام الوالـــد

اخاء ، ووصال وعمل .

نبضات تعني أمل الحياة .

ونغمات تسلي القافلة السارية نحو فجر جديد .

فمن عرف فضل الحادي ، واستحلى الانصات لنبضات قلبه ، تشعره استمرارية الحياة حين سكون الجسد ، لا شك يسوؤه التشويش ، وتقطع لذته الهزة .

وبمقدار ما يكون إدراك مغزى الاخاء ، وما يؤدي اليه من فقه الطاعة سامياً ، يكون تلبيس التشويش ، وما يؤدي اليه من الافتراق ، ويذهب الواقف بازاء كل منهما بنصيبه وحظه ، هذا بسموه وما نال ، وهذا بتيهه وما فقد .

ولقد قالها الشيخ حامد عسكرية رحمه الله في انفار شوشوا على الامام رحمه الله ، وأشار اليهم ان :

(هؤلاء لا خير فيهم ، فقد فقدوا إدراكهم لسمو الدعوة ، وفقدوا ايمانهم لطاعة القيادة ، ومن فقد هذين فلا خير فيه

في صفنا)[1] .

بل واكثر من مجرد حرمان الصف من خيرهم ، فان الفتنة اذا بدأت مبكرة في المجموعة العاملة ، أو جددت واحيت ما كان قد قطع من جذور فرقة قديمة ، فانها توفر مناخاً نفسياً دائماً في الأجيال اللاحقة يسمح بتكرر الافتتان ، وربما عذر المقلد ، وناء الرائد باثمه ، بما سن من بدعة تغري المتأخر وتستجيش .

● بداية الفتنة تأويل

وسبب ذلك أحياناً : ان القلب كالعين في أبصارها ، فتجد عيناً لا تبصر البعيد ، وأخرى لا تبصر بمجرد وجود ضباب طفيف او غبار خفيف فضلاً عن أن تكون في ظلام .

فابصار القلب تابع لقوة الفقه ونور الايمان ومقدارهما ، وكلما كان الأمر المختلف فيه من سياسة الدعوة لا يضبطه نص واضح ، ويلزم فيه الرجوع إلى القواعد العامة وقواعد جلب المصالح وسد المفاسد وأبواب الشبهات ، كلما كان استنباط الفقه فيه أصعب ، والفتوى به تحليلاً وتحريماً ، او استحباباً وكراهة ، أشد صعوبة ، لان التأويل له مجال في الحكم آنذاك ، ولو نظرنا إلى فقهاء القرون الأولى لوجدنا انهم الزموا أنفسهم باحتياطات كثيرة في هذه الأبواب من السياسة الشرعية، ومع ذلك أخطأ بعضهم واتى بالغريب الذي يأباه جمهور

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية /١١٣

الفقهاء ، فكيف بنا نحن في هذا الزمن المتأخر ؟

ثم اتم الامام البنا رحمه الله فقه الأوائل ، فوضع أصولاً صحيحة لسير الدعوة ومراحلها ، ومفاهيم عامة تحدد إطار الفكرة وأساليب التعبير ، وتلبس الرعيل الأول للذين معه بكل ذلك ، وبارشاده : اطالوا مرحلة التربية ، وجردوا الدعوة على أساس عقائدي ، وابتعدوا عن التحالف مع الأحزاب ، وحذروا ان يقعوا في هيمنة الكبراء . غير ان البعض دخلوا باب التأويل تدريجياً ، ومالوا عن التربية الأصيلة المعهودة إلى استعجال يضطرون معه إلى تساهل في توثيق الرجال ، فابعدتهم تأويلاتهم عن جوهر الدعوة الذي عرفت به ، كما أبعدت سلفهم في صدر الاسلام عن جوهر الاسلام ، مع غلبة الورع آنذاك .

ومثلما رأينا انتصار صاحب كل تأويل إلى تأويله حين أنكر عليهم جمهور التابعين والفقهاء ، فنشأ القول بالقدر والتجهم والاعتزال والارجاء والخروج ، نرى اليوم تواصي المتأولة ، ونشوء فقه غريب يجيز باسم مصلحة الدعوة تجهماً في الوجه ، وتهجماً في اللسان ، واعتزالاً للعمل ، وخروجاً عن البيعة ، لا يدرون ان ذلك ما هو بالجديد .

● سواد ينتشر

ولتحذير هذا المعدن الأول الآخر ، القديم الجديد ، ضرب الله مثلاً ، فأمرنا أولاً بالوفاء فقال :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، ان الله يعلم ما تفعلون ».

(والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ ، ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله)[1] .

ثم قال لمن له قلب يحذر :

« ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ، تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم » .

(فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأي ، تفتل غزلها ، ثم تنقضه مرة أخرى قطعاً منكوثة ومحلوله)[2] .

ويجيء كلام النبي ﷺ يبين أمثال الله تعالى التي يضربها للناس ، ويوضح انها مسألة استعداد في بعض القلوب لقبول الافتتان . فمن الناس من جعل الله فيه فطرة صالحة تنكر الفتن ، ومنهم من يأبى بعض الهداية فيضله الله . فمن اباها ابتداء : اباها انتهاء ، ومن رحب بها ابتداء : طبعت في قلبه سواداً يظل يتسع حتى يتم اسوداده مع نهايتها ، كما ورد في الحديث الصحيح عند مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(تعرض الفتن على القلوب كالحصير ، عوداً عوداً ، فأي

---

(١) (٢) الظلال ١٤/٩٣/٩٤

قلب اشربها نكت فيه نكتة سوداء ، واي قلب انكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على ابيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْباداً ، كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه) [1] .

وربما يملك القلب الاستعداد للفتنة ، لكن وقت الرخاء والعافية لا يفضحه ويتستر عليه ، فاذا اكتنفته الشبهات ، وهيجته المهيجات ، انفضح وانكشف .

وشبهوه في ذلك بصاحب الصدر المريض ، ما احسن تنفسه أيام الصفاء ، فإذا أثارت الريح الغبار : لهث ، وضاق نفسه ، واختنق .

أو كحوض ماء راكد ، ترسب الطين في قعره ، تلقي فيه حجراً صغيراً فيختلط كله وقد كنت تظنه زلالاً ،أما الحوض النظيف ، فان القاء الحجر فيه يزيده جمالاً ، بما أحدث من دوائر الأمواج التي تعكس ظلال الأغصان الخضراء.

فانظر آثار حجر الفتنة في القلوب تحكم عليها ، ولا تغترن بظاهر من الركود موهم ، ولا تستكبرن وصفنا للمفتتن انه كالكوز المنكوس ، فكم رأينا من انتهت به أيامه إلى ترك الصلاة .

---

(١) صحيح مسلم ٨٩/١ ، وقوله : اسود مرباداً ، اي شدة البياض في سواد . وقوله : مجخياً ، اي منكوساً . وفي زهد ابن المبارك ٥٠٤ قول لعلي رضي الله عنه يقرب من هذا الحديث .

● الدعوة محفوظة

واعلم ان من ابى : لن يضر الدعوة شيئاً ، فانها محفوظة ، وليس لما تبني يد الله هادم ، وان قول المخلص يخلص صدقه ، وتأبى فما تزكو لباغ بواطله .

وكما قال عبد القادر عودة رحمه الله :

(انها دعوة الله وليست دعوة أشخاص ، وان الله علم المسلمين ان الدعوة ترتبط به ولا ترتبط بالدعاة اليها ، وان حظ الأشخاص منها ان من عمل لها اكرمه الله بعمله ، ومن ترك العمل لها فقد أبعد الخير عن نفسه ، وما يضر الدعوة شيئاً)[1] .

بل لاحظ الامام البنا رحمه الله حدوث النفع للدعوة ، فروى انه لما أصدر أحد المخالفين كراسا يهاجم فيه القائمين بأمر الدعوة ، ورد عليه القائمون ، (ما كاد هذا الرد ينشر حتى تلقفه الناس ، ولفتت هذه الحركة أنظارهم إلى الدعوة ، وأخذوا يهتمون بكل ما يتصل بالجماعة ، فكانت تلك الحركة من أكبر العوامل على الانتشار وانضمام عناصر كثيرة من الناس)[2] .

---

(١) مجلة (الدعوة) العدد ٥٢

(٢) مذكرات الدعوة والداعية /١١٧

ولهذا اشفق الأولون على أهل الفتن ، وحذروهم سوء العاقبة ، فكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول :

(اياكم والفتن ، لا يشخص اليها أحد ، فوالله ما شخص فيها أحد إلا نسفته ، كما ينسف السيل الدمن) .

ويصور لنا قتادة بن دعامة رحمه الله ، وهو أحد اجلاء التابعين ، تجربة فتنة رآها ، ويضع أمامنا نتائجها التي رآها ، فيقول :

(قد رأينا والله أقواماً يسرعون إلى الفتن وينزعون فيها ، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله ومخافة منه ، فلما انكشفت ، اذا الذين امسكوا أطيب نفساً ، واثلج صدوراً ، وأخف ظهوراً من الذين اسرعوا اليها وينزعون فيها ، وصارت أعمال اولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها . وايم الله ! لو ان الناس كانوا يعرفون منها اذ أقبلت ما عرفوا منها اذ ادبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير) .

ووالله قد رأينا ما رأى قتادة ، وعرفنا بعض من شارك في الفتن تكاد أجسادهم تتهدم وقلوبهم تتقطع كلما ذكروا ما كانوا فيه من العز ، وما آل اليه أمرهم بعد من الانغمار .

ولا ينجو من هذه الفتن إلا السيد ، صاحب أخلاق السيادة ، الحليم ، المحب للتوبة ، فانه قد ينخدع بزخارف

يصوغها المفتن ، لكنه سرعان ما يرجع إلى رشده وصوابه ، وهو ثالث الثلاثة الذين عددهم حذيفة حين قال :

(ان الفتنة وكلت بثلاث :

بالحاد النحرير الذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف .

وبالخطيب الذي يدعو اليها .

وبالسيد .

فأما هذان فتبطحهما لوجوههما .

وأما السيد فتبحثه ، حتى تبلو ما عنده) .

فالحاد النحرير ليس له رجاء النجاة .

والخطيب فيها صاحب سيف ايضاً ، كما قال ابن عباس في بعض ما يؤثر عنه ان سيفه لسانه ، فهو مع صاحبه .

الا السيد ، فان الفتنة هي امتحان له ، فان كانت اخلاق السيادة فيه أكثر ميزها ، وان كانت أقل جرفته ، فقد يفيق في أولها ، وقد يفيق في وسطها ، وقد يفيق وهي على مشارف نهايتها ، بمقدار ما فيه من النبل ، وبمقدار ما عنده من العلم ، فان (الفتنة اذا أقبلت عرفها كل عالم، واذا ادبرت عرفها كل جاهل) كما يقول الحسن البصري سيد التابعين [1] ، فان كان علمه كاملاً أبصرها قبل مجيئها ورأى نتائجها وكأنه يهتك حجب الغيب ، ويتأخر وقت إدراكه لضررها كلما كان

---

(١) تاريخ البخاري الكبير ج ٢ /ق٢/ ٣٢٢

علمه أقل . فاذا انتهت فلا فضل له في رؤية تشتت دعاتها والفلاسهم ، فانها تكون مشاهدة بصر لا إدراك قلب ، يتمكن منها من لا عقل له أيضاً ، وعندئذ لن تنقذه إلا توبة نصوحة جازمة تبعده عن فتنة مقبلة أخرى ، يتزود لها التقوى ، ويأتم بالدليل ، ويسلك الصراط ، ويدور بعدها ضمن نظام الجماعة وخطتها وأعرافها .

سلاسل العيوب

٤

كل صادق في اسلام وجهه لله تعالى ، يدرك – مع أول خطوة – انه مهاجر إلى الله وحده ، فار اليه ، فلا يزال متعجلاً مشتاقاً .

وهو مع أول فراره هذا ، يدرك علو مدرجه ، ويعلم انه طبقات ، فلا يزال مرتقياً صاعداً ، موقناً ان مرتبة الجنة العليا تقتضي علواً في نيته ، وترفعاً في مسلكه ، عن الخلط والنقصان .

فهو يريد استكمال عناصر الايمان كلما علم ان هناك ثمة ثلمة ، ويعزم لذلك عزمة . فاذا شرع في الاستكمال : أدرك ضرورة الصفاء فيه ، وان يرفأ ويرتق بجنس ما وهبه الله من خير آنفاً ، ألاّ يفضحه النشاز ، فيعزم لذلك عزمة أخرى ،

فثالثة تستدعي رابعة ، في نهضات متواليات ، حتى يصيب مراده .

وأما من خلط : فقد غلط ، لا يستطيع تناوش الاستكمال من مقعد تخليط بعيد ، ولا الارتواء من كأس ممزّجة مشوبة ليس فيها الصريح .

● ذو العيب يحتاج الدعاية

ولقد شبهوا المستكمل النقي ببدر تمام في ليلته الرابعة بعد العاشرة ، كيف انه استدار ، لم يتربع ولم يتطاول !

فالبدر تمدحه خاصة الشعراء حتى امتلأت دواوينهم بوصف بهائه ، وهو صامت ساكت ، يعلوه وقار الاطمئنان انه لن يغفل عن روعته أحد ، فمن ملتذ برؤيته في صمت أيضاً ، ومنبه باللسان .

قالوا : أما الناقص ، المفضوح بفتوق لارتق لها ، فهو كالقمر حين يخسف ، يخرج عن سكينته وصمته ويحتاج لضجيج الطبول ، ومدائح الأطفال ، ويستجيش حماس العجائز ، يهيب بهن ان ينكرن على حوت ابتلعه واعتدى على حقه وجماله .

● الأتمام الصامت

ولذلك كانت وصية السلف ان : التمام التمام .

أرسلها أبو بكر رضي الله عنه من وراء الصحراء إلى خالد بعد انتصاراته في العراق ، ان :

(ليهنك ابا سليمان النية والحُظوة ، فأتمم : يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك ان تدل بعمل ، فان الله له المن ، وهو ولي الجزاء ...)[1]

يطلب منه الاتمام الصامت في غير وقوف عن السير حتى يكون كذلك البدر .

ثم ورثها عن خالد احمد بن حنبل ، فما وقف ، حتى قال صاحبه المحدث ابراهيم الحربي :

(لقد صحبته عشرين سنة ، صيفا وشتاء ، وحراً وبرداً ، وليلاً ونهاراً ، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالامس)[2] .

لم يعرف الوقوف فضلاً عن التخلف ورجوع القهقرى ، انما هو المرتقى المتعجل المتمم .

● تثبيت وتثبيط

ولبثوا في التقدم الجريء حتى دخلوا السباق ، كل يحب ان يقرب من الكمال ادنى ، حتى ليأتي أحدهم الديار البكر ، ويرتاد كل يوم منزل فضل لم يعرف لاحد قبله ، ويأتي في

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٨٥

(٢) مناقب احمد لابن الجوزي /١٤٠

التنافس بجديد ، لم يكن له ولا لغيره بالامس ، وحتى راح الشاعر يتساءل ويبدي دهشته مخاطباً أحدهم .

عجباً بانك سالم من وحشةٍ في غاية ما زلت فيها مفردا

يتعجب كيف لم يرجف فؤاده وهو المتوحد بلا أنيس معه يشاركه خلقه الذي هو فيه ، كأنه طليعة جيش ..

فأمّا الموفق فيمضي قدماً ، ملتذاً بتفرده هذا ، ثابتاً بتثبيت الله تعالى ..

(اذ يوحي ربك إلى الملائكة اني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ..)

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة .)

وقد قال تعالى لاكرم خلقه عليه : (ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً) .

(فالخلق كلهم قسمان : موفق بالتثبيت ، ومخذول بترك التثبيت) [1]

واما الراجف فيعلن برجفته للشيطان عن ضعفه فيأتيه في صورة الانيس ، يحاوره ويساوره ، حتى يجد فرصة القاء كلمة التثبيط ..

انها رجفة المتوغل الضعيف ، توقف ولا تؤخر . والعاصم منها انما هو الصدق .

---

(١) اعلام الموقعين ١/١٧٧ طبعة محمد محي الدين

(فأثبت الناس قلباً اثبتهم قولاً ، والقول الثابت هو القول الحق والصدق ، وهو ضد القول الباطل الكذب .

فالقول نوعان : ثابت له حقيقة ، وباطل لا حقيقة له ، واثبت القول : كلمة التوحيد ولوازمها ، فهي اعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والاخرة ، ولهذا ترى الصادق من اثبت الناس واشجعهم قلباً ، والكاذب من امهن الناس واخبثهم واكثرهم تلوناً واقلهم ثباتاً ، واهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاخبار وشجاعته ومهابته ، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك ، ولا يخفى ذلك الا على ضعيف البصيرة .)[1]

ولهذا كان دواء الضعيف ان اراد الوقاية من هذه الرجفة ان يكون صادقاً ، وهو الدواء الذي عصم به ابو ذر رضي الله عنه نفسه منها لما عرف ما هو عليه من الضعف فقال :

(يا رسول الله : أرأيت ان ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : تكف شرك عن الناس ، فانها صدقة منك على نفسك)[2]

فكف شره ولم يفتتن زمن الفتنة ، يعينه صدقه ، اذ لم تقل الغبراء ولم تظل الخضراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ..

---

(١) اعلام الموقعين ١/١٧٧

(٢) صحيح مسلم ١/٦٢ .

لكن المفتقر إلى درجة أبي ذر في الصدق يدخل في الشر بمقدار فقره ، فلا ترى ضعيفاً بعده الا وهو بخيل في التصدق على نفسه يلفه الشح الشديد المفضوح ، او يحرمها من الطيبات فحسب ، بمقدار قربه من الكذب او بعده عنه .

● للعيوب نقاط انطلاق

ولو سلم بعد هذا البخل لهان خطبه ، ولكن العيب من شأنه ان يتتابع بشكلين مزدوجين :

عدوى وتنوعاً ، فيكون عيوباً كثيرة تقعد بصاحبها وتسري إلى غيره كعدوى المرض .

أما العدوى فان وحشته الأولى قد أوقفته عن التقدم بما رجف فؤاده لتفرده في خصلة خير قد زهد فيها غيره ، ثم يخطيء ويأتي عيباً ، ومن شأن البشر الخطأ ، فيربا بنفسه ثانية عن التفرد في الخطأ ويعتاد طلب الأنيس ، وينسى طريق التوبة القريب ، فيكون داعية للخطأ ، كما قال زهير ابن نعيم :

(يخطيء ، فيحب أن الناس قد اخطأوا) فيصيح بالفتنة في كل واد ينشرها افقياً ، ويصير راجفاً مرجفاً .

وأما التتابع النوعي فلان العيوب مترابطة ، بعضها يستلزم البعض ، مثل ترابط اخلاق الايمان ، وهو ما قرره الفضيل بن عياض حين قال :

(من اراد ان يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون ،

فمن سلم من الظن : سلم من التجسس ومن سلم من التجسس : سلم من الغيبة) .

ولا شك ان الفضيل قطع ذكر التوالي استفزازاً لنباهتك ، فان العيوب تترى ، بعضها يردف بعضاً فآخر ما ذكره الفضيل، وهي الغيبة : هي اول سلسلة أخرى ، فان الغيبة تقود إلى الحسد ، والحسد يقود إلى النميمة ، والنميمة تقود إلى الكذب ، ومن استجاز الكذب لم يتورع عن النزاع ، إلى مائة عيب .

وهذا ما يقره الاستاذ المرشد الهضيبي أيضاً ، فانه يرى ان أكثر الشرور تبدأ بالغيبة ويقول :

ـ (وليعلم المسلم انه لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا أصبحت عقيدته جزءاً لا يتجزأ من أخلاقه وسلوكه فيكون عادلاً مع الناس جميعاً ويحذر نوازع الهوى ان تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس اليه ، فلا يذكر إخوانه بسوء ولا يغتابهم ، ولا يلمزهم ، فان أكثر الشرور انما تنشأ عن مثل ذلك) [1] .

ورأس هذه الشرور في مشاهدات الفضيل : ارتفاع الأخوة .

يقول رحمه الله .

(اذا ظهرت الغيبة : ارتفعت الأخوة في الله .

انما مثلكم في ذلك الزمان مثل شيء مطلي بالذهب والفضة ، داخله خشب ، وخارجه حسن) .

---

(١) مجلة (المسلمون) ١/٤٢٠ .

هي سلسلة طويلة من العيوب ، كل يكشف بعض الحلقات المتقاربة منها ، وكما وصف الفضيل بعضها ، كشف الرجل الصالح أبو بكر الحكيم الوراق بعضاً آخر منها ، فقال :

(اذا غلب الهوى : أظلم القلب ، واذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر : ساء الخلق ، واذا ساء الخلق : ابغضه الخلق) .

توالد مستمر.

وكما كانت الغيبة وكان الهوى نقاط انطلاق لعيوب كثيرة يكون الانتصار للنفس نقطة تنطلق منها ايضاً جملة وسائل ملتوية .

(ويظهر ان النفس الانسانية اذا الح عليها معنى الانتصار ولو بغير الحق لم تعد تفكر فيما عداه وان ساقتها وسائلها الملتوية إلى الهزيمة المتكررة حتى تصل إلى الهزيمة التامة) . (١)

وكل ذلك يصيب مجتمع الدعاة الصغير كما يصيب مجتمع المسلمين الكبير اذا اعترتهم الغفلة . ومن مرت أمام نظره فتنة سلمه الله منها عرف مقدار صواب الفضيل والوراق والهضيبي ، والمجادل ينكر احتمال تعرض الدعاة لغيبة ، يسميها النقد الذاتي ، وينكر تلبس الداعية بالهوى ، يسميه الاجتهاد والوعي الجديد وما شاء من الأسماء وما درى انه من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء .

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية /١١٢ .

سهام الشيطان ⑤

هي سلاسل مقيدة موثقة ، كما انها سلاسل متتابعة متوالدة ، تلك العيوب الثالمة الثالبة ، تشل صاحبها عن حيوية في الخير وحراك ، وتشده إلى أرض الجمود .

لها تزين وتزيين .

ولسان طويل وترهيب .

لكنها جبانة عند لقاء المؤمن ، تخاف انتباهه .

● لا قليل من الاثم

لذلك كان التخلص من سجن العيوب الخلقية واسرها يمثل المرحلة الضرورية الأولى في الصياغة التربوية للداعية المسلم ، نحرص على التحرير قبل إعطاء الوعي وتعليم الفقه والتدريب على كسب الانصار ، لا نهتم قبل تقطيع وتكسير

حديد سلاسل العيوب بشيء .

فمن تجاوز هذه الخطوة في البداية الصحيحة فكأنما هو مراوح في مكانه ، لم يبرح موضعه ، وان قطع المسافات بدونها ، وأقام الشهود على قدم الانتساب ، ليس هو إلا في تكرير وتقليد لذاك الرجل الذي جاء إلى الزاهد ابي علي الدقاق ، يشتاق إلى مواعظه ، فقال :

(قد قطعت اليك مسافة) .

أي سافر اليه من بلاد بعيدة يبتغي ان يكون له تلميذاً وصاحباً ، يظن ان طول رحلته يمنحه اولوية على غيره في القرب من ابي علي .

فقال له ابو علي :

(ليس هذا الامر بقطع المسافات . فارق نفسك بخطوة : يحصل لك مقصودك .)

وهذه هي النفس الامارة بالسوء ، ذات العيوب ، عناها ابو علي ، لن يحصل مقصود الدعوة في الداعية حتّى يفارقها بخطوة تكون دليلاً على أنه قد حل وثاقها له .

اي وثاق كان ، بسلاسل غلاظ ام دقاق رفاع ، ما دام منهن تكتيف وإقعاد .

وهذا هو الذي أدركه عمر بن عبد العزيز بثاقب بصيرته الايمانية ، فطفق يلح على الواحد من ولاته على الأقاليم ان :

(لا يكونن شيء اهم اليك من نفسك ، فانه لا قليل من الاثم) .[1]

يراه كله قيداً ، قليله وكثيره ، هذا الاثم .

فلما تخلص عمر والذين معه من قليله ، واهتزت الأرض لذلك وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، ايقنها الناس نظرية لعمر في طلب كل خير ، وصاغها شاعرهم وصية :

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر مايرى
لا تحقـــرن صغـيرة ان الجبال من الحصى

وتمثيل التقوى بحذر الماشي فوق أرض كثيرة الشوك يؤثر عن الفاروق رضي الله عنه ، وبذلك جمع الشاعر بين خلاصة فقه العمرين ، ومن عرج ساعة لشوكة شيكها ، حتى وجد منقاشاً ، ثم استخرجها ضاحكاً من شدة صغرها كأنها ذرة ، عرف ان لا قليل من الاثم حقاً .

● نحو براءة عمريـــة

ولولا انهما اول المبادرين إلى تطبيق حكمتهما لما خلدت ، لكنه هو الفاروق لما مات رثته ابنة ابي حثمة ، فصاحت :

(واعمراه ..

---

(١) تاريخ الطبري ٥٦٩/٦ .

أمات الفتن ، واحيا السنن . خرج نقي الثوب ، بريئاً من العيب) [1]

بكل معنى البراءة والنقاء .

افرأيت كيف انتبهت إلى سر مناقبه !

انه سر براءة الداعية من العيب يفعل لدعوة الاسلام أفاعيلها وفتوحها ، وكفى به من سر وسلاح .

وأحدنا اليوم تخالط قلبه أدران الغرور ، ويوهمه خيره القليل ، فيغتر ادلالاً ، ويتوقف عن الاستزادة امتناناً ، آمناً غير وجل ، وقانعاً غير طامع .

ولو أنا ذكرنا ما كان عليه أمر العمرين والسلف ، ثم أجرينا المقارنة والمقايسة ، لتجدد لنا الخوف ، وانبعثت الرغبة ، وحصل الحث ، وعرفنا قدر نفوسنا .

ولكنا خلف نخشى الفضيحة .

قالها صادقة صريحة الرجل الزاهد عبد العزيز ابن ابي رواد رحمه الله ، واعترف باننا :

(اذا ذكرت احوال السلف بيننا : افتضحنا كلنا .)

كلهم في القرن الثالث ، فأي فضيحة لمن في القرن الرابع عشر ؟

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢١٨ .

• لا ترفع سعرك ..

يفضحنا العجب بالنفس .

والمعجب مفضوح ولا شك بفضيحتين :

بفضيحة الزلل والسقوط أرضاً ، إذ ما زال القدماء يقولون عن فلان : (ان العجب أخذ برجله فزل) ، كمن يهمل النظر في السوق إلى موضع قدمه ، فيزلق بقشر او يعثر بحجر ، فمن راث لحاله وشامت ، ويقوم متهماً ، تأتيه النصائح من كل جانب ، وما هو بحاجة اليها بعد ارتجاج عظامه .

او يغالي ، يطلب لنفسه السعر العالي ، فيفضحه الشافعي ، وينادي في السوق ان :

(من سامى بنفسه فوق ما يساوي : رده الله تعالى إلى قيمته .)

وسبب العجب ان المعتقد له يستصغر ما علم من ذنوبه ، وينسى كثيراً منها .

فبشر بن الحارث الحافي يعرف العجب بأنه :

(ان تستكثر عملك ، وتستقل عمل غيرك) .

وهذا الجانب من الاعتداء والازدراء هو الجانب الأظهر في العجب حين فحصه سفيان الثوري ، حتى كأنه قصر تعريف العجب فيه ، فحذرك :

(اعجابك بنفسك حتى يخيل اليك انك افضل من اخ لك ، وعسى ان لا تصيب من العمل مثل الذي يصيب ، ولعله ان يكون هو اورع منك عما حرم الله ، وازكى منك عملاً .)

وكأن الفضيل بن عياض رآه رؤية الثوري ، فجعله مستقلاً عن جانب الاستكثار الذي ذكره بشر ، ومستقلاً عن نسيان الذنب ، فقال :

(إذ ظفر ابليس من ابن آدم باحدى ثلاث خصال قال : لا أطلب غيرها : إعجابه بنفسه ، واستكثاره عمله ، ونسيانه ذنوبه) .

وهذا يعني ان هذه الثلاث ، الجامعة لأوصاف العجب حين رآه الصالحون من زواياه المختلفة ، هي رأس السوء عند الفضيل ، بحيث ان ابليس يضمن بعدها كل عيب يحبه .

اي ان العجب أصل كل بلاء وفتنة عنده .

يجدد بذلك ما نقل له عن عيسى عليه السلام لما قال :

(كم من سراج قد اطفأته الريح ، وكم من عبادة قد افسدها العجب) .

فالعمل الصالح ضياء ونور ، يتحول إلى ظلام اذا هبت ريح العجب عليه ، هكذا بهبة واحدة .

● صرعى المدائح الخمس

قال الثوري :

(فان لم تكن معجباً بنفسك فأياك ان تحب محمدة الناس ،

ومحمدتهم ان تحب أن يكرموك بعملك ، ويروا لك به شرفاً ومنزلة في صدورهم) .

* وهذا هو السهم الثاني من سهام الشيطان بعد العجب ، يعمل احدهم عمله وهو يريد المكانة به .

وصرعى هذا السهم كثيرون أيضاً ، يأتيهم ما يأتي من جهة حب المحمدة العملية .

* فمنه هذا ، ومنه ما يأتي من جهة حب محمدة الناس القولية ، يجربون في مدحه بلاغتهم لاغراض في نفوسهم ، وهو أدرى بما بين جنبيه لو ادكر ، لكنه ينسى فيغتر ، ويعرض عن ناصح أمين يعلمه أدب الدنيا والدين من قريب :

يا جاهلاً غره افـــراط مادحـــه
لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك
اثنى وقال بـــلا علم أحاط بـــه
وأنت أعلم بالمحصول من ريبك

لكنه ان لم يعرف هو منزلته فان الفضيل بن عياض قد وضع في يدك ميزاناً تشخص به فصيلته . فقال :

(ان من علامة المنافق ان يحب المدح بما ليس فيه ، ويكره الذم بما فيه ، ويبغض من يبصره بعيوبه .)

فتراه لو مدحه أحد ينتفخ صدره في الحال ، ويطرب ، وتسبح به الخيالات في بحار من اللذة الغامرة ، فاذا جاء آخر

ناصحاً له : انقلب بسرعة إلى حالة غريبة ، يضيق فيها صدره ، وتتسارع أنفاسه ، وينفلت لسانه بكل لفظ خشن .

ان ستر الله تعالى لكثير من زلاتنا وعيوبنا انما هو نعمة كبرى ، وكل منا أدرى بحقيقة نفسه من غيره ، وما تزكية الغير لنا الا من شباك الاستهواء التي ينصبها الشيطان .

ولقد تأمل خالد بن صفوان في أحوال الناس فحذرك :

(ان أقواماً غرهم ستر الله ، وفتنهم حسن الثناء ، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك) .

* ومنه نوع ثالث ، وهو مبادرة الناقص لمدح نفسه بلسانه . ذكره الله تعالى فقال : (فلا تزكوا أنفسكم .) ، وجعله رباح القيسي سبب فساد الاعمال لما سئل :

(ما الذي أفسد على العمال أعمالهم ؟

فقال : حمد النفس ، ونسيان النعم .)

واستدل به الشاعر على وجود المعايب فقال :

عجباً لمادح نفسه لا يهتدي — لتنقص يبديه فيه مدحها
مدح الفتى عند التحدث نفسه — ذكرى معايبه فيدري قبحها

* ومنه نوع رابع غريب ، فان بعض من يتمكن منهم العجب ، ويرون افتضاح أمرهم ، يلجأون إلى ذم أنفسهم أمام الغير ، ظناً منهم ان الذم سيؤدي إلى اعتقاد المقابل بعدهم عن العجب ، وما دروا ان التواضع منحة ربانية لا تفتعل

افتعالاً ، وانما تتنزل على من يعلم الله صدق توجهه ، وقد كشف الحسن البصري أمر هؤلاء ، وأكد لنا أن :

(من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها ، وذلك من علامات الرياء) .

*** ومنه نوع خامس أكثر غرابة ، إذ يسخر الشيطان لعاشق المدح من يقوم بدور متوسط ، فهو لا ينصحه ، يخاف أن تتجدد ثورته ، ولا يمدحه ، يخاف أن ننكر عليه ، بل يلجأ إلى ذكر عيوب أقرانه الآخرين ، يرمي زيداً بالسذاجة ، وعمراً بالدنيوية والكسل ، فتهدأ النفس الثائرة ، وتطرب من جديد ، ونرى فيها صورة واقعية تصدق الفضيل حين يقول :**

(ان من علامة المنافق أن يفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه) .

● كفى بالله مزكيـــا

* لكن الكيس من دان نفسه دائماً واتهمهـــا بالتقصير ، ورأى أن ما يعمله مهما كثر قليل بجانب حقيقة شكر الله .

* وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله : رجل تصدق بيمينه صدقة لا تعلمها شماله . ومثله الذي يفتح الله على يديه بالاعمال الصالحة لا يعلمها الا قليل ، ويراها المسلمون فلا يعرفون صاحبها .

* والدعاة يهتفون من أول يومهم ان : الله غايتنا .

• فما ضرهم ان يحشروا مع قتلى نهاوند الذين لا يعرفهم الناس ، بل الله يعرفهم ؟

يقول مدرك بن عوف الاحمسي :

(بينا أنا عند عمر رضي الله تعالى عنه اذ أتاه رسول النعمان بن مقرن ، فجعل عمر يسأله عن الناس ، فجعل الرجل يذكر من أصيب من الناس بنهاوند ، فيقول : فلان بن فلان ، وفلان بن فلان. ثم قال الرسول : وآخرون لا نعرفهم .

فقال عمر رضي الله عنه : لكن الله يعرفهم .) [١]

وفي لفظ أخر :

(ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم) [٢] .

• وانما يسد باب الفتن في الدعوة بمثل هؤلاء الجنود الذين يجردون عملهم لله ، ولا يحفلون بمعرفة غيرهم او جهلهم لما يعملون ، والا فانها سهام الشيطان قاتلة .

---

(١) الخراج لابي يوسف /٣٥ .
(٢) مجلة (المسلمون) ١/٥٩٦ .

٦ الهوى الناقص للبدء النابض

ان الله جميل يحب الجمال .

يحبه لعبده ، يريده أن يكون جميلاً .

واجمل الجمال : تجريد العبودية لله تعالى ، خالصة ، نقية ، من غير خلط .

ليس للجمال الذي يحبه الله ترجمة ارفع من هذه .

عيش مع جمال موازين الاسلام .

ومع جمال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومع جمال فقه ورثته من المجتهدين .

ومع جمال سيرة أئمة المؤمنين ، من مجاهد وزاهد ، وجندي وقائد .

باستقلال .

فمن خلط المعية فقد شان الولاء وغلط .

ولكن بجرده ، على الذي روي لنا من مذهب ابي القاسم الجنيد البغدادي .

قال ابو بكر الكتاني :

جرت مسألة في محبة الله تعالى بمكة ، فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي .

فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ، ثم قال :

(عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم باداء حقوقه ، ناظر اليه بقلبه .

فان تكلم فبالله ، وان نطق فعن الله ، وان تحرك فبأمر الله ، وان سكن فمع الله .

فهو بالله ، ولله ، ومع الله) [1] .

● مع الله في كل حال ..

* مع الله في سبحات الفكر :

يسيح فكره في خلوات الليالي مع عظيم صنع الله ، يتدبر خلق الأرضين والسماوات وما فيهن من جمال وكمال ، وتجول خواطره مع ما يوجبه الله عليه من النذارة والدعوة اليه .

* مع الله في لمحات البصر :

يرى الآيات التي تدل على انه واحد ، ويطالع دلائل

(١) مدارج السالكين ٣/١٦ .

اعجازه ، ويشاهد واقع الناس ، ما بين محبوب مطمئن انزل الله سكينته عليه والبسه رداء المهابة ، وقلق مذموم ملعون ، قد حلت نقمة الله فيه .

* مع الله حال احتدام الخطر :

يوقن ان الله لا يخذله عند وقع الاذى وتصاعد الصراع ، وان فوق عسر المحن يسر رباني ، يستجلبه بوحدة يحرص عليها مع اخوانه المؤمنين ، يراغم الشيطان بها عند اختلاف الاجتهاد وتزيينات الانفراد .

* مع الله في الرهط والمؤتمر :

يستمتع بجمال زحف النبي بعد النبي ، يقاتل معهم من ارهاط الربيين كثير ، ويعرف ما يحبه الله من ضوابط العمل الجماعي والتآمر بالمعروف ، وانه لا مؤتمر الا واحتمال تباين الرأي قائم خلال محاوراته ، وانه لا خطر في التباين اذا لم يكن ثم انتصار للنفوس .

* مع الله في حب اهل التقى :

يغبطهم على حكمة اوتوها ، ومزيد عمل وفقوا له ، فيشغفهم وداً ، ويتملق لهم لما يرى كلمتهم مجتمعة ، وخطتهم واحدة ، عساهم يدخلونه الزمرة .

* مع الله في كره من قد فجر :

يفاصلهم في استعلاء ، ويتميز بعزة ، ويتطهر عن تشبه ، ويستصغر كيداً ما هم بضارين به من احد الا باذن القدير .

* فكذلك يكون في كل حال .... مع الله .

مع الله في سبحات الفكـــــر	مع الله في لمحات البصـــر
مع الله حال احتدام الخطــر	مع الله في الرهط والمؤتمر
مع الله في حب اهـل التقــى	مع الله في كره من قد فجر[1]

● ومع حقيقة الانسان ومصيره

ثم يتم واقعيته ، فيرى حقيقة ضعف الانسان وقصوره ، ويرثي حاله بالفاظ الحسن البصري ، يقلب كفيه ، ويرسل دمعته عليه ، ويقول معه :

(مسكين ابن آدم ...
محتوم الأجل ، مكتوم الأمل .
أسير جوعه ، صريع شبعه .
تؤذيه البقة ، وتقتله الشرقه)[2] .

ويطيل التأمل خاصة في هذا الأجل الذي يطوق الإنسان ،

---

(١) للاميري في ديوان مع الله /٢٩ من قصيدة طويلة الجأنا هذا المقدار الذي اقتبسناه منها الى بعض التجوز في العروض في البيت الثاني .

(٢) ادب الدنيا والدين للماوردي /٧٣ .

ويخوف نفسه بحقيقة الموت الآتي المحتوم ، ويعير سمعه إلى الفقيه القادري العلوي ، ان اعوزته البلاغة ، وهو يعظه :

الدهر عن طمع يغر ويخدع
وزخارف الدنيا الدنية تطمع
وأعنّة الآمال يطلقها الرجا
طمعاً ، واسياف المنية تقطع .
والموت آت ، والحياة مريرة
والناس بعضهم لبعض يتبع
واعلم بانك عن قليل صائر
خبراً ، فكن خبراً بخير يسمع (١)

ويظل يرتقي في المشاهدة حتى يستشعر الآخرة من بعد الموت ، وتكون رؤيته القلبية لها كالرؤية العيانية ، مثل رؤية المحدث الزاهد عبد العزيز بن أبي رواد الذي كان : (كأنه يطلع إلى القيامة .) (٢) ، فيتردد قلبه بين بشاشة الاطلال على الجنة ، ولذعة الاطلاع على النار ، حتى يرتجف بدنه طمعاً وخيفة ، فيعتقل لسانه عن ذكر الاموال والقصور والمناصب والنساء ، وتصير مجالسه كمجالس الامام احمد :

(مجالس آخرة ، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا .) (٣)

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/٤٢٩ .
(٢) تهذيب التهذيب ٦/٣٣٩ .
(٣) مناقب احمد /٢١٤ .

● المرتقى يخاف السقوط

فما يزال بعد ذلك محاصراً بمشاهد القيامة ، وحقيقة الموت القريب ، وفضيحة الضعف البشري ، فيفر يطلب عيشاً مع الله اسمى ، ويجدد التجرد ، يبغي زيادة سكينة تحميه هول المشاهد والحقائق والفضائح ، ثم يطلبه اخرى ، فأخرى ، في تجديد نيات وتوبات ، حتى يحلق عالياً ، ويبلغ ذروة العيش مع اوامر الله .

هنا : يميل بصره إلى أدنى ، فيهوله احتمال السقوط بدفعة من شيطان عدو ، فيحذر ، ويخشى هوى يهوي به نزولاً وتدحرجاً ، فيشرع يدرس اوصاف هذا الهوى ، من قبل ان ينقض عليه في اعالي جوه وهو لا يعرفه ، ويسأل فقهاء القلوب ، من زاهد وشاعر ، ينعتونه له .

فانما سمي الهوى (لانه يهوي بصاحبه) كما يقول الشعبي ، التابعي الكوفي [١] .

اي انه مشتق من السقوط .

وقول الله تعالى : (والنجم اذا هوى) معناه : سقط وجنح للغروب .

فالذي يتمكن منه الهوى ، ويخالف دلالة القرآن والحديث

---

(١) ادب الدنيا والدين /١٤ .

ووصايا الفقهاء ، لن تراه الا في تعثر ووقوع يكبه على وجهه ، لا يعرف اتزاناً ولا صعوداً .

● سبب الهــوى

وسببه : وسخ يكون في القلب ، من طمع وحسد وانتصار للنفس ، يحجب الرؤية او يشوشها ، كالذي ينظر من وراء زجاجة سوداء .

او يضاف إلى ذلك : ضعف عين الهاوي ، تكونُ مقلته شوساء ، متقاربة الاجفان ، ضيقة المجال ، فتزداد صورة الحق الشرعي عنده غبشاً ولا تتكامل .

ولذلك أوصاه الشاعر أن :

انظر ، واياك الهوى ، لا تمكــنن
سلطانــه من مقلــة شوســاء

فجراثيم تلك الاوساخ تغزو المقلة الشوساء ، فتلتهب ، فتعمى ان لم تعالج ، كما ان تلك الجراثيم تكثر في نفس القلب ، حتى يقف نبضه ، فيكون الهوى ناقضاً لحيوية البداية النابضة .

● الهوى أسر وقيد

ومع ان ابن آدم محتوم الأجل ، وانه :

(أسير عمر يسير) [١]

---

(١) ادب الدنيا والدين /١٠٤ .

. فانه يضع نفسه في أسر آخر يختاره ، لو خلا إلى نفسه لعجب كيف اختاره .

كذلك وصفه ابن تيمية ، فانه لما سجن لم يظهر حزناً ، وقال : (المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه .) [1]

فجعل الهوى أسراً .

ومع ذلك ترى الناس يقعون فيه مرة بعد مرة ، لما فيه من اغراء ، والعاقل يقيد نفسه عنه ان جربه مرة ، الا يسهو فيستجيب ثانية للاغراء ، فيكون كحر لم يصب أصل الحرية واعتنى بصورتها ، فمد يديه لقيد الهوى ، او كعبد استخذى لتعبيده لما خدعوه وبدلوا أسماء القيود ، وجاءه الناصح الأمين الصريح بقيد يحوطه عن مشيه إلى الهوى ، فرفضه .

وهما من تعجب عبد الوهاب عزام لقله معرفتهما ، فقال :

قيّد الحُرّ نفسه برضاه ... وأبى في الحياة قيد سواه
وترى العبد راضياً كل قيد ... غير تقييد نفسه عن هواه [2]

والحقيقة ان هذا القيد الثاني الذي يمنع الانفلات إلى الهوى ليس بقيد وان استعار اسمه ، وانما هو محض ارتباط بالله وأمره ونهيه ، يظن القلب الساذج انه من جنس القيود ، فيطلب التحرر

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٠٢ .
(٢) ديوان المثاني /١٤٧ .

منه ، فيستدرجه اغراء الهوى ، فيجوب ميادينه وعرصاته ، يحسب انه المتحرر ، وبئست حرية الاهواء .

جزم وليد الاعظمي بذلك ، ولم يجعل بين الحالتين الاّ حداً واحداً ، فقال :

والقلب ما لم يكن بالله مرتبطاً   فانما هو بالأهواء جوّاب [1]

حرية اسمها : الارتباط .
او تقلّب ودوران اسمهما : الحرية .

● تنازع يقود إلى البطالة

وللهوى اربع مضرات أخر سوى هذا الاسر ، رآها ثقات الاطباء عند اهل الهوى وأحصوها :

* منها : انه يصد عن الحق ، بحيث تأتي بالدليل والحجة ، فيجحدهما الهاوي . وكان اعظم تخوف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من ذلك ، فقال مشدداً :

(ان اخوف ما أخاف عليكم اثنتين :
طول الأمل ، واتباع الهوى .
فأما طول الأمل فينسي الآخرة .
واما اتباع الهوى فيصد عن الحق) [2] .

---

(١) مجلة التربية الاسلامية ٧/٤٩٤ .
(٢) الزهد لأحمد/١٣٠ .

• ومنها افساد العقل ، فتكون اجتهاداته معيبة غير موزونة.

فخذ بمنهج من يعصي هواه وقد
اطاع اهل الحجـــا في كل مؤتمر
ان الهوى يفسد العقل السليم ومن
يعصى الهوى عاش في أمنٍ من الضرر

• ومنها : التنازع بين الاخوة ، وتطوير اختلاف وجهات النظر إلى تخالف بين القلوب .

وقد استقصى سيد قطب اخبار المختلفين ، فتبين له انه :

(ليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، انما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجة الحق في غيرها ، وانما هو وضع الذات في كفة ، والحق في كفة ، وترجيح الذات على الحق ابتداء .) [١]

• ومنها – وليس بآخرها – : البطالة ، وترك الجماعة ، والقعود عن العمل والمشاركة في ابواب الخير التي يطرقها الدعاة ، حتّى ينسى معنى النشاط ومغزى الدعوة ، فانها :

ثلاث مهلكات لا محالـــه ... هوى نفس يقود إلى البطاله
وشح لا يزال يُطاع دأباً ... وعجب ظاهر في كل حاله[٢]

---

(١) الظلال ١٠/٢٦ .

(٢) نفح الطيب ٨/٥٩ .

● ضرورة علاج الهوى

وأضرّ من هذه الاضرار كلها : ان يكون المرء متمادياً لا يعالج هواه ، غير مسرع إلى مخالفته ، حتّى ان مثل ابي العتاهية يضجر ويتأفف من برودة صاحبه في ذلك، فيخاطبه :

خالف هواك اذا دعاك لريبةٍ
فلربّ خير في مخالفـــة الهوى
حتّى متى لا ترعوي ، يا صاحبي
حتّى متى ؟ حتّى متى ؟ وإلى متى ؟

ويتعجب ثانية لفتوره وعدم المسارعة إلى الاصلاح فيقول :

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى
سبحانه ، ان الهـــوى لغلوب
سبحان ربك ما تزال وفيك عـــن
اصلاح نفسك فترة ونكـــوب

وكأن صاحبه كان كبعض من نراهم اليوم ، ينكرون تلبسهم بالهوى ، لا يكتشفونه ، فيقعدون عن تداوٍ وعلاج ، ولكن الطبيب الماهر يكتشفه وان لم يحسوا به .

ومن يطع الهوى يعرف هواه وقد ينبيك بالأمـــر الخبير

فالخبير ، ومن عنده علم الفتن وصفات الشر ، يعرف الهوى الكامن المستقر من آثاره الظاهرة لا محالة .

ولذلك يجب الاصغاء لطبيب خبير من السلف طلب منا اضعاف هذا العدو فقال :

(الهوى لا يترك العبودية تصفو ، وما لم يشتغل السالك باضعاف هذا العدو الذي بين جنبيه لا يصح له قدم ، ولو أتى باعمال تسد الخافقين . والرجل كل الرجل من داوى الامراض من خارج ، وشرع في قلع أصولها من الباطن ، حتى يصفو وقته ، ويطيب ذكره ، ويدوم أنسه .)

سماها رجولة . ووافقه مصطفى صادق الرافعي في ذلك ، فقال :

(انما الرجولة في خلال ثلاث :

عمل الرجل على ان يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل ان يكون في هواه .

وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من اجره العظيم .

والثالثة : قدرته على العمل والقبول إلى النهاية) [1] .

ولو استقام العاملون على هذه الثلاث لما وجدت فتنة مجالاً للظهور أبداً .

اداء الواجب .

بانتظار الأجر الرباني لا الثناء العاجل ولا الرئاسة .

والثبات على ذلك .

---

(١) وحي القلم ٣٦٨/١ .

نعم ، هو علاج صعب ...... لكنه لذيذ .

صعب وشديد ، كما قال أبو العتاهية :

أشد الجهـاد جهاد الهوى ومـا كرّم المرء إلا التقى
واخلاق ذي الفضل معروفة ببذل الجميل ، وكف الأذى

أي كف اذى ظنونه ، واذى لسانه ، عن المؤمنين .

ويزداد شدة اذا طال الاهمال ، فيما قرر المحدث الثقة الزاهد الكوفي محمد بن كناسة في قوله :

اذا اعتادت النفس الرضاع مـن الهوى
فان فطام النفس عنه شديـد [1]

لكن صعوبة هذا العلاج تخف بعد المباشرة فيه ، ويأتيه المدد من رب رحيم .

وحين ذاك ، ومع كل جولة ينتصر فيها على هواه ، ينتشي ويلتذ لذة ليس كمثلها لذة ، كلذة من يرتقي قمة صعبة ويعلوها ، فان :

(في قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة) .

كما يقول ابن الجوزي [2]

وانما نعنى بعلاج الهوى : مناقضته ومخالفته ، والعمل بضد ما ينادي ، كما ورد في قول الشاعر :

---

(١) الاغاني ٣٤٢/١٣ .
(٢) صيد الخاطر /٥٨ .

هي النفس ان انت سامحتهـــــا
رمت بك أقصى مهاوي الخديعه
فان شئت فوزاً فناقض هواهـــا
وان واصلتك أجزها القطيعـــه
ولا تعبـــأن بميعـــــادهـــا
فميعادها كسراب بقيعـــه (١)

بل ربما ذلك لا يكفي ، فانه يراود مرة أخرى ، ولكن نحتقره على طريقة سيد الزهاد ابراهيم بن أدهم حين وصفه ابن اخته محمد بن كناسة :

* أهان الهوى حتى تجنبه الهوى * (٢)

فنزدريه ، ونهزأ به ، ونضحك عليه ، حتى يولي مدبراً ، يتجنب المرور عبر دربنا بعدها ابداً .

(١) نفح الطيب ٣٦٢/٧ :
(٢) شطر في الاغاني ٣٣٧/١٣ .

تآلف الأرواح

⑦

أصبحت علامة السالك ، الصادق في هجرته إلى الله تعالى ، علامة واضحة يتعرف اليها الداعية الذي أرهبته أهوال وصف الهوى الناقص لحيوية الابتداء المتحرك الدفاق النابض ، تعرفاً سريعاً لا يحتاج إلى مزيد فراسة وتجربة .

فليس من عجب اذن أن يسرع أبو علي الروذباري الاشارة اليها لما سألوه عنها ، ولا عجب ثانية للبلاغة التي انبغت له وكانت بين يديه ، حين طفق يمنح هوية العمل وفق شروط ثلاثة ، ويحكر صدق السلوك على :

(من سلك طريق المصطفى .
وأطعم الهوى ذوق الجفا .
وكانت الدنيا منه على القفا .) [1]

(١) تاريخ بغداد ٣٣٢/١ .

ليس لمقبل على دنيا ، او صريع هوى معهم نصيب .

● عصبة العزم باقية

انه سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم أول الشروط بل البديهية التي قد لا يرى البعض حاجة لذكرها ، ولكن من يعلم أن بعض آيات الله هن أم الكتاب واخر يعدلن الثلث ، يعلم أيضاً ان بعض كلمات المصطفى صلى الله عليه وسلم المحددة لطريقه الذي ندب لنا الروذبارى سلوكه ، هن امهات الحديث ، يضعن الموازين ، ويرسين القواعد. ويجمعن المتفرق، واياهن يعني الروذباري قبل أن يكون عنى الجزئيات. وعليهن يؤكد.

ولقد تحدث صلى الله عليه وسلم عن أمة حزم ضمن امته العظمى التي تنتسب اليه ، لا تترخص مع المترخصين ، ولا تغفل مع الغافلين ، بل تأخذ القرآن والسنة بعزم ، ثم جعل لها علامة صارت ميزاناً اسلامياً ، فقال :

(لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) .

أي ان الداعية المسلم حين يبحث مستقبل الدعوة الإسلامية عليه أن لا يفترض مجرد افتراض بقاء وثبات المجموعة الحازمة ضمن الامة الاسلامية الواسعة ثبات استمرار على مر العصور ، اذ تقنع بمثل هذا الافتراض كل نفس مليئة بالامل ، ولكن يتيقن الداعية ذلك يقين عقيدة .

● تكامل يتبادل الخير

وذو النظر الجزئي يصرف المقصود بهذه الامة إلى صنف من العاملين يبهره خيره وفضله ، فمن قائل أنهم أهل الحديث ، ومن قائل أنهم الفقهاء ، أو ثالث يرى انهم الزهاد ، أو الأمرة النهاة عن المنكر .

والصواب انها الامة المتكاملة الاختصاصات ، التي يعطي وجودها صورة حركية تفي بحاجات الاسلام المتعددة ، كما رآها الامام النووي :

(فرقة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله تعالى ، من مجاهد وفقيه ، ومحدث وزاهد ، وآمر بالمعروف ، وغير ذلك من أنواع الخير ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد ، بل يجوز أن يكونوا متفرقين) [1] .

يعني تفرق المكان ، والانبثاث والانتشار ، لا تفرق الكلمة والبعد عن التشاور واهمال الاسلوب الواحد .

وهذا من فقه النووي في العمل ومعاني الدعوة .

اما من قصرها على طائفة معينة فانما يصيب بمقدار ما في الواحد النموذج من أفراد تلك الطائفة من كمال في الصياغة التربوية والعملية ، كالامام احمد بن حنبل حين ذكر أنهم

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ١/١٧٤ طبعة الحلبي .

اهل الحديث ، فانه رأى شخصية المحدث جامعة لرواية الحديث المسند والفقه في متونه ، والزهد ومكارم الاخلاق ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد ، فقصر الوصف عليهم وأصاب ، ثم خلفه على توالي القرون خلف اخذوا من تفسيره حروفه ، ولم يلتفتوا إلى الواقع الموصوف وكمال صياغات الدعاة من المحدثين الذين عضدوه في جولته مع الجهمية والمعتزلة ، فعكفوا منفردين على ألفاظ من الحديث مجردة ، وتركوا المجتمع يربيه من لا دين له ، والسياسة يمارسها كل عميل وفاسق ، يظنون انهم الامة القائمة على أمر الله .

ولا شك أن جماعة من أفراد تكاملت صياغة كل واحد منهم فقرن العلم بالجهاد والامر والنهي بالزهد ، أرفع من جماعة أخرى يكمل اختصاص الواحد منهم اختصاص الاخر .

وهذا ما يضع الجماعة المتصدية للقيام بأمر الله أمام واجب التربية الجماعية التي تأخذ من خير هذا ليشاركه هذا ، ومن خير هذا فتفيضه على هذا ، فيبطل أمر من خالفهم ، بما سدوا من ثغرات ، قد ينفذ منها هذا المخالف إلى أحدهم فيضره .

واجب تربوي لا تظنن أن السلف غفلوا عن ادراكه أو تلبية متطلباته ، بل لا تزال قصص حياة بعضهم تنتظر من يفيد منها من دعاة الاسلام اليوم اقتداء واتباعاً ، من بعد ما بنت جيلاً من الدعاة في يومها الماضي ، أصلحوا ما أفسد الضعفاء ، وقوموا ما حرفه الدنيويون .

يبرز منهم في الصدر الاول : التابعي المحدث الفقيه المربي الشاعر : عبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعود الهذلي ، حفيد أخي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وأحد فقهاء المدينة السبعة ، ومن رؤوس العلم والنباهة الذين تلمذوا لعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة والنعمان بن بشير وعائشة ام المؤمنين رضي الله عنها وعنهم أجمعين [1] .

نهج عبيد الله منهجاً تربوياً سماه : (التأليف بين الارواح) وخلد عنوانه شعراً فقال :

وما يلبث الفتيــان أن يتفرقــوا
إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل[2]

ظاهره بيت شعر تحركت به شفة شاعر ليطرب قلوبـاً يبهجها الحرف البليغ ، لكنه لمن عرف خلفياته يمثل خلاصة تجربة تربوية انسابت عبر سيرة مرب مصلح لتغذي قلوباً يلذعها تفرق المسلمين .

يجزم أنه احلال الالفة بين الارواح ، أو هو الاختلاف المشتت .

يعني ذلك أن مذهبه التربوي لا يبدأ ولا يكتفي باعطاء

---

(١) تهذيب التهذيب ٢٣/٧ .
(٢) الاغاني ١٤٤/٩ .

العقول ما تحتاجه من علم شرعي ، وتربية فكرية ، وخبرة سياسية ، ودزاسة واقعية ، بل يعتني بالقلوب أولاً يجعلها متشابكة ، ويظل يواصل عنايته بها ان التفت إلى العقول بعد .

فمغزى نظريته أنها تعطي للتربية الروحية الاولوية .

وربما أعطت نظرة سريعة لحديث عبيد الله بن عبد الله في صحيحي البخاري ومسلم صورة قريبة من التفصيل لما كان يربي أصحابه عليه ، ولكن التفصيل كل التفصيل تفهمه ان علمت ان تربيته انتجت عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، مثال المتجرد ، ونموذج الحاكم العادل ، اذ كان هو مؤدبه الخاص ومربيه الذي لقنه معاني الايمان .

فمن بهرته شخصية عمر : عليه أن ينظر إلى من صاغ عمر وكان وراءه ، ويفحص نظرية التأليف التي ألفت بين قلبه وقلوب عصبة الخير التي عاونته في اشاعة العلم والعدل في الامصار . ممن صقلتهم صحبة عبيد الله بن عبد الله ، من أمثال : أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم ، أحد فقهاء المدينة السبعة ووالي عمر على المدينة ، والزهري زعيم المحدثين ، وسعد بن ابراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف ، وعراك بن مالك القاضي ، وصالح ابن كيسان .

فلقد علمهم عبيد الله أسس السلوك في عصر الفتن الذي عاشوه ، واستطاع بنظريته التربوية أن يوجههم لتأسيس مجتمع السلامة والعلم من بعد ما كادت الخلافات تستهلك ما عند الناس

من خير ، وأداه صدق نيته في مسعاه ، وتركيزه على تربية عمر ابن عبد العزيز من بعد ، ووعيه للاحتمالات التي تكتنف مستقبل عمر ، إلى تأييد رباني رفع عمر إلى السلطة ، ليعلم الناس علم الاخرة من مركز القوة المهاب لا من زوايا المستضعفين المنسية.

نعم ، حال السم بين عمر والاتمام ، وشوش أبو مسلم الخراساني فيما بعد على تلامذة جيل الاصلاح الذي وعى نظرية تأليف الارواح ، لكنها كانت بارقة ولا زالت تنير طريق الدعاة السائرين ، وكلمة باقية في عقب عبيد الله من حزب تأليف الارواح .

● مع السرب في النشيد

فلقد ظل وميض البارقة يتوالى . حتى استنار به اقبال من بعد القرون ، فجدد حكمة عبيد الله ، وراح يترنم في رياض لاهور ، تتهادى نغمته ، تعلم المسلم الجديد :

كل من أوتي حظاً من حيـــاه
في ســوى بيتـه يلقـى رداه
بلبل أنت ، ففـي الروض أمرح
ومع السرب بلحن فاصدح (١)

---

(١) ديوان الاسرار والرموز /١٢٠ .

فليست الدنيويات بيئة المسلم ، ولا مجرد الفكرة تعصمه ، ولا الاهداف الجزئية تهبه الحياة ، بل مؤتمر المؤمنين الشامل الغايات ، ومجمعهم المتكامل الذي يتهادى الخير .

يريد اقبال أن لا ننفرد ، ولا نأتي بنغمة نشاز تسلب اللحن جماله .

يريدنا سرب لسان واحد بعد ما كنا زمرة قلب واحد ، نمرح مرح الامال ، لا نحزن حزن اليأس .

يريد تشذيباً في نفوس الجميع ، نبتر به كل نتوء زائد فيهن ، ليتسق خطهن المستقيم،أي : محاسبة النفس وعتابها ، فان لم تستح فتقريعها .

● عملك بالفساد صلاح

فلقد كاد امية بن أبي الصلت — وظلام الجاهلية من حوله — أن يسلم بهذه المحاسبة ومثيلاتها ، يوم قال :

عبد دعـــا نفســـه فعاتبهـــا يعلم أن البصير رامقها [1]

فسنها امية سنة فطرية قبل أن تكون أمر شرع ، تبكت من لم يأخذ الكتاب بقوة ، أن شاعراً جاهلياً سبقه في الفقه ، فأيقن أن بصيراً عليماً يراقب خلجات النفوس من فوق سبع سماوات ويحصيها ويعدها عداً ، وراح يلوم نفسه ويدقق في النقاش .

---

(١) عيون الأخبار ٣٧٥/٢ .

والمسلم الصادق يزيد على ذلك ، فينظم نداء الفطرة بارشاد القرآن ، وتفزعه احتيالات النفس وزخارف تمنيانها ، فيلجأ إلى الله رأساً وبلا ابطاء ، يردد خلف تلميذ الثوري يوسف بن أسباط دعاءه :

(اللهم عرفني نفسي) .

فان في النفس من الاسرار والخفايا مالا يكشفه الا عون الله لنا ، حتى أن استاذاً في علم النفس مثل سهل بن عبد الله التستري الزاهد يجزم بأن :

(معرفة النفس أخفى من معرفة العدو)

أي أن عيوبها تتستر وتموه أمرها كما يتستر العدو ويخادع . لكنه خفاء لا بد من اقتحامه واستجلائه إذا أردنا النفس الزكية ، وتعيين مكان العلة يسبق مقص الجراح .

ان بحث الطبيب عن داء ذي الدا
ءلاس الشفاء قبل الشفاء

أو كما قال زاهد مكة الثقة وهيب بن الورد :

(ان من صلاح نفسي علمي بفسادها وكفى للمؤمن من الشر أن يعرف فساداً لا يصلحه) . وكقول حسن البصري :
(لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله) [1] .

فلا يزهدنك فيها أنها معرفة عيوب وتأمل سالب ، بل

---

(١) كتاب الزهد لأبن المبارك /٥٢٨ .

انظرها على أنها خطوة ضرورية في طريق الاصلاح كما نظرها وهيب .

وانظرها على أنها صفة لا غنى عنها للداعية ان أراد أن يتحقق في الدعوة ، فان من لم يعرف نفسه وينكر عليها منكرها لا يستطيع أن يعرف نفس غيره ويقوّم اعوجاجها .

تلك مادة في قانون العمل عند الكيلاني تقول :

(اذا كنت منكراً على نفسك قدرت على الانكار على غيرك .

على قدر قوة ايمانك تزيل المنكرات ، وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن ازالتها .

أقدام الايمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الانس والجن .) [1]

انها حروف ليست كغيرها أن يقول الكيلاني :

(تقعد في بيتك وتتخارس) .

جرسها مخيف .

انها حروف هجاء مر في لغة الدعاة .

ويا له من عار يأنف منه كل عزيز نفس ، والغيور لا ينسى هذه الجملة ، كأنه يرى وجه الكيلاني يطل عبر القرون ، يهتك عليه ستار النافذة ، يعيره تواريه بالبيوت ، وتلبسه بعيوب تقود إلى قعود .

---

(١) الفتح الرباني /٣٠ .

● **تنقية وصفاء**

وتسميها اللغة عيوباً واخلاطاً ، ولكننا عرفنا الغيبة وحب المدحة والهوى : سلاسل مقيدة وسهام شيطان ، ونواقض بدايات نابضات .

فلا جرم أن يسمي الثوري الرياء بعد ذلك فساداً حين يوصي أخاه ويقول :

(اياكَ وما يفسد عليك عملك ، فانما يفسد عليك عملك الرياء) .

يمر عليه هكذا ولا يعرفه ، غير ناس ولا عاجز ، بل لانه أمام معنى لا يمكن تعريفه ، انما يعرفه البريء منه فقط ، كما يقرر الفضيل بن عياض حين يقول :

(لا يعرف الرياء إلا مخلص) .

فمن ذاق حلاوة الاخلاص عرف مرارة الرياء ، ليس من طريقة أخرى .

يكون مخلصاً ثم كفى ، وسلام على عباد الله المخلصين .

● **آخرك نتن يا هذا ..**

والا فان الرياء يولد عجباً . ينسى معه أن الناس تراب وماء وينسى منة الله عليه اذ جعله مسلماً ، فيتبختر ، ويتصنع ويتكلف المظاهر والفصاحة ، ويستأجر له حاشية تحيطه بهيبة عارية .

ولو درى أوله وحاضره ومنتهاه لوقف مكان الشاعر الذي يصفه متعجباً ، ولزاد تعجباً ! !

فضايح مزرية نسيها المعجب فضحك منها الشاعر :

عجب من معجب بصورته — وكان بالامس نطفة مذره
وفي غد بعد حسن صورته — يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته — ما بين ثوبيه يحمل العذره [1]

ولذلك منع الثقات اسماع الثقة مثلهم كلمة مدح فيه ، بسبب قرب قميص العجب من النفوس ، الا تتناوله يد الممدوح فتلبسه ، حتى خشي عمر بن الخطاب على مثل أبي موسى الاشعري رضي الله عنهما ما قد يولده المدح من غرور في نفسه فقال لانس رضي الله عنه يصف أبا موسى :

(أما أنه كيس ولا تسمعها اياه) [2] .

فان وقع أحد في العجب ، وعاون الثقات الشيطان على أخيهم بمدحهم له في الوجه على حين غفلة من أنفسهم :

تطور العجب إلى كبر فيه غمط حق الاخرين ، ونسي التواضع .

نعم ، كما قال يونس بن عبيد :

---

(١) ادب الدنيا والدين /٢١٠ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٤٥/٢ .

(ليس في هذه الامة رياء خالص ، ولا كبر خالص .
فقيل له : لماذا ؟

فقال : لا كبر مع السجود ، ولا رياء مع التوحيد .)
ولكن هذا السجود يحقق المنزلة الواطئة الدنيا من الفضل ، وفوقها درجات من الفضل تتصاعد حتى تسمو ، وقد أمرنا بالاتقان والمزيد ، وانما ذلك دين المتكاسلين أن يرضوا بالقليل وينفذوا الضروري الذي يرفع عنهم شبهة الكفر والنفاق .

• احذر السقف !

وماذا على داعية الاسلام لو اشبع نفسه بدل ذلك باستعلاء على نموذج الناس المنحرف ، وجمع في الوقت نفسه تواضعاً لاخيه ؟ ويبين مذهبه لمن يظن أنه في تناقض فيقول :

أتيه على كل الانام نزاهة
وأشمخ ، إلا للصديق ، تأدباً [1]

فهو شموخ النزاهة ، يسع الداعية ، يغنيه عن الكبر . وهو تواضع الاخوة يتأدب به الداعية بلا تهمة خنوع ، بل يلحق برعيل من دعاة خمسمائه سبقوه ، قص الامام البنا علينا في مذكرات الدعوة والداعية قصة رضاهم بعامل نجار أميراً عليهم لما عنده من الفقه والصلاح والتضحية ، واعراضهم عمن يحمل شهادة الازهر العالمية لما وجدوا النجار أفضل منه . [2]

---

(١) ديوان البهاء زهير / ٣٥ .
(٢) مذكرات الدعوة والداعية / ١٠٨ .

ولذلك ثبتوا ، وغشيت قلوبهم السكينة في ظلال الدعوة .

(ألا ترى أنه من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن تطأطأ : أظله وأكنّه) ؟

فلا تشمخ على أخوتك ، واخفض جناحك للمؤمنين ، تجد سقف الدعوة وارف الظلال لن يحرمك أحد منه .

الجُنْدِيَّة طَرِيقُ القِيَادَة

٨

حين تدعي نظرية ما دعواها ، فان اللحظات الحرجة وحرارة التحديات هي التي تكذبها آنذاك أو تصدقها ، فيرسخ مدلولها أو يهمل ، ويصير أساساً في التعامل والتفاضل أو يعرض عنه .

وحين أدلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بنظريته في الأشكال الروحية المؤتلفة ، وجربها في أصحابه وتلامذته ، كان عليه أن ينتظر يوم فصل يؤيد مذهبه أو يخونه ، فيتكفل بنقله للاجيال اللاحقة ، أو يسلمه النسيان .

● الامارة حمل ثقيل

ولقد كان يوم خلافة تلميذه عمر بن عبد العزيز هو ذاك اليوم الفصل .

فلئن لم يكن ثمة جيش عاص يتحدى تلميذه وراء أسوار

دمشق ، فان هناك تحديات نفس مقبلة على اغراءات الزياسة ، وبطراً اجتماعياً ، ورخاوة خلف لسلف الهمة والجهاد .

ومع كل خطوة لعمر حين كان يرتقي المنبر ليخطب خطبته الأولى : كانت ترتجف قلوب الذين يظنون ان عبيد الله قد أحيا فيهم فقهاً كاد ينحرف بالتأويل ، وتزداد دقات قلوبهم مع استدارة عمر ، يخافون أن تغلب شهوة تنفر الناس عن مذهبهم التربوي ، وتزهدهم فيه .

انها رجفة الموقف الحاسم ، لا الشك في الفقه المسند ، اذ ربما كان للخوف معنى لو كان لسان عمر يتكلم أو عقله المجرد لكنها كانت دموعه ثم ، وكان قلبه ..

كان فوق المنبر خريج مدرسة يحاول أن يفي لاستاذه ، ويطمن أشكاله ، ويحزن متواضعاً لفتيان لم يعرفوا ما عرف فتفرقوا ، فانطلق يعلن انتصار عبيد الله .

(ألا اني لست بخيركم ، ولكني رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً)[1] .

وهذا الشعور هو أدنى ما تحس به الارواح المؤلفة وتتميز به عن غيرها ، فحين تزول المزايا المصطنعة ، والطباع المتكلفة ، ويحل التواضع ، وتسود الاخوة : لن يبقى من معنى الامارة والرئاسة الا ثقلها الثقيل .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٤٠ .

● عمر يطور مذهب التأليف

لقد أبرد عمر حقاً بكلماته هذه قلوباً طال همها واشتياقها إلى رؤية واقع يظنه الضعاف خيال مثاليات ، وتحليق تمنيات .

نعم ، كانت كلمات عمر وعداً لمستقبل ، واخباراً عن شعور متوار في كامن الصدر ، ولكن كفى بوعود الاحرار ضماناً ، وبأخبارهم صدقاً .

ولذلك أسلس له الناس القياد ، وحصل منهم تجاوب سريع معه ، أحسن عمر استغلاله أيما احسان ، فطور نظرية استاذه في التأليف ، فجعل ابتداء التربية ينطلق من معالجة أعقد عقدتين في الجماعات ، عقدة الفراغ ، وعقدة حب الرئاسة والتنازع عليها .

فالمطالع لسيرة عمر يجد بشدة اهتمامه بعلاج هذين العيبين واضحاً ، وظل تأثيره في ذلك ينطق الشاعر بعد الشاعر ، والحكيم بعد الحكيم ، يستمدون من تجربته معاني الاصلاح .

عرف عمر سيئات الفراغ ،فأوجد للناس شغل خير الهاهم، ان لم يكن عملاً عمرانياً وسعياً في مصالح المسلمين ، فشغلاً تأملياً مع النفس ، وفكراً في القلب ، يفيضان من بعد عزمات فنهضات .

لقد أخرجهم من الغفلة والاهمال والبرود ، إلى التذكر والفحص والاستدراك ، وكفى بهذا الاخراج نجاحاً عند من

يعرف تربية الجماعات . وفي خطبه وكلماته كلها تسمية واشارة إلى عيوب النفوس ، وطرق اصلاحها ، وترقب الموت ، ورجاء رحمة الله ، وخوف عقابه . ثم زاد فاستقدم الخوارج إلى دمشق ، وأمرهم بانهاء تفردهم ولزوم الجماعة ، وذكرهم ضرر الفرقة ، فبات جميع الناس في شغل وادكار ، بمثلهما انتفع أبو العتاهية من بعد ، فاتضحت له مثالب الفراغ ، فقال :

ما أحسن الشغل في تدبير منفعـــة
أهل الفراغ ذوو خوض وارجاف

فالمشتغل جاد فيما هو فيه ، يربي قلبه ، ويعلي همته ، والفارغ الكسول يفتش في الفتن عن لهو يؤنسه .

ثم دعا عمر ثانية إلى زهد في المناصب هو أهم من الزهد في الأموال ، واستخلص من الفتن التي حدثت في الصدر الأول دروساً ، ووعظ المستشرفين للرئاسة مواعظ أماتت فيهم حبها ، بمثلها انتفع أبو العتاهية مرة أخرى ، فحذرك :

أُخَيَّ : من عشق الرئاسة خفت أن
يطغى ويحـــدث بدعة وضـــلالا

وتخوفه هذا صواب لم يبالغ فيه ، فان شرع الله وعرف المؤمنين ينفران عن طلب الرئاسة ، فمن طلبها تمحل لذلك ولا بد ، فيزين الذميم ، فتكون البدعة ، ويقمع المخالف له ويعاديه ، فتكون الضلالة ، ومن نظر إلى عهد ما بعد عمر

أدرك ذلك ، فان القلوب عزفت عما قبحه لها وآمنت ، إلا قلباً واحداً من قلوب أقربائه ، عشق الرئاسة ، فسقاه السم ، فمات عمر ، فكان عصر الضلالة ، والسنوات العجاف .

● مدرسة الثوری تواصل التربية

ولما هالت المربين تلك الضلالة التي عكرت صفاء تاريخ المسلمين بعد عمر : أصفقوا على ذم التنازع على الرئاسة وتحذير الأجيال اللاحقة منه ، وجعلوه أصلاً مستقلاً من أصول التربية الاسلامية ، يتجاوز أن يكون مجرد علاج واقع أرهق الذين بعد عمر .

* فللثوري كلام كثير جزل في ذلك تصدر به المربين ، يبدؤه بتقرير واقع الناس ، فيقول :

(ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة) .

ورؤياه هذه ظلت تؤرقه ، حتى أمسك بقلمه يكتب رسالته المشهورة إلى صاحبه عباد بن عباد ، وإلى كل عباد من الدعاة في كل الأجيال ، أن :

(اياك وحب الرياسة ، فان الرجل تكون الرياسة أحب اليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة ، فتفقد نفسك ، وأعمل بنية) .

ثم جسد حقيقة ينساها طلاب الرئاسة ، فذكرهم أن :

(من طلب الرياسة قبل مجيئها : فرت منه) .

أي : يبقى عليه وزر الشوق الآثم ، وزفرة الصدر الراغم ، ليس إلا ، ويرجع صفر اليدين ، ويخفي حنين ، لم يذهب لابعد من فضح نفسه أمام جمهور العاملين .

* وكما كانت نظرية الاشكال المؤتلفة مذهباً لعبيد الله بن عبدالله جسده في جماعة عمل متآخية استدركت التفرق ، كان نداء الحذر في طلب الرئاسة مذهباً للثوري جسده في جماعة زهد محتسبة . استدركت تفرقاً آخر ، ولانت لها نفس هارون الرشيد ، فشغل الناس معه بحج أو بغزو ، سنة فسنة .

* ولعل الفضيل بن عياض هو أهم أركان تلك الجماعة التي عضدت الثوري في شرح مذهبه من بعده ، إذ صحبه وأخذ علمه ، وتأخرت وفاته عنه قرابة ثلاثين سنة ، كان يكثر خلالها ذم التكلف في طلب الرياسات ، وعلى الأخص تركيزه على كشف النفسية المعقدة الغريبة التي يحملها طالب الرياسة .

يقول الفضيل :

(ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر النـــاس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحداً عنده بخير . ومن عشق الرياسة فقد تُودِّع من صلاحه) .

ومن لم يجرب الأعمال الجماعية يستغرب مثل هذا أو يستبعده ، ولكن الممارس يحفظ قصصاً تصدق الفضيل أيما

تصديق ، فان العمل الاسلامي حين يــدع الانتقاء ، ويلهيه التكاثر بالأعضاء : يدخله أصحــاب التخليط ، ويظهر في محيطه مثل هذا الذي وصفه الفضيل .

فمن لم يزهد في الرياسة صار ميؤوساً منه عند الفضيل ، أي وان زهد في الأموال وأطايب الطعام وجمال النساء ، لان (الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا) . كما يقول صاحبه وصاحب الثوري ، الزاهد يوسف بن أسباط .

كلام لا يقولونه اعتباطاً ، بل كانت تأملاتهم في مصائر الجيل الذي عرفوه تعمل كعمل دوائر الاحصاء الحديثة ، يحصون من كمل ونقص ، ومن وصل ومن خانته قدمه ، والعثرة التي عثرها ، ان كانت في أول الطريق ، أو عند أوسطه ، أو لما كاد أن ينتهي ولم يبق له إلا خطوة الفوز ، ثم يعطونك نتائج الاحصاء في أقوالهم هذه .

• تجريب وتدرج

وأخذ الشعر أيضاً دوره في التحذير آنذاك ، ولفت الشعراء أنظار المتنازعين إلى كثرة الأعداء من حولهم ، وشماتتهم بالذي يحصل بين المؤمنين ، وانتفاعهم به نفعاً مباشراً في عمل جاد إيجابي يستغل فرصة انشغال المؤمنين بأنفسهم ، فأرسلها شاعر ذاك العصر زفرة ألم :

ان التنازع في الرئاسة زلـــةٌ لا تستقال ، ودعوة لم تنصر
أو ما ترون الشامتين أمامكـم ووراءكم من مضمر أو مظهر

وهذا في الحقيقة هو الوصف الدائم لظروف وآثار كل نزاع ، بل ان كثْرة الأعداء اليوم ، وخططهم المنظمة ، تجعل المحنة الحالية أعنف محنة مر بها الاسلام في تاريخه ، وتستدعي أقصى درجات الوحدة الايمانية بين العاملين .

والنجاة من فتن اليوم لن يكون إلا باللجوء إلى الشرط الذي وضعه سلفنا بالأمس وأودعوا فيه خلاصة تجربتهم في اكتشاف مسلك الوصول الصحيح إلى الرئاسة ، فانهم لم يعترفوا إلا بالطاعة طريقاً إلى القيادة ، وجزموا بأن من لم يكن في آخر الصفوف ، تغمره عجاجة المتقدمين ، فلن يستطيع أبداً قيادتهم ان شغر المكان واحتيج إليه .

ولذاك كانوا لا يرأس منهـــــم
من لم يجرِّب حزمـــه مرؤوســـا
من لم يُقَدْ فيطير في خيشومـــــه
رَهَجِ الخميس فلن يقود خميســـا

قانون تدرج ، ومرحلة اختبار ، اذا أساء خلالها العامل أدب الجندية ، واستعجل ، وتطاول : جوزي بالحرمان ، ودعي إلى التوبة ، وأرجع إلى محل البداية يستأنف المحاولة .

• لا .. يا عباد الرحمن

ليس في هذا القانون اعتداء ، ولا احتكار أو تجبر ، وانما هو صياغة تجريبية محضة لسنة النبي ﷺ في اختيار الأمراء ، فانه كان يقول :

(إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه) [1] .

أي هذا الأمر من شئون المسلمين .

وشدد في النصيحة الصريحة لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه ، فقال له :

(يا عبد الرحمن بن سَمُرة : لا تسأل الامارة ، فانك ان أُعطيتَها عن مسألة وُكِلتَ اليها وان أُعطيتَها عن غير مسألة أُعنتَ عليها) [2] .

مع أن عبد الرحمن من صالحي صحابته وشجعانهم ، ويكفيه أنه لما التزم وصية النبي ﷺ هذه صار قائد جيش المسلمين الذي كلف بفتح كابل عاصمة الأفغان ، وكان حصنها من أمنع الحصون ، وسقط عنده من شهداء المسلمين ما لم يكن في معركة أخرى .

• سيد يشرح ..

ولا يظنن ظان أن هذا المنع عن طلب الامارة سيفوت

---

(١) (٢) صحيح البخاري ٩/٨٠/٧٩ .

فرصة الالتفات إلى خير صاحب الكفاية الصامت ، فان العمل اليومي يكشف ولا بد كل قابلية لدى الدعاة ، وهي ظاهرة يؤكدها سيد قطب تأكيداً . فيتساءل :

(لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لاشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للامامة أو للامارة) ؟

ويجيب :

(ان الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لابراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحداً بالتزاحم عليه — اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى — ومن ثم لا يسألَ المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يمنعوها .

ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم . وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً .

ان الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع ، فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الاسلامية ..

أولاً : تجيء العقيدة من مصدرها الالهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله — على عهد النبوات — أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله — على مدار الزمان بعد

ذلك ــ فيستجيب للدعوة ناس ، يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة . فمنهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه ، فيقضي نحبه شهيداً ، ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق .

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستاراً لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقيم مملكة الله في الأرض ــ أي لينفذ حكم الله في الأرض ــ ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ، انما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله في العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ، ولا عند حدود جنس معين ، ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا الانسان ، كل الانسان ، في الأرض ، كل الأرض ، من العبودية لغير الله ، وليرفعوه عن العبودية للطواغيت ، أياً كانت هذه الطواغيت .

وفي أثناء الحركة بهذا الدين ــ وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم ــ تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على

موازين وقيم ايمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة ، وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها ، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الامارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الايمانية — كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ، ثم الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل — ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الاسلام . في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضاً ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين — مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الاطماع — وعندئذ تنتفي الحاجة — من جانب آخر — إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الامارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ، ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة .. لن يوجد اليوم أو غداً إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا اليها .. وهذه

نقطة البدء ، ثم تعقبها الفتنة والابتلاء ــ كما حدث أول مرة ــ فأما ناس فيفتنون ويرتدون ، وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء ، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الاسلام ، يكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار ، حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم في الأرض ــ كما أمكن للمسلمين أول مرة ــ فيقوم في أرض من أرض الله نظام اسلامي .. ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الاسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الايمانية .. ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لان مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم .

ولقد يقال بعد هذا : ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى . فاذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟

وهذا السؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين . ان هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة ..

.. يتحرك لتحرير الانسان .. كل الانسان ، في الأرض .. كل الأرض ، من العبودية لغير الله ، وليرفعه عن العبودية للطواغيت ، بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة .

واذن ، فستظل الحركة ــ التي هي طبيعة هذا الدين

الأصيلة – تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ، ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن – إلا أن ينحرف عن الإسلام – وسيظل الحكم الفقهي – الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية – قائماً وعاملاً في محيطه الملائم .. ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال : ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ، ويصبح الاكفاء الموهوبون في حاجة إلى اعلان عن أنفسهم وتزكيتها ، وطلب العمل على أساس هذه التزكية .

وهذا القول كذلك وهم ناشيء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . ان المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين – كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه والالتزام في المجتمع المسلم – ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية ، سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الامارات العامة فيختار لها الامام – الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد ، أو أهل الشورى له – يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة ، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة)[1] .

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١٣ ص ١٤ .

وهذا الكلام لسيد كلام صحيح صائب ، يظهر صوابه على الأقل في الجماعة الاسلامية الحركية ان لم نوافقه على احتمال حصول هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي العام المحكوم بحكومة اسلامية .

بل ان أزمة الحركة الاسلامية الحاضرة انما هي أزمة قلة المربين والاداريين من أصحاب القابليات الممتازة والصفات العالية ، ولن يغفل قائد عن ذي علم وتقوى متحمس في وقت يمسك فيه بالعدسة المكبرة يفتش عنهم تفتيشاً ، ولكن تجارب القادة تكره بعث وتأمير المتكلف المستشرف المغرور ، فنظن نحن أنهم قد غفلوا عنه ، وما هي بالغفلة .

● الاستثناء لا يُقلد

أما قصة الصدائي رضي الله عنه حين طلب الامارة وأجابه النبي ﷺ فانما هي استثناء اقتضته المصلحة وأوجبته الظروف ، وذلك أن رسول الله ﷺ أرسل بعثاً إلى اليمن ليحارب بني صداء ، فشفع فيهم أحدهم ، وأسلم ، وجاء بوفد منهم إلى رسول الله ﷺ معلنين اسلامهم ، وكان هذا الشفيع مطاعاً فيهم ، فطلب من رسول الله ان يؤمره عليهم ، فأجابه إلى ما طلب . ففي ذلك كما يقول ابن القيم :

(جواز تأمير الامام وتوليته لمن سأله ذلك اذا رآه كفؤاً ، ولا يكون سؤاله مانعاً من توليته . ولا يناقض هذا قوله في

الحديث الآخر : أنا لن نولي على عملنا من أراده ، فان الصدائي انما سأله أن يؤمره على قومه خاصة ، وكان مطاعاً فيهم محبباً اليهم ، وكان مقصده اصلاحهم ودعاءهم إلى الاسلام ، فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومه في توليته ، فأجابه اليها ، ورأى أن ذلك السائل انما سأله الولاية لحظ نفسه ومصلحته هو ، فمنعه منها ، فولى للمصلحة ، ومنع للمصلحة ، فكانت توليته لله ، ومنعه لله) [1] .

فها أنت ترى أنه هو الذي استتابهم ، وانهم من بلاد بعيدة منزوية ليس فيهم لو رجعوا أصلح منه ، فأقره النبي ﷺ على طلبه ، ولا نحفظ في السيرة قصة أخرى مماثلة لها .

● يوسف والخزائن

كذلك قول يوسف عليه السلام للعزيز :

(اجعلني على خزائن الأرض ، اني حفيظ عليم) .

فانه (كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ، وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنماً يطلبه يوسف لنفسه ، فان التكفل باطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد أنه غنيمة ،

(١) زاد المعاد ٥٣/٢ .

انما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم)[1]

وقد فهم الفقيه الأندلسي أبو بكر الطرطوشي من قول يوسف :

(ان من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره ، أو أمة لا يعرفون ، فخاف على نفسه ، أو أراد إبراز فضله : جاز له أن ينبههم عن مكانه وما يحسنه ، دفعاً للشر عن نفسه ، أو إظهاراً لفضله فيجعل في مكانه) .

قال : (وفيه فائدة أخرى : وهو أنه ان رأى الأمور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي الأمانة ، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية : جاز له أن ينبه السلطان على أمانته وكفايته .

ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي : من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء : جاز له أن ينبه السلطان على مكانه ويخطبه خطة القضاء .

وقال بعضهم : بل يجب ذلك عليه إذا كان الأمر في يدي من لا يقوم به)[2] .

وما ذهب إليه ظاهر الصواب ، أي في مواجهة الظالم والضعيف ، وعلى ذلك يحمل قول أصحاب الشافعي ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن يوسف كان يخاطب ملكاً كافراً ،

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١٣ ص ١١ .

(٢) سراج الملوك /٧٩ .

وأنه لم يطلب ما طلب إلا من بعد تعريض ظاهر بتأميره من قبل العزيز ، على ما يدل عليه سياق السورة ، فإن العزيز قال : (ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال : انك اليوم لدينا مكين أمين) .

فطريقة الايجاز البلاغي القرآني حذفت ما يفهم ضمناً ، فان رسول الملك قال ليوسف فيما يبدو : ان الملك يدعوك ، وقد سمعناه يفصح عن رغبته في استعمالك وتأميرك . وتأكد ذلك ليوسف في الاشارة الواضحة في خطاب الملك له حين وصفه بالتمكن والأمانة .

وعليه : فان تجزئة تفسير قول يوسف وجعله نسبياً واجب ، بالتضييق على أناس في تقليد يوسف ، والتوسعة على آخرين .

فمن كان من الدعاة مقرباً من القائد ، مستعملاً في عمل مهم يدل على أن القائد وثقه وقواه وأمنه إلى درجة سمحت له باستعماله وجعله من أعوانه ، فانه يسعه — اذا آنس من نفسه بعداً عن الغرور — أن يشير على القائد أن يستعمله في عمل آخر قريب في أهميته مما هو فيه ، هو أكثر اتقاناً له ، أو يرى أن مصلحة ما توجب تلك خفيت على القائد . ويلجأ خلال ذلك إلى التعريض دون التصريح ما أمكنه ، ويعرض رأيه بأدب كامل ولفظ رقيق .

وأما من كان من الدعاة غير مستعمل في عمل من أعمال الدعوة ، ويريد أن يطلب نوع عمل مهما صغر ، أو مستعملاً

في عمل صغير ويريد أن يستعمل في عمل كبير لا يقاربه ، فالباب ضيق أمامه ضيقاً شديداً ، وتقييده بالأحاديث الصحيحة الواردة في المنع أصوب حتى ولو وجد في نفسه قوة وكفاية ، والله أعلم .

• في التأني السلامة

وخير له من ذلك أن يتأنى في تحديث نفسه بالامارة ، فان التأني زين كله .

• يتأنى أولاً إلى حين اكتمال فقهه ووعيه ، ينفذ وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال :

(تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا) (1) .

فيجب على الداعية أن يتفقه ، لسيادة وقيادة من يأتي بعده من أفواج الآيبين إلى الإيمان .

• ويتأنى ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته الحياتية ، فان الايام لا تزال تزيد المرء تجربة وعلماً كما زادت الشاعر الذي خاطبك :

أخيّ عندي من الأيام تجربـــة فيما أظن وعلم بارع شاف

فينفذ وصية الامام الشافعي حين يقول :

(اذا تصدر الحدث : فاته علم كثير) (2) .

---

(1) صحيح البخاري ١/٢٨ .

(2) فتح الباري ١/١٧٥ .

• ويتأنى ثالثة في ذلك أيام الفتن على الأخص ، ويكون متوقفاً حذراً ، ينفذ وصية أبي العتاهية هذه المرة :

أصبر على الحق تستعذب مغبته — والصبر للحق أحياناً لممضض
وما استربت فكن وقافة حذراً — قد يبرم الأمر أحياناً فينتقض

وأقل ما في الفتن أنها ريبة كلها ، وقد ترى الفتنة أنها قد أبرمت أمرها وأحكمت خطتها ، فينقضها وعي الدعاة المؤمنين .

• نكلها إلى القادة أفضل

والداعية المتواضع الثقة قد تعزف نفسه عن الامارة ، لكنه يقع في اختلاف مع غيره عند ترشيحه للآخرين لبعض الامارات ، فيسرع المختلفان إلى التعصب لاجتهادهما ، في فورة من الحماس ، ويجزم كل منهما بتخطئة صاحبه ، أو الاعتقاد بأنه يخالفه لنوع هوى ومن باب التعسف .

ومثل هذه الظاهرة خطر ولا شك ، لكنها تستحيل بسرعة إل مجرد هاجس عابر خال من الضرر اذا انتبه كل منهما إلى وجوب مراعاة الآداب الشرعية في علاقات الدعوة ، كما أسرع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى مراعاتها حين :

(قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة .

قال عمر : بل أمّر الأقرع بن حابس .

قال أبوبكر : ما أردتَ الا خلافي .

قال عمر : ما أردت خلافك .

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) [1] .

ولا شك أن تذكر الدعاة دوماً لهذا الأدب ، والتطلع لقول قادتهم وانفاذ اختياراتهم : يجرد مثل هذه الخلافات من كل خطر بتاتاً .

فانْ تشدَّدَ القادة ، واقصوا عن المسؤولية أو عن الجماعة من لان أو انحرف أو خالف : فبالحزم أخذوا ، ليس في ذلك ضير .

وان تساهلوا ، وعفوا وتجاوزوا ، فبسد الذريعة وقواعد لمّ الشمل أخذوا ، ليس في ذلك ضير آخر .

كل ذلك صواب في أعراف سياسة الجماعات ، تؤيد الظروف النسبية المختلفة هذا المسلك أو ذاك ، ما لم يكن ثمة هوى .

ورحمة الله على من تجرد وغلب هواه ، قائداً كان أو جندياً .

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢١٣ .

أنوار الفطنة تبدّد

٩ — ظلمات الفتنة

الجندية طريق القيادة ، ويوجد ثمة غرور عند البعض وتجاوز يجب تشذيبهما .

كذلك مضى فقه الدعوة صريحاً حاسماً .

انها صراحة والله ، لا تظنن انها خشونة فتهرب منها وتعافها نفسك ، فان أصررت على وصفها بأنها خشونة ، فانما هي خشونة التربية التي سلكها عبد القادر الكيلاني من قبل ، فظنوا كما ظننت ، فقال لهم :

(لا تهربوا من خشونة كلامي ، فما رباني إلا الخشن في دين الله عز وجل)[1] .

ونقول لدعاة اليوم كما قال : لا تهربوا من خشونة كلامنا

---

(١) الفتح الرباني لعبد القادر /١٦٢ .

وصراحته ، فان كلمات الدبلوماسية لا تنفع في تربية الدعاة ، ولا أساليب الايماء ، بل هي الاشارة الواضحة فحسب تربي ، بلا اعتداء وجرح .

● أثناء التأني يكون الحساب

وأولى للداعية المسلم أن يكون صريحاً مع نفسه قبل ذلك ، يخلو خلال تأنيه في الفتن ، وخلال انتظاره اكتمال فقهه ، فيحاسب نفسه يعاتبها ، ألاّ يقع في الشبهات .

فمن لم يحاسب نفسه في أمـــوره
يقع في عظيم مشكـــل متشابـــه

فان مهمل نفسه تزدريه الشبه ، فلا تقنع منه بطفيف ، وانما تأتيه الشبهات كبيرة ، عظيمة الاشكال ، خفية التوريط ، توهم القلب ، فيتعكر الشعور . أو تؤلب اللسان ، فيلحن النطق . أو تميل بالأذن ، فيتشوش السمع . أو تغلق الأجفان ، فيغبش النظر .

ولا بد لطالب الفقه من حساب وعتاب .

● ازدواج ... والقلب واحـد

يعاتب القلب : لم يكبح ؟ ولم يريد قطع استرساله مع معاني الخير وعزمات العمل ، ويأذن لاغراء الدنيويات أن يسامره ؟

أنها ساعات التخليط أصبحت تطول في يوم الدعاة ، وكأن سمت الأمس قد تغير .

ولو صدق أحدنا نفسه ، وأفصح عن حقيقته ، لاعترف بالذي اعترف به أبو العتاهية حين قال :

تزاهدت في الدنيا ، واني لراغب
أرى رغبتي ممزوجة بزهادتي

فأكثرنا يقع في هذا التخليط : قدم في الدعوة ، وقدم في الدنيويات والرغبات والآمال العراض .

لم نتمحض .

وقد أتعبنا الذين يربوننا وأرهقناهم .

فلا نحن ممن ييأس العمل منهم فيتركهم وهو في مأمن من اللوم ، لقدم الدعوة ذاك ، ولا نحن بالمشمرين حق التشمير فنريحه ، بل يعوقنا قدم الدنيا عن سرعة انطلاق عرف بها جيل الدعوة الأول إلى أعلام لا زالت مرفوعة والله لنا كما رفعت له .

وما هي إلا ساعة عتاب واحدة تنهي تعدد الولاء لو تدبرنا .

هزة إيقاظ ، لكتف غفلة ، من لسان صراحة يعرف كيف يقول :

تيقظ ، تيقظ ... تيقظ .

تيقظ ، فانــك في غفلـــة يميد بك السكر فيمن يميـد
تنافس في جمع مــال حطام وكل يزول ، وكل يبيـــد
كأنك لم تـر كيف الفنـــا وكيف يموت الغلام الجليـد
وتنقص في كـــل تنفيســة وانك في ظنك قد تزيــد

فهي الاحلام وأضغاثها تخدع ، توهمنا أننا نزيد ، وانما هي الأنفاس تواصل نقصها ، والسكر بالتكاثر يميد بنا فيمن يميــد .

● مصاعب .. ولا صمت لهـا

ويعاتب الداعية من بعد لسانه : لم يستحل اللحن والهذر والجدال ؟

ولو فقه المرء لادرك أن صدق الاندفاع يغني عن صدق اللسان أصلاً ، فهو في غير حاجة إلى كثرة كلام ولو كان صادقاً .

والداعية يسبق بفعله قبل أن يفصح بلسانه ، يقتدي في ذلك بأبي الفضل بن مالك لما وصفه تلميذه الجنيد فقال : (يسبق فعله قوله) [1] .

فان قال واحتاج إلى النطق : فهو القول الواحد الذي لا يتبدل ، وهو القول الواضح الذي لا تلعثم فيه .

---

(١) تاريخ بغداد ٤٢٢/١٤ .

اذا اختلفت سبل الرجال وجدتـــه
مقيماً على نهج من القول واضـــح

نهج واحد ، بوضوح كامل ، يكشفان عن قلب في الصدر واحد ، لا قلوب موزعة ، وعن ثبات في صفاء ، لم تكدرهما رجرجة ولا أخلاط ، فان اللسان ما زال يترجم للقلب ، ولم تزل عفتهما سواء ، ولهما شرف وعرض مشترك ، وانما فسق الألفاظ من فسق الشغاف ، وما الألسن إلا مغارف للافئدة ، تماماً كما رآها البارحة يحيى بن معاذ على حقيقتها ، فوصفها لك ، ونبهك إلى أن :

(القلوب كالقدور في الصدور ، تغلي بما فيها ، ومغارفها : ألسنتها . فانتظر الرجل حتى يتكلم ، فان لسانه يغترف لك ما في قلبه ، من بين حلو وحامض ، وعذب وأجاج ، يخبرك عن طعم قلبه : اغتراف لسانه) .

تشبيه قد يكون ساذجاً كما يبدو لأول وهلة ، لكن فيه روعة الحقيقة ، وصدق الوصف .

اغتراف اللسان يذيقك طعم القلب .

ما كذب والله وما غلط ، ولم يتقدم بين يدي الله المستأثر بعلم ما في الصدور ، لكنها فراسة الايمان : تسمع حركات اللسان وتميز نغماته ، فترى الذي يجيش بين الضلوع .

ثم يأتيك صحب من دعاة بعد هذا ، يملأون ليلهم رثاء

ومراء ، وتشقيق كلام وتدقيق ألفاظ ، والفرص تمر من بين أيديهم ومن خلفهم ، يرقبون أن تتدلى لهم عجيبة الدنيا الكبرى في استئناف الحكم الاسلامي بحبل تدليا ، ويحلمون بقطاف لم يتقنوا سقي ثمره ، ينسون ان الدهر لا يأتي بالعجائب ، وانما هي تضحيات الرجال وخالصات الفعال ، لا اللغو ، ولا تقليب الكفوف والمناحة على واقع المسلمين .

وصحاب في جـــدال ومضي غـــير صائب
يرقبـــون الـــدهر ان يأتي عنهم بالعجائب
فاذا واتتهـــم الأيام فالربـــان سائـــب
وتضيع الفرصة المثـــلى ولا تجـــدي المنـادب
ضل من يأمـــــل أن يقهر باللغو المصاعب[1]

ولئن سألتهم : لم التشقيق والتدقيق ؟

ليقولن : نريد الفقه ، ونبغي الوعي ، ونتقن التخطيط .

وهم بذلك قد اخطأوا من حيث أصابوا ، واختلط الحق الذي ذهبوا اليه بباطل من مخالفة أحكام التفاضل ، فانهم تمسكوا بفرع على حساب أصل ، ودندنوا حول سنن قد تفوت معها فرائض الأخوة ، ووعي قد تنسى الأرواح بعده دروب التأليف .

---

(١) للأميري في ديوان الوان طيف /٤٠٠ .

ولو تأملوا بهدوء وحسبوا ووازنوا ، لعرفوا ان لقاء الدعاة الهادىء ، تحت جناح التحابب والاحترام المتبادل : خير من طلب صاخب للوعي ، فانه لو لم يكن في اللقاء إلا تثبيت بعض الدعاة لبعض ، وإلا السناد النفسي في مثل هذه المحن الشديدة والضراء الطويلة ، لنال لقاؤهم وصف النجاح ، لكنهم صحب يستعجلون .

● لماذا الجفاف يا عين ؟

وعبر عتاب سريع من الداعية لاذنه ، يلتفت خلاله إلى مناد يناديه ان :

(يا ايها الرجل : لا تكن كالمنخل ، يرسل اطيب ما فيه ، ويمسك الحثالة) (١) .

ويتعهد له ان يشيع أطيب ما يسمع ، ويستر لفظ المستعجل النادم ، وخيالات الحالم النائم :

ينتقل رابعاً إلى عتاب طويل لعينه .

يسألها أولاً : لم تخطىء فتختار الجفاف وتقحط ؟.

* وصواب من مقلة : ان تصوبا *

كما يقول الشاعر .

فصوابها ان ترسله وابلاً صيبا على أرض الأخطاء ، بين

---

(١) سراج الملوك /١٤ .

يدي رب عفو غفور يحب ان يتملق له عبده بالدمع ، ويحب ان يسمعه ، في الثلث الآخر من الليل ، وبالعشي والإبكار ، يحاسب نفسه ويلوم ، ويكرر مع ابن القيم يخاطب نفسه ان :

(لله ملك السماوات والأرض ، واستقرض منك حبة ، فبخلت بها .

وخلق سبعة أبحر ، واحب منك دمعة ، فقحطت بها عينك)[1] .

ويظل يرددها حتّى يظن انه قد استوفى انذارها .

● لا تظلم نفسك باختيار الظلام

ثم يعاتب عينه من بعد ثانية : لم تنظر ضياء العمل الاسلامي ظلاماً ؟ ولم تتشاءم بدل ان تتفاءل لدعوة الايمان بالخير ؟

نعم صعب هو الوصول لدولة القرآن ، ولن يأتي الدهر بعجيبة من دون جد .

لكنه ضياء كله العمل لها ، ليس بظلام ، وان ظن المستعجل وجود تباطيء او تعثر .

وهل اسطع من ضياء النية ، وضياء الاجر ، وضياء الاخوة ؟ .

---

(١) الفوائد لأبن القيم /٦٧ .

ان طول الطريق لن يعدم هذه الأضواء أبداً ، ولئن يرجع الداعية بها وحدها خير له من قعود يوسوس به التشاؤم .

ولكن بعض الدعاة يظلمون أنفسهم بنظرة متشائمة إلى مستقبل الدعوة ، ويتهمون التخطيط والقادة والرعيل ، فيعتزلون مجالات العمل الوضاءة وهي من حولهم تنادي وتهيب .

وانما الظلام ظلام المتشائم فحسب ، اذ حبس نفسه عن الضياء ، والأضواء تنير درب غيره .

وتفهيم المتشائم بهذه الحقيقة معضلة صعبة ، فان فاقد الشيء لا يعطيه ، ولا يستطيع تصور ما نقول والتصديق بوجود الأضواء .

لكن عبد الوهاب عزام ضرب مثلاً تشبيهياً انتقل منه إلى التفهيم فأجاد ، فافترض للمتشائم أنه في حجرة مقفلة سوداء ، أليس يبقى من حولها ضوء الشمس ؟

حجرة ملؤها الظلام حوتـني وحوتهـا أشعـة القمراء

فلما أثبت هذه الحقيقة : قاس للمتشائم حاله عليها ، فقال معقباً :

رب نفس تلفهـا ظلمـات وهي في عالم كثير الضياء[1]

اي كذلك النفس أحياناً ، تضع نفسها في الظلام باختيارها

---

(١) ديوان المثاني لعزام /٦٩ .

والضياء من حولها كثير وافر ، حتّى تنسى تدريجياً ان هناك ثمة ضياء عافته ، فتنكر وجوده ، فيعجب المستنيرون ، فيزداد المحبوس الواهم إنكاراً ، ويظن العجب تكلفاً وملاحاة ، فيفتتن ، ويصرخ في حجرته المغلقة السوداء ، فلا يجد إلا صدى الظلمات ، فيزداد فتنة ، يظن الصدى تأييداً .

لكن الذين فطنوا لمثال عزام في الساحات وعرصات العمل ماضون ، تغمرهم أنوار الفطنة ، وتغشاهم السكينة .

انه الخبر القديم الحديث لأنوار الآمال وظلمات الفتن ، ليس هو خبر من نراهم اليوم فحسب ، فان عبد القادر الكيلاني صادف المستظلمين ، فوضع لهم معادلة قصيرة سهلة ، لو أدركوها لخرجوا من تيههم ، فقال :

(إذا خرج الزور : دخل النور)[1]

زور سوء الظنون في القلب ، المسبب للتشاؤم وعبوس الوجه ، فالظلام .

• ابتسامة الحياء مفتاح الأنوار

وخروج الزور يكون بالابتسامة وبانشراح الوجه عند اللقاء ، فان فيهما حماية أكيدة من الوقوع في أخطاء الظنون والتعرض لسهام الوسوسة ، وما اكفهر وجه وعبس إلا ترك في نفس المقابل هيبة من التصارح والتناصح .

---

(١) فتوح الغيب لعبد القادر /٣٧ .

أفلا ترى أن الطلاقـــة جُنَّـــة

من سوء ما تجني الظنون ومعقل ؟

ولا يطاوع الابتسام الفم إلا بلزوم حسن التأويل ، يرى الداعية الخطأ والاجتهاد المخالف فيسبق صاحبيهما إلى تلمس العذر والتبرير ، ويميل إلى أجمل تفسير .

ثم يحرص على ان يقرن الابتسامة والطلاقة بحياء لتتميز عن ابتسامة الاستصغار ، التي قد يزينها الشيطان ، بل يتخلق بخلق البهاء زهير حين فخر فقال :

اذا قلت قولاً كنت للقول فاعلاً

وكان حيائي كافـــلي وضميـــني

تبشر عـــني بالوفـــــاء بشاشتي

وينطق نور الصدق فوق جبينـــي

فهما حياء وبشاشة ، يبدوان معاً .

او : هي الفطنة ، مفتاحها : ابتسامة الحياء يبتسمها الداعية ، فتتوالى الأنوار ، وتفيض تباعاً ، وتتكامل ، يعضد بعضها بعضاً ، لتبدد ما هنالك من ظلمات الفتنة وتعصم من قواصم الأغواء ..

انها مصادر نور أوقدها فقه الدعوة من قبل ، لا تزال قائمة تضيء تنتظر من يلوذ بها من المحتاطين الحذرين ، والمستدركين التائبين ، لتريهم درب السلامة الصحيح يوم تغزو

الفتن زمرة القلب الواحد ، ويستدرج التأويل الدعاة ، وتولد الغيبة سلاسل العيوب ، ويرمي الشيطان بسهام الغرور والهوى والكبر وحب المدح ، فتفترق الأرواح بعد تأليف ، ويحتد التنازع في الرئاسة .

• النور الأول :

* الاستعاذة بالله من الفتن :

فأول قبس يتناوله الذي يرى الفتنة مقبلة : قبس الاستعاذة بالله منها ، كما أمرنا رسول الله ﷺ حين لقننا التعوذ منها باطلاق ، وكما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه لما تعوذ من فتنة الخلاف بين المسلمين ، فقال : — فيما أخرجه البخاري — حين بدت بوادرها :

(أعوذ بالله من الفتن) .

مع أن عماراً قد شهد له النبي ﷺ بأنه من فئة العدل ، وتقتله الفئة الباغية .

قال ابن حجر في الفتح :

(فيه دليل على استحباب الاستعاذة من الفتن ولو علم المرء انه متمسك فيها بالحق ، لأنها قد تفضي إلى وقوع ما لا يرى وقوعه) [1] .

---

(١) فتح الباري ٨٩/٢ .

فقل مع عمار ايها الداعية وردد : أعوذ بالله من الفتن ، وأكثر منها في كل أحوالك ، يعيذك الله منها ويقبلك ويعصمك وان كنت ساذجاً ، فانه سبحانه معين معيذ يرحم رجفة الخائف ، وذلك الظن به عز وجل دوماً ، فان تجربة المستعيذين تجزم بأنه :

اذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى
بخالقه : نجاه منهن خالقــــــه

ولكن انتبه : ليست الاستعاذة العابرة تجزيك بل أقرع باب الله بالحاح ، وأهجر من يأبى القرع معك وتجنب صحبته ، وأطرح نفسك على عتبة ربك العزيز بذل ، حتى تسمع نداء الأمان .

تلك وصية الناصح الحكيم ، اليك وإلى الزاهد يوسف بن الحسين ، لما شكا له يوسف من نفسه أخلاقاً لا يرضاها ، وركوناً إلى الدنيا يفتنه ، فكتب اليه ان :

(بسم الله الرحمن الرحيم : وصل كتابك وفهمت ما ذكرت، ومخاطبك اكرمك الله شريكك في شكواك، ونظيرك في بلواك . ان رأيت أن تديم الدعاء وقرع الباب ، فان من قرع الباب ولم يعجز عن القرع : دخل ، وان تهيأ لك ما تريد من الصفاء والطهارة فدع ما انت فيه من البلاء واقتراف مساويء

لا تجدي عليك منفعة في دينك ولا دنياك ، وتجنب قرب من لا تأمنه على نفسك في مواصلة الغفلة والبطالة ، واستعن على ذلك كله بالقناعة والتجزي ، وسله ان يمن عليك بتوبة) .

١٠ تناصح وتغافر

والله ، ان أمر قرآننا لكما أقسم الله :

(انه لقول فصل ، وما هو بالهزل) .

دور فصل جاد ، أراده الله تعالى للقرآن .

وسيرة مفاصلة جادة ، ليس معها هزل ، فرضت تبعاً لذلك على من يختار الانتساب إلى سرايا رجال القرآن .

وجد مقابل ليس بمستغرب ، ما زال يتداعى اليه الباطل ، حفاظاً على نفسه ، ودفاعاً عن مصالحه ، يرد به على جدنا .

واذا بأمر دعوة الاسلام كله جد أنّى نظرته ، لا يستطيع فيها الداعية المسلم أن يتمنى أمنية من أماني الهزل ، ولا تنبغي له ، وإلا : فَقَدَ الثبات ، وتدحرج أمام الجد الهادر السائر .

نرى الدهر قد جد في أمرنا　　فيا ويل تدبيرنا ان هزل

وهذا ما يلقي على عاتق كل جيل من الدعاة ، يشرفه الله تعالى بكفاية حاجة مرحلة متميزة من مراحل المعركة المستمرة عبر القرون ، واجباً من التربية الصعبة ، وسمتا من التشدد في الاختيار ، يكفل بهما نقاء المجموعة وتماسك البناء .

اذا اختل شيئاً بناء الأســـاس تضاعف في الصرح ذاك الخلل

وانما ثمن هذا الأساس المتين : أن يرفع الدعاة القواعد من التنظيم بشمول محيط وميزان ، وأن يرمموا ما استهلكته الشبهات حين كانت تمر في ثنايا الأيام .

فلا بد من رأب كل الصدوع وجمع الصفوف ، ودرء العلل
ولا بد من قصد ذات الالـــه وحشد القوى ، ليصح العمل[1]

ومعنى ذلك : أن نلجأ دوماً إلى تربية تسلك بنا في مسارين دائمين ، وخطين متكاملين :

مسار التجرد الايماني ، ونيل الرضا الرباني ، باطراح شهوة النفس ، وتعليم تمييز الالقاء الشيطاني ، من خلال تأسيس تكتل ينوي عملاً حركياً فكرياً سياسياً ، يتجاوز أشكال التعاون الاجتماعي الخيري .

ومسار الاستدراك ، بعلاج ما هنالك من عيب طرأ بعد صحة ، أو نقص فضح المنظر بعد كمال ، من خلاف ، أو تخليط ، أو سير بلا تحديد تخطيط .

---

(١) هذه الأبيات الأربعة للأميري في الوان طيف /٩٩ .

وأنوار الفطنة التي أضاء منها أول ما أضاء : نور الاستعاذة بالله من الفتن ، هي أنوار أوقدت لتنير مراحل من كل من هذين المسارين ، فهي تؤنس المؤسس الرائد ، كما تهدي العاثر المنيب .

فالعائذ بالله المستغفر يتوغل في دربه على ضوء :

● **النور الثاني ، وهو :**

* **تنقية النية مما علق بها من شوائب :**

نور أناره خالد رضي الله عنه يوم احتدمت اليرموك فقال :

(ان هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فان هذا يوم له ما بعده) [1] .

ونقول بالذي قال :

ان أيامنا هذه التي نصاول فيها جاهلية القرن العشرين لاستئناف الحياة الاسلامية انما هي من أيام الله التي لها ما بعدها ، فانه لا ينبغي للداعية ان تجره فتنة إلى فخر وتطاول على أصحابه ، ولا إلى بغي وعدوان على ذي امرة قد بويع .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٩٥ .

اخلاصاً يتجاوز معناه الوعظي العابر الذي تلوكه السن القصاص ، إلى تأمل استقرائي صامت ، يحصي ما جنته النيات المشوبة الممزوجة من موبقات وكبائر أضرت بسير الحركة الاسلامية الحاضرة ، وهزته وأرادت له الحيدة عن خطه المستقيم ، لولا أن الله عصم القادة ، ومن عليهم بثبات وسكينة .

من أجل ذلك أوصى فقه الدعوة ان من لم يتعظ فيسارع إلى تنقية نيته : سارعنا نحن إلى تنقية الجماعة منه .

بهذا جزم الامام البنا فقال :

(ان الإخلاص أساس النجاح ، وان الله بيده الامر كله ، وان اسلافكم الكرام لم ينتصروا الا بقوة ايمانهم وطهارة أرواحهم ، وذكاء نفوسهم واخلاص قلوبهم ، وعملهم عن عقيدة واقتناع جعلوا كل شيء وقفاً عليها ، حتى اختلطت نفوسهم بعقيدتهم ، وعقيدتهم بنفوسهم ، فكانوا هم الفكرة ، وكانت الفكرة اياهم . فان كنتم كذلك ففكروا ، والله يلهمكم الرشد والسداد ، واعملوا ، والله يؤيدكم بالمقدرة والنجاح . **وان كان فيكم مريض القلب ، معلول الغاية ، مستور المطامع ، مجروح الماضي ، فأخرجوه من بينكم ، فانه حاجز للرحمة ، حائل دون التوفيق)** [1] .

انظر قوله : انه حاجز للرحمة ، ودقق في تاريخنا القريب :

---

(١) مجلة (الدعوة) عدد ٥٠ .

كم من قصة وواقعة لها لسان يتهم الشرط المتساهل في التجميع بحجز أشكال الرحمة المتعددة ، من نصر وتمكين ، وسكينة وطمأنينة ، ووحدة ووفاق ؟

ان الكثير من عثرات السير مردها إلى هؤلاء اهل الشوائب الذين احتضنتهم الجماعة على سذاجة منها ، وفي غفلة من نفسها .

وقديماً قال ابن الجوزي صادقاً :

(انما يتعثر من لم يخلص) [1] .

وهو وان كان يعني بذلك الفرد ، إلا أن للمجموعة أيضاً قلباً واحداً مشتركاً يضره مرض البضعة الصغيرة منه كما يضر مرض بعض قلب الفرد ذاك الفرد ، فاذا مرض داعية برياء : تضررت جماعة الدعاة كلها بمرضه ، وتعثرت ، ومرض قلبها ، حتى يتخلص منه بتوبة ، أو تتخلص منه بابعاد .

وقبل ابن الجوزي بقليل كان الكيلاني ينادي :

(يا غلام : فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة . السير سير القلب) [2] .

ومعناه الجماعي كذلك أيضاً ، فان مما يخشى على الدعوات

---

(١) صيد الخاطر /٣٥٥ .
(٢) الفتح الرباني /٢٩ .

أن تطيل لسانها ، فتكثر من تأليف الكتب ، وتتخذ لها من الصحف ميداناً ، وتتعب درجات المنابر بخطبائها ، وتترك تأليف الأرواح وتربية القلوب ، فتقف لا تخطو نحو التمكن خطوة ، كوقفة غلام الكيلاني .

وربما كان الضرر ابلغ من ذلك ، فان التعثر يبقى السير معه مستمراً ، والوقوف يحفظ الجماعة سالمة قائمة على الاقل ، لكن تلبس الجماعة كلها بالرياء قد يدفعها في طريق الاضمحلال الذي شاهده التابعي الربيع بن خثيم في أعمال الآحاد فقال :

(كل ما لا يراد به وجه الله : يضمحل .)[1]

فرياء الجماعات ليس بغريب ، بل شوهد في التاريخ الفكري والسياسي مراراً ، متلبساً شكلاً من التكلف للاصطلاحات ، ومن التبني للاجتهادات الشاذة التي ربما زل بها لسان الفقهاء الاقدمين والمحدثين ، أو مندفعاً في طريق التكاثر بالاعضاء على حساب النوعيات .

والظلام يزحف تدريجياً مع اشكال التراجع الثلاث هده ، فان العاثر حين عثرته يكون رأسه اقرب إلى الأرض ، ملتهياً بتخليص نفسه من هويه ، فينقطع عن رؤية المنار حيناً . والواقف يخدره السكون فتأتيه سنة أو نوم ، فيغتمض جفنه ، وشأن المضمحل أوضح ، وبذلك يتحقق كون الرياء من ظلمات الفتنة ، وكون الاخلاص من أنوار الفطنة .

---

(١) طبقات ابن سعد ١٨٦/٦ .

وبسبب ظلمته هذه وصف زاهد الصحابة شداد بن أوس رضي الله عنه الشهوة التي تقترن به بأنها خفية . فانه ، حين حضرته الوفاة وطلبوا منه وصية يودع خلالها خلاصة فقهه في العمل قال :

(ان اخوف ما أخاف عليكم : الرياء ، والشهوة الخفية) [1] .

أي أنها تتسلل مستغلة ظلام الرياء .

ومع هذا فان الاستدراك في هذا الباب بسيط جداً ، فقد سئل التابعي طلحة بن مصرف عنه ، فارشد المرائي إلى أن يقول :

(اللهم اغفر لي ريائي وسمعتي .)

هذا فقط من لسان ندم .

فاستغفر مما كان من رياء لا تعلمه من نفسك ، الله يعلمه ، وابدأ صفحة جديدة بيضاء ، ثم سلام عليك اذ تقتبس لاهلك قبساً من :

● النور الثالث ، وهو :

* قبول النصيحة وطلبها من الخبراء .

وكان الحسن البصري ملحاحاً في الحث على هذا الخلق ،

---

(١) زهد ابن المبارك /٣٩٣ .

لهاجاً في تزيينه ، حتّى جعله ثلث العيش ، فقال :

(لم يبق من العيش الا ثلاث :

أخ لك تصيب من عشرته خيراً ، فان زغت عن الطريق : قومك .

وكفاف من عيش ليس لاحد عليك فيه تبعة .

وصلاة في جمع ، تُكفى سهوها ، وتستوجب أجرها .)[1]

فزينة الحياة عنده ، في جيل التابعين ذاك ، كانت ترتفع عن الارض وتتناقص ، حتّى لم يبق منها مما يرى الا هذه الثلاث التي يتقدمها الاخ الناصح المقوم لاعوجاجك . فكم ثمن بقية الزينة هذه في يومنا هذا ؟

ثم جعل الحسن التقدم بالنصيحة خصلة ضرورية للمؤمن الذي :

(هو مرآة أخيه ، ان رأى منه ما لا يعجبه : سدده وقومه ووجهه ، وحاطه في السر والعلانية .)[2]

فالعين تنظر منها مادنا ونـأى ولا ترى نفسها إلا بمـرآة

وعند عمر بن عبد العزيز هو : من احسان الصلات الاخوانية وواجباتها ، وذاك قوله :

---

(١) تاريخ بغداد ٩٩/٦ .
(٢) زهد ابن المبارك /٢٣٢ .

(من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه .) [1]

ومثل التقدم بالنصيحة : قبولها .

فالصادق يفرح بها ، ولكن (وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين ، اذ قال : — ولكن لا تحبون الناصحين —.)[2]

وللناصح الحق في أن يسقط من عينه من يرد نصيحته ، وأن يستن بسنة الشافعي التي بينها في قوله :

(ما نصحت أحداً فقبل مني الا هبته واعتقدت مودته ، ولا رد أحد علي النصح الا سقط من عيني ورفضته .)

● اتخذ صاحباً يحصي عليك ..

ولكن ، ان عاش الشافعي حتى رأى من يرد نصيحته ، فان التابعين ، في الجيل الذي قبله ، كانوا يبادئون بالسؤال مبادأة ، يرجون الاصلاح .

فعمر بن عبد العزيز كان يقول لمولاه مزاحم :

(ان الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا اجعلك عيني على نفسي ، فان سمعت مني كلمة تربأ بي عنها ، أو فعالاً لا تحبه ، فعظني عنده ، وانهني عنه) [3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٥٧٢/٦ .
(٢) احياء علوم الدين ١٨٣/٢ .
(٣) عيون الأخبار لأبن قتيبة ١٨/٢ .

وكان سيد تابعي الشام بلال بن سعد يقول لصاحبه عبد الرحمن بن يزيد :

(بلغني أن المؤمن مرآة اخيه ، فهل تستريب من أمري شيئاً ؟)[1]

وأصرح منهما : ميمون بن مهران قدوة أهل الجزيرة ، فانه عرض نفسه على جمع من أصحابه وقال لهم :

(قولوا لي ما أكره في وجهي ، لان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره .)

هذا فعل الصالحين .

هو ... أو السماح للعيوب بالتراكم .

ولداعية اليوم في فعلهم موعظة ونور وبلاغ ، ولا بد له أن يخرج من الفتن التي من حوله بأسئلة عمرية ميمونة ، تبعث سمت الاتباع ذاك وتعيده حياً ، فانه لولا كبر واعتداد رأيناهما لعقل مقدمات الفتن المندرسة جيل من المغرورين كثير عددهم ، بطحتهم لوجوههم تباعاً ، وأخذتهم أخذة رابية ، وكان من الممكن ان ينجوا منها لو أعطوا من أنفسهم أذناً صاغية ، لكنهم كانوا قوماً يصدون .

وذهبت فتنتهم ، وثبت الأجر للثابتين ، وبقي طريق

---

(١) زهد ابن المبارك /٤٨٥ .

العمل الواسع اللاحب ، وبقيت أنوار الاستعاذة والاخلاص والتناصح ، تقود السالك إلى :

● نور رابع وهاج ، هو :

* تغليب نفسية التغافر .

أوقده الزاهد ابن السماك واعظ هارون الرشيد لما : (قال له صديق : الميعاد بيني وبينك غداً نتعاتب) كأنها كانت هفوة من ابن السماك أو زلة تعكر لها قلب صديقه .

(فقال له ابن السماك رحمه الله تعالى :

بل بيني وبينك غداً نتغافر .)

وهو جواب يأخذ بمجامع القلوب ، ملؤه فقه وواقعية ، يشير إلى وجود قلب وراء هذا اللسان يلذعه واقع المسلمين ، وتؤلمه أسباب تفرقهم .

وكذلك يكون استدراك الوازن لتسرع الحساس .

فلماذا التعاتب المكفهر بين الأخوة ؟ كل منهم يطلب من صاحبه أن يكون معصوماً .

أليس التغافر أولى وأطهر وأبرد للقلب ؟

أليس جمال الحياة أن تقول لأخيك كلما صافحته : رب

أغفر لي ولاخي هذا ، ثم تضمر في قلبك انك قد غفرت له تقصيره تجاهك ؟

أو ليس عبوس التعاتب تعكيراً تصطاد الفتن فيه كيف تشاء ؟

بلى والله .

ولقد كان شاعر أسبق من دعاة يدعون الفقه ، فراح يمرح ويتغنى ...

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وان كان ولا بد من العتب فبالحسنى

ثم يأبى الا أن يزيد مرحه ، فيبدل نغمته :

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى
ولا سمع الواشي بذاك ولا درى
تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا
وحتى كأن العهد لم يتغيرا
لقد طال شرح القال والقيل بيننا
وما طال ذاك الشرح إلا ليقصرا
من اليوم تاريخ المحبة بيننا
عفا الله عن ذاك العتاب الذي جرى

ثم يبدل نغمته ثالثة ، ويتملق أصحابه ليديم محبة أخوية

لذيذة قد ذاق طعمها الفريد ، فيقول :

تعالوا نخل العتب عنـــا ونصطلح
وعودوا بنا للوصل والعود أحمــد
ولا تخدشوا بالعتب وجه محبـــــة
لـــه بهجة أنوارهـــا تتوقـــــد

فلا تخدش أيها الداعية ، بالله عليك ، وجه محبة منيرة لا زلت فذاً فيها والناس من حولك تستهلكهم العداوات ، والا وضعت نفسك على شفير الاستهلاك . ان التغافر خير .

١١ شـرط بشـرط

دليل ماهر رفيق ، عالم بديار آبائه واجداده وشعابها ، بينا هو يمشي معه سلاحه ، في ليلة غياب القمر ، بعيداً عن العمران : رأى تائهاً هائماً في الظلام ، لا يميز معاني مواقع النجوم ، أيتركه يهيم بين يدي الذئاب ؟

فكذلك الداعية المجرب الذي لقنه المحنكون اصول الدعوة ينكسر قلبه شفقة ورحمة كلما رأى هائماً في ظلمات الفتنة بين يدي أصحاب المطامع والاغراض فيؤمنه ويوصله أهله ، ويؤنسه أثناء الطريق بدروس في مواقع النجوم وأبراج السماء ودلالتها على الجهات كي لا يضل ثانية ، ويوصل غيره لو رآه تائهاً .

وأنوار الفطنة هذه هي : الكواكب الدراري في سماء الدعوة ، تزداد بريقاً ولمعاناً كلما زاد الظلام لتزيل وحشة المنفرد وتهدي التائه الطريق .

• عتاب بمقدمة تفسير وخاتمة ابتسام

وللتغافر الذي أصر عليه ابن السماك وتنوعت له الحان الشاعر : أهمية خاصة كأهمية نجم قطب الشمال بين نجوم السماء ، فان الكثير من حوادث نكوص الدعاة ترجع إلى فلتة لسان أو هفوة تعامل لم يغتفروها ، والغفران منهم قريب . أو إلى ظن يتوهمون معه حصول تَعَمّدٍ تجاههم أو تقصير ، وتمحيص الاخبار أو طلب التعليل منهم أقرب .

ولو أنهم عتبوا بلسان خفيض من غير استفزاز لكان خيراً لهم ، ولوجدوا من يثني على طيّبهم كثناء الشاعر على أصحابه حين أسر عتبهم قلبه فقال :

عتبتم فلم نعلم لطيــــب حديثكــــم
أذلك عتب أم رضــى وتــودد

وأظهر من ذلك خيراً لو قدم المستعتب بين يدي عتبه مقدمة تفسير ، فيطمن صاحبه أنها جلسة تصارح وتغافر ، لا معركة تناحر ، وانه يريد أن يفرغ ما في صدره أمام كفو له وحبيب ، ترويحاً للقلوب ، وقطعاً لمحاولات الشيطان ، لا التماساً لسبب هجر ، ولا تفكيراً باتهام .

ثم كم هي ايمانية هذه الجلسة ، وكم روحانيتها لو ختمها بخاتمة ابتسام يقول معه لاخيه :

قد قضينا لبانة مــــن عتــــاب ... وجميل تعاتــب الأكفــاء

ومع العتب والعتــاب فانــي   حاضر الصفح واسع الاعفاء

فهو تعاتب أحباب ، يؤتى بجماله ، واكراماً للذي يتوجه اليه العتاب ، ليس فيه نوع انتصار للنفس ، وقبول العذر بعده يكون أدعى وآكد وأحرى بالتقديم .

فعذرك مبسوط لدينا مقــدم   وودك مقبول بأهل ومرحب
ولست بتقليب اللسان مصارما   خليلي اذا ما القلب لم يتقلب

وهذا هو المهم .

المهم أن القلب لم يتقلب تقلباً دنيوياً تحركه الاهواء ، وانما كان يعتقد ما تمليه مصالح الدعوة ، فيصيب ويأتي الخطأ ، ولاجتهاده المصيب أجر بعد أجر ، وأما الخطأ فينتظره تغافر بين الاخوة ، وغفران من الله أكبر .

فاذا عرف السالك يسر التغافر ، وغلظة الظلام : طمع واندفع نحو :

● نور خامس ، شعاعه :

التقوى في الغضب الهاجم .

فلا يتكلم الا حقاً صدقاً ، اذ :

(يروى أن الفتنة لما وقعت قال طلق بن حبيب : اتقوها بالتقوى .)..

فهي دواء عام يوصف لكل أعراض الفتن ، ولكن خصص بكر بن عبيد الله المزني مذهبين من مذاهب التقوى المتعددة لاصحاب الدرجات العالية ، فقال :

(لا يكون الرجل تقياً حتى يكون تقي المطعم وتقي الغضب)[1] .

فالداعية المرتقي لا يكمل الا بأن يكون غضبه لله ، فان كان : وصل إلى قمة أحمد بن حنبل ، وشاركه في الفخـــر باعتلائها ، فانه كان :

(يغضب لله ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، فاذا كان في أمر من الدين : اشتد غضبه حتى كأنه ليس هو .)[2]

وانما تتحقق هذه الصورة بالجام اللسان ، فلا يدعه حراً ، وازناً كل كلمة يفوه بها ، ألا يتهم بريئاً أو يحتج بظن مجرد أو يستنجد بسخرية وتنابز ، فيقطع المحسن احسانه بسببه ، ويعتزل العزيز .

وذو التجربة يعرف ما يكمن في الكلام وطبائع نبراته من امكانات الاصلاح والإفساد ، فيتعود الحذر ، ويدقق في وزن حروفه ، اذ ها هنا يظهر الورع ، فليس غير النادر الشاذ من الناس يستعمل يده ورجله للبطش والأذى ، لكنه

---

(١) الغنية للشيخ عبد القادر الكيلاني ١٤٣/١ .
(٢) مناقب احمد /٢١٨ .

اللسان اللسان الذي أشار اليه عمر بن الخطاب فقال :

(لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكنه من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل) [1] .

طنطة التفاخر والتفيقه ، وامانة الدعوة ، واعراض الدعاة العاملين .

ولذلك قال يونس بن عبيد :

(يعرف ورع الرجل في كلامه اذا تكلم .)

واعتبر الشاعر الرد الخاطىء جناية ، فقال يصف مجادله :

أخطــا ورد علي غير جــوابي

وجنى علي فقــال غير صواب

وباللسان الطاهر : سبق من سبق ، وتقدم أبو بكر بدر بن المنذر المغازلي الزاهد صحبه بمراحل فقال الامام أحمد :

(من مثل بدر ؟

بدر قد ملك لسانه .) [2]

ملكه ، وسيطر عليه ، وتصرف فيه كيف شاء الورع لا كيف ينطلق الهوى .

وسئل ابراهيم الخواص الزاهد عن الورع ما هو ؟ فقال : (أن لا يتكلم العبد الا بالحق ، غضب أو رضي .) [3] فجعله كل الورع .

---

(١) زهد ابن المبارك /٢٣٤ .

(٢) (٣) تاريخ بغداد ١٠٤/٧ ، ٨/٦ .

لا يعني بذلك نفي صورة أخرى للورع ، وانما راعى حاجة السائل وطبيعة الظرف التي راعاها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) [1] .

فأنوار الورع وافرة ، وامتلاك اللسان منها ، ومنها أيضاً :

● نور سادس ، مصدره :

• وزن المسلم بحسناته وأخطائه معاً .

فنذكر لصاحب الهفوة المستفزة صوابه الذي قد يطغي عليها ، ونرى للأمير المجتهد بذله وتاريخه وسابقاته المنتجة وعطاءه المستمر اذا خالفناه في مذاهبه .

والذي يتأمل الأعمال الجماعية يدرك أن معادن الرجال انما تستبين في المواطن الحرجة التي تستدعي الفقه والقلب المؤمن ، وبمواقفه فيها يرجح ميزانه إلى إحدى الكفتين : الجدارة أو الضعف ، كمواطن الخلاف العارمة التي يطيش خلالها التعامل ، والعذاب والمحن التي لا يصبر لها إلا مليء الهمة ، ومواطن الاغراء وتسهيل كسب الأموال والمناصب التي لا يفضل الانغماس في أعمال الدعوة اليومية عليها إلا من يطل ببصره على جنان عريضة . أما الزلات العادية ، واللمم ،

(١) صحيح البخاري ١/١١ .

والحرف الغاضب ، والنبرة المنفعلة ، كسل يومين ، فلم يبرأ منها أحد ، ولا يكاد .

والشريعة كلها قد بنيت على مراعاة هذا التكافؤ واعتبار هذه القاعدة في الترجيح ، ورب الناس يزن بهذا الميزان يوم القيامة ، ولكن البعض ينسى .

فمن أراد اتقان أدب الاسلام في الجرح والتعديل : عليه أن يعلم أن :

(من قواعد الشرع ، والحكمة أيضاً ، ان من كثرت حسناته وعظمت ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فانه يحتمل منه ما لا يحتمل لغيره . ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ، فان المعصية خبث . والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل ، فانه لا يحتمل أدنى خبث .

ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « وما يدريك لعل الله اطلع على اهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . » وهذا هو المانع له صلى الله عليه وسلم من قتل من جسّ عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فاخبر صلى الله عليه وسلم انه شهد بدراً ، فدل على ان مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة ، فاخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال : ما ضر عثمان ما عمل بعدها .)[1]

● عائشة تطبق الميـــزان

وكذلك حال حسان بن ثابت رضي الله عنه : قذف عائشة ، وبقي حبه في نفس النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه واجيال المسلمين من بعدهم ، للذي كان عليه من المنافحة بشعره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أن عائشة ردت على ابن اختها عروة بن الزبير بن العوام لما سبه وقالت :

(يا ابن اختي : دعه ، فانه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .)[2]

وقريب من ذلك شهادة أخرى لعائشة في أمر زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنهما ، فانه كان بينهما ما يكون بين الضرائر ، وكان في زينب من الطباع ما يؤخذ عليها ، ولكن ذلك لم يمنع عائشة من انصافها والثناء على فعالها الايمانية ، فقالت :

(هي التي كانت تساميني من ازواج النبي صلى الله عليه وسلم في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أر

---

(١) مفتاح دار السعادة لأبن القيم ١٧٦/١

(٢) صحيح مسلم ١٦٣/٧ .

امرأة قط خيراً في الدين من زينب واتقى الله عز وجل واشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به ، ما عدا سوْرة من حدة كانت فيها ، تسرع منها الفيئة .)[1]

أي سريعة البرود بعد احتداد غضبها .

وقد وضعتنا عائشة رضي الله عنها هنا أمام نموذجين ينتقلان بنا إلى خطابين :

نموذج زينب ، ونخاطب بمناسبته هؤلاء الدعاة من أخواننا الاحبة الذين نشهد لهم بالدين وصدق الحديث وابتذال أنفسهم في أعمال دعوة الاسلام ، لماذا تلازمهم حتى الآن فورات الغضب وحدة الألفاظ ويغلقهم العناد المتحدي ؟ اليس البحث الهادىء اولى ؟ أو ليس الاقتداء بزينب في الرجوع السريع أجمل ؟

ونموذج عائشة نفسها ، ونخاطب بمناسبته المتزمت المبالغ في تشدده ، الذي يظلم اخوانه ، فلا يعترف بفضل ذي فضل واسع اذا هفا ، والذي يظلم الدعوة ، فلا يدعها تنتفع بذي اختصاص مفيد خلط مع كفايته خصلة يعاب عليها .

ان سمت التشدد ، وطلب الصفات المتكاملة ، انما يجب للقادة والمربين ، واما ما دون ذلك فان العمل الاسلامي ينتفع من كل إمكانية خير مهما ضمرت وصغرت ، ويدير في فلكه

---

(١) سنن النسائي ٧/٦٥ .

كل متعاطف مهما اثقلته العيوب التي لا تعود بضرر على مجمل الدعاة .

واولى لنا واصوب ان نقتدي بعائشة رضي الله عنها في انصافها ، وبتلميذها سعيد بن المسيب لما اسرع فهم طريقتها فأوجزها وصاغها بنداً في قانون الجرح والتعديل الاسلامي فقال :

(ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل الا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي ان تذكر عيوبه ، فمن كان فضله اكثر من نقصه : وهب نقصه لفضله .)

والزم اخـــاك فان كل اخ ترى
فله مســـاوىء مـــرة ومحاسن

وابتسم بعد الامتعاضة من قول تسرع به اخوك فندم ، وأطل ابتسامتك ، فاننا نحب ان نراك بها ، ونحب ان نسألك عنها ونحب ان نسمعك تقول :

اتاني مقـــال مـــن أخ فاغتفرتـــه
وان كان فيما دونه وجه معتب
وذكّرت نفسي عند امتعاضهـــا
محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب

فما باله ان لم يكن ذنباً وكان مجرد تدلل وتمنع مما يكون بين الأقران حين تأخذهم نشوة الحمد على الهداية والايمان

اذ يرون انفسهم – دون الناس – في المحل العقائدي الاعز الأرفع ؟

أو : اذا طلبت الاجمل فاستر ولا تخبر ، وتخلق بخلق الكرام ، واكذب علينا وقل : ما ثم الا خير ووفاء .

ان الكرام اذا صحبتهم ستروا القبيح واظهروا الحسنا

وانتظر التلافي ، ان الحسنات يذهبن السيئات .

وما الناس الا من مسيء ومحسن
وكم من مسيء قد تلافى فأحسنا

والتلافي يقتضي التأني ، ومنح فرصة ، وغمض جفن ، لعل حياءه يغنيك عن لسانك ، وعسى ان يرده حليب طاهر رضعه من قبل فيُقبل .

*** امنية ، ولا سعد لها**

فاذا رسخ فيك خلق الانصاف ، ووزنت غيرك بصوابه كما تزنه بأخطائه : كنت أهلاً لان يصارحك اميرك في امر لعلك تنساه ، كما صارح ذاك الخليفة القوي الحجة من خلفاء المسلمين الاوائل جيل المسلمين الذي حكمه فقال :

(انصفونا يا معاشر الرعية . تريدون منا ان نسير فيكم سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولا تسيرون فينا ولا

في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر !)[1] .

ونقول لك كالذي قال :

انصف ايها الداعية ، وكن عادلاً واقعياً ، فانك تريد من القادة إنجازاً لعله الآن في مثل صعوبة فتوح أبي بكر وعمر ، وانت لا تهب دعوتك ما وهبه جند أبي بكر وعمر .. !

تجمع الأموال ، وتخشى الفقر ، وتطيل سمرك مع زوجك ، وتعطي الدعوة فضول الأوقات ، ثم تريد ان ترى المعجزة .

كلا ، كلا ، بل شرط بشرط .

من أراد أميراً كأبي بكر فليكن كخالد وكسعد .

رضي الله عنهم اجمعين .

ثم ليس أبعد من ذلك ، فان سنة النبي ﷺ لم يطقها أبو بكر نفسه ، بل قال :

(ايها الناس : لوددت ان هذا كفانيه غيري ، ولئن اخذتموني بسنة نبيكم ﷺ ما أطيقها ، ان كان لمعصوماً من الشيطان ، وان كان لينزل عليه الوحي من السماء)[2] .

ولئن أخذنا القادة بسنة نبينا ﷺ ما يطيقونها ، ولكن لنا عليهم الحرص كل الحرص على تحري الأصوب والأصلح ، وبذل المجهود في تحري المنافع للمؤمنين .

---

(١) عيون الأخبار لأبن قتيبة ٩/١ .

(٢) مسند أحمد ، حديث رقم ٨٠ بسند حسن .

إنّهُ

(١٢) دَمُ الدّعوَة

يعتبر تاريخ الصدر الاول من السلف الصالح من مصادر فقه الدعوة الرئيسة ، فانهم بأفعالهم وطريقتهم في الحياة كانوا افصح من خلف ينطلق بقلمه لتدوين فقه الدعوة من تأمل نظري مجرد . وقد حددوا بسيرتهم ما يجب للداعية من صفات ، وما يسوغ للدعوة ان تسلكه من اساليب ووسائل .

فبعضهم لم يتكلم بغير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الا جملاً يسيرة ، ولكنه ارى الناس تطبيقاً رائعاً للحديث وأفعالاً شدتهم إلى الاقتداء .

وانما يرجى لدعوة الاسلام النجاح اليوم اذا ادركت هذه الحقيقة القديمة ، لا بشيء آخر ، فتحرص على أن تنزل ساحة العلمانية كل جوال فعال صامت ، يري الأرضيين من نفسه قوة ، قبل أن يسمعهم من لسانه تفاصحاً .

ومحمد بن سيرين ، التابعي البصري ، : قدوة من قدوات الصمت الناطق أولئك ، وله مذهب في التجرد سماه صاحبه أبو قلابة الجرمي : امتلاك النفس ، فقال يفاخر بابن سيرين جمعاً من الدعاة :

(اصرفوه حيث شئتم ، فلتجدنه اشدكم ورعاً ، وأملككم لنفسه)[1] .

فالداعية يملك نفسه ، ومن ثم فهو الذي يخطط لها طريقها ومستقبلها ، ولا يدعها تملكه ، فان من لم يملك نفسه : يفقد حريته ، وتكون هي المستعبدة له ، وانما هذه دعوة الأحرار الأبرار ، يتصدرها كل حر سريع الخطو ، ومن رضي ان يكون مملوكاً ويرسف في الاغلال والقيود فانما يكون في آخر القافلة ، أو تدعه وتمضي .

ومنذئذ أضيف إلى فقه الدعوة شرط جديد من شروط الدعاة يلزم المتصدي ان يملك نفسه كما ملكها ابن سيرين ، وان يحررها من القيود كما حررها ابن سيرين .

وقد قال ابن السماك الزاهد من قبل :

(ان الرجاء حبل في قلبك ، قيد في رجلك ، فأخرج الرجاء من قلبك : تحل القيد من رجلك .)[2]

ويقصد بالرجاء : الامل الدنيوي ، فانه يقيد الرجل عن

---

(١) (٢) تاريخ بغداد ٥/٣٣٤/٣٧٠ .

الانطلاق في أعمال تتطلب التضحية وتضع ازهاق الروح وراداً في الاحتمال .

انما ذلك الواهم فقط يغريه الامل، اما الفطن فيدرك انها قافلة ليست ككل قافلة ، ويعلم انها قافلة النور هو فيها ، وانها تسير في درب كله نور ، قد توغلت فيه ، فيحل قيود الطمع ، ويواكبها ،ويلازم اهلها اذ يرفعون ابصارهم إلى هالة :

● النور السابع ، وهو :

*** الالتفات إلى عيب النفس .**

فينشغلُ الداعية باصلاح عيوبه ، ويدع اعابة الاخرين وتسقط زلاتهم .

وكان السري السِقطي البغدادي يتخوف خوفاً عظيماً من سريان مرض تتبع عيوب الناس إلى جماعة السالكين إلى الله، فكثر تحذيره منه ، وصنع احصاءات خلقية اجتماعية لبيان مدى تأثيره السيء واظهار تعدد انواع سلبياته ، ووضع تقريراً طويلاً حفظت لنا منه كتب الزهد والرقائق فقرات منه كثيرة ، وأجمل في خاتمته نتيجة استقرائه فقال :

(ما رأيت شيئاً أحبط للأعمال ، ولا أفسد للقلوب ، ولا أسرع في هلاك العبد ، ولا أدوم للأحزان ، ولا أقرب للمقت ، ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب والرياسة من قلة

معرفة العبد لنفسه ، ونظره في عيوب الناس) .

فهي سلبيات يعددها ، كل منها يكفي لتعكير صفو السكينة الايمانية .

• وقد اشار في مقدمة تقريره إلى أن :

(من علامة الاستدراج للعبد : عماه عن عيبه ، واطلاعه على عيوب الناس .)

فجعل بدايته : استدراجاً ، اي تغريراً من شيطان ، يمني ضحيته بوجود بعض لذة في آخر طريق وعر بعيد ويغريها بنيلها ، فتلج ، فتنقطع ، فينفرد بها بلا نصير او ظهير ، فيقهرها ، كما يقهر الجيش اعداءه الضعاف باظهار تراجع مفتعل يغريهم بالتوغل دون حساب خط رجعة .

• ولما نودي على السري بعد ذلك للولوغ في أعراض الناس وولوج مجالس احصاء عيوب الاخرين ناداهم بأعلى صوته :

(ان في النفس لشغلاً عن الناس .)

وانها لصيحة يحق لها ان يصرخها كل دعاة الاسلام الآن ، والخبير بتلبيس ابليس يدرك مزالق هذا الباب جيداً .

● أسباب مرض الغمز وأعراضه

* والذين رصدوا اسباب هذا المرض الخبيث يؤكدون انه ظاهرة دفاع عن النفس ليس الا ، فأصحاب العيوب يتوقعون نقداً لهم من ناصح أمين يظنونه مهاجماً ، فيتداعون إلى أخذ زمام المبادرة وتحويل الهجوم بهمز ولمز من وراء ظهر .

فأجرأ مـــن رأيت بظهر غيـــب
على عيب الرجال : ذوو العيوب

حتى باتت هذه الخصلة فاضحة لكل ذي لسان طويل ، مغنية عن الفراسة ، فقال السامع للمهذار :

(قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس ، لان الطالب للعيوب انما يطلبها بقدر ما فيه منها .) [1]

* ولذلك كان السلف عموماً على أشد الخوف من هذا الخلق الرديء الذي قد يلبسه ابليس رداء النصح والامر بالمعروف ، وصاحب القلب الحي يميز هذا عن هذا بوضوح ، لكنها الغفلة التي ابتأس لها التابعي عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حين كان يساعد أخاه عبيد الله في تطبيق نظرية تأليف الارواح ، فقال :

(ما أحسب احداً تفرغ لعيب الناس الا من غفلة غفلها عن نفسه .)

---

(١) عيون الأخبار لأبن قتيبة ٢/١٤ .

فالغفلة سبب ظاهر ولا شك ، لولاها لاعتنى بملكه ، ولشغله الغرس وجني الثمار .

* أما اهم أعراض مرض الغمز فهو تواصي مرضاه باخفاء مناقب الغير وفضح هفواتهم .

رآهم كذلك النسابة البكري ، فقال لرؤبة بن العجاج :

(ما اعداء المروءة ؟

قال : تخبرني .

قال : بنو عم السوء : ان رأوا حسناً ستروه ، وان رأوا سيئاً اذاعوه)[1] .

ورآهم الشاعر أيضاً ، فتعجب من حالهم وكيف انهم :

ان يسمعوا الخير : يخفوه ، وان سمعوا
شراً : اذاعوه ، وان لم يسمعوا : كذبوا

ولا شر عند جماعة المؤمنين والحمد لله ، لكن ذلك خلقهم دائماً ، لا يعجبهم ما عليه المؤمنون من الخير ، فان حدثت هفوة يعلمون ما وراءها من نية صادقة : طبلوا وزمروا.

* ومن أعراض هذا المرض أيضاً : التهويل والمبالغة ، واستعمال العدسة المكبرة للتفتيش عن صغائر الغير .

ذكر ابو هريرة رضي الله عنه ذلك عنهم ، فقال لهم :

---

(١) مفتاح دار السعادة لأبن القيم ١/١٦٨ .

(يبصر احدكم القذاة في عين أخيه ، وينسى الجذع في عين نفسه ! !)[1]

ثم رأى الشاعر منهم معانداً يأبى الانصاف ، فجدد له قول أبي هريرة ، ووبخه ، وقال له :

وتعـذر نفسك اما اسأت وغيرك بالعـذر لا تعذر !
وتبصر في العين منه القذى وفي عينك الجذع لا تبصر ! !

● علاج الهمز برقابة القريب

* ولكن ما جعل من داء الا وجعل له من الادوية مـا يذهب به .

وكأي مرض نفاقي آخر فان الهمز يداوى اول ما يداوى بتذكر رقابة الله ، فانها الدواء العام الخاص ، فيعلم أن الله من قلبه قريب ، وعلى لسانه رقيب ، ويسكت تائباً ، ويعزف عن صاحبه لو أتاه من الغد يدعوه إلى جلسة غيبة ، ويشرح أمره ، ويحدثه عن النور الذي اناره الله في قلبه فأضاء زاوية كانت فيه مظلمة ، ويقول له :

يمنعني من عيب غـيري الـذي
أعرفـه عنـدي من العيـب
عيبي هـم بالظن مـني هـم
ولسـت مـن عيبي في ريـب

---

(١) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد للبخاري ٢/٤٨ .

ان كان عيبي غـــاب عنهم فقـــد
احصى ذنوبي عـــالم الغيب [1]

* ويقولها صريحة لصاحبه ، ويهدده محذراً :

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستّروا
فيكشف الله ستّرا عن مساويكـــا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا
ولا تعب أحداً منهم بما فيكـــا [2]

* فان لم يصغ له : تركه ، ومضى في طريق الانوار ، يبدد ما قد يكون هنالك من بقايا الظلام بنور النصح مع الله الذي اوقده له زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم لما قال :

(اذا نصح العبد لله تعالى في سره : اطلعه الله تعالى على مساوي عمله ، فتشاغل بذنوبه عن معايب الناس .)

فزين العابدين يجعل معرفة المسلم بعيوبة منحة ربانية ، وانها لكذلك والله .

* فاذا قرن التائب سكوته ونصحه لله بدعاء يتضرع فيه : كمل نوره السابع .

---

(١) تاريخ بغداد ٨٣/١٠ .
(٢) عيون الأخبار ١٨/٢ .

ويستحب هنا له أن يكون خلف عبد الوهاب عزام ، يردد مناجاته ربه :

ان في النفس بغضـــة لأنــاس
أصلحنّــي وحببنهـــم اليّـــا
واغسل الحقد والهوى من فؤادي
واجعلنّي لكل حــق وليـــا (1)

يقول آمين ، وينطلق من فوره بعد ذاك لاتمام أنواره ، ويندفع نحو ومضات :

● النور الثامن ، وهو :

*** صون الاذن عن استماع الغمز .**

فيدعها في عافية من بعد ما عافى لسانه من تتبع زلات الناس وانتبه لعيوب نفسه ، اذ :

(ليس من جارحة اشد ضرراً على العبد ــ بعد لسانه ــ من سمعه ، لانه اسرع رسول إلى القلب ، واقرب وقوعــاً في الفتنة .)

فسمعك صن عـــن قبيح الكلام
كصون اللسان عن النطـــق به

---

(1) ديوان المثاني /97 .

فانك عنـــد استماع القبيـــح
شريك لقائلــه فانتبـــه [1]

وهذا ما يستدعيه التعجل الايماني المستحب للسائر في طريق الانوار ، فان استماعه للهماز يضيع عليه وقته الثمين ان لم يضره ، ويفوت عليه الالتذاذ بمنظر شروق :

● النور التاسع ، الساطع ببريق :

* المساررة في نصيحة القادة .

• فلما لم يعط النبي صلى الله عليه وسلم جعيل بن سراقة الضمري رضي الله عنه شيئاً من المال ، وهو المهاجر المجاهد ، وأعطى من هو دونه ، وظنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه اهمالاً لجعيل ، وأراد توثيقه : قام إلى النبي على صلى الله عليه وسلم مقترحاً .

قال سعد :

(فساررته فقلت : مالك عن فلان ، والله اني لاراه مؤمناً ؟
قال : او مسلماً .) [2]

فذكر ابن حجر ان هذا الحديث يتضمن من الفقه :

(ان الاسرار بالنصيحة أولى من الاعلان .)

---

(١) أدب الدنيا والدين / ٢٥٧ .

(٢) صحيح البخاري ١٤٧/٢ .

قال :

(وقد يتعين اذا جر الاعلان إلى مفسده .) (١)

• ولما طلبوا من اسامة بن زيد رضي الله عنه ان يكلم بعض الامراء حول أمر ضجروه منه قال :

(انكم لترون اني لا أكلمه ؟

إلاّ اسمعكم اني اكلمه في السر دون ان افتح باباً لا أكون اول من فتحه ؟ .) (٢)

فأخبرهم انه لم يغفل عن ذلك ، وانه كلمه ، ولكن في السر ، خوفاً ان يستغل اهل الاهواء كلامه ، فيتخذونه ذريعة إلى الفتن والمفاسد .

فلهذا يسمى هذا النور : نور أسامة ، وما زال يتولى ايقاذه من دعاة اليوم كل أسامة .

• لا تعن سفاكاً ! !

ويصور لنا أبو معبد عبد الله بن عكيم الجهني . وهو أحد قدماء التابعين المخضرمين الثقات ممن ادرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ، مبلغ أساه وندمه وحسرته على كلمات تفوه بها زمن عثمان رضي الله عنه نصحه بهن جهاراً ، يظن

---

(١) فتح الباري طبعة البابي ١/٨٨ .
(٢) صحيح البخاري ٤/١٤٧ .

ان فيه مساوىء ، وحاشا الراشد الثالث من المساوىء ، فتلقف كلماته اصحاب الاغراض ، واستباحوا دمه الشريف بهن وامثالهن .

ورامو دم الاسلام لا من جهالـــة
ولا خطأ ، بل حاولوه على عمـــد

ففي حلقة دراسية انعقدت في المدينة لتدريب وتفقيه الجيل الجديد من رجال دولة الاسلام المكلف باستدراك ما صنعته الفتنة حاضر عبد الله بن عكيم ، وطفق يلخص لهم تجارب المخلصين ، فقال :

(لا اعين على دم خليفة أبداً بعد عثمان) .

وكانت كلمة مثيرة منه حقاً .

وتأخذ الجميع اطراقة ، فما ثم الا عيون تتبادل النظر مستغربة ما يقوله الرجل الصالح .

ما لهذا الشيخ البريء المؤمن الذي لم يرفع في وجه عثمان سيفاً ابداً يتهم نفسه ويلومها على ما لم يفعل ؟

وينبري جريء لسؤاله :

(يا أبا معبد : أوَ أعنت على دمه) ؟ .

فيقول :

(اني لارى ذكر مساوىء الرجل عوناً على دمه) [1] .

---

(١) رواه البخاري في تاريخه الكبير جـ١/ق١/٣٢ بسند صحيح ، وأبن سعد في الطبقات ٣/٨٠ .

فهو يتهم نفسه بجزء من دم عثمان لانه رأى بأم عينه كيف ان ما ظنه وقام في نفسه من انه الحق قد أدى إلى استغلال الرعاع له حين تكلم به، وكيف طوروه حتى قتلوا عثمان رضي الله عنه .

انها حساسية النفس الصادقة في توبتها ينطق بها ابن عكيم ، مع انه ما كان يكره عثمان حين تفوه بتلك الكلمات ، فان إبنه يقول :

(كان أبي يحب عثمان .) (١)

وهذا يقتضي انه قال كلماته الناقدة بلهجة المحب وما فيها من الرفق واللين ، ومع ذلك نتج عنها من المفاسد ما نتج ، فكيف لو انضاف إلى علانية النقد لفظ رديء ، وعبرت عنه لهجة عنيفة ؟

ان الجيل الجديد من رجال دعوة الاسلام الحديثة ــ اذ هو يتفقه اليوم في حلقاته الدراسية لاستدراك ما صنعته فتن الأمس ــ مدعو إلى ملاحظة المغزى العظيم المهم لقصة عبدالله بن عكيم ، وتجربته الصادقة .

لا تكن ساذجاً ايها الداعية ، فانها تحريشات من حولك لسفك دم الدعوة .

احذر ، والتفت إلى عيب نفسك ، وصن سمعك وسارر بنصيحتك ونقدك ، ولا تعن بلسانك ... إنه دم الدعوة .

---

(١) تهذيب التهذيب ٥/٣٢٤ .

دَعْــوَة
القَــوْل
الطَـيِّبْ ________ ١٣

منظر جميل في كل بلد منظر أولئك البسطاء المتواضعين من أهل الأرياف والقرى حين يجتمعون يوماً في الأسبوع يقيمون سوقهم فيما بينهم ، فيتبادلون انتاجهم مقايضة ، ويبيعون للغريب ما جمعوه جملة ، بلا ميزان مدقق أو حساب طويل ، يبنون تعاملهم وبيوعهم على النيات البيضاء ، والحياء ، والقناعة ، وأسس الكرم ، وشكر الله على ما يمنحهم من رزق ، حتى أن أحدهم ليذهب من سوقه ليبذر بذره ، فيقول مع كل حفنة حبوب يرشها على أرضه : للطير وما قسم الله . يرى للطير حقاً في كرمه .

لكن التعقيد والتدقيق انما يكون في أسواق المدن ، ونيات التطفيف تجدها عند كثير ممن يبيع او يشتري من أهلها ، يريد البائع اعلى ربح ، ويريد المشتري أرخص ثمن . ولذلك احتاجوا

إلى الموازين واعتبروها حكماً بينهم ، وباتت تبعد شبهة التطفيف والمخادعة عن الطرفين ، فلا تبقى احدهما قلقاً ، كما اصبحت تمنع شهوة التطفيف بعد ذاك ، فلا يستطيع أحدهما التحايل ، خوفاً ان يفضحه الميزان .

وأنوار الفطنة هذه التي لا زلنا نمشي في أضوائها انما هي موازين أيضاً ، ترد الشبهات وتجليها ، وتبرد الشهوات وتسكنها اذا لف التعقيد مجتمع الدعاة واستعرت الفتن أو اقترب ظلامها ، ولذلك كان ابن تيمية كثيراً ما يصف المؤمن بأنه صاحب « بصر نافذ عند ورود الشبهات ، وعقل كامل عند حلول الشهوات . » ، وركز على وجوب غلق هذين البابين اللذين تقتحم الفتن منهما حصن الجماعات : الشبهات والشهوات .

لكن ، لو تعامل الدعاة بالنيات ، والقناعة ، والتواضع ، والشكر على نعمة الاسلام والانتساب للدعوة ، لوهبهم الله صواب الخطو بلا تكلف ، ولما احتاجوا إلى ميزان وتدقيق ، ولغشيتهم السكينة التي ينام أهل الارياف في ظلها ، غير أن فيهم نفراً يطففون .

حقيقة يجب أن نعترف بها .

لقد تعقدنا بعض التعقيد ، وتركنا سمت البساطة ، ومازج التكلف طبيعتنا المنسابة المنسرحة الهينة اللينة التي أودعها الرعيل الرائد فينا ، ولا بد من علاج بمتابعة طلب هذه الموازين الانوار.

● شبهة معترضـة

ولقد وصف النور التاسع بأنه ساطع ، لما للمساررة في نصيحة القادة من بريق لامع يحرم الفتن من بيئتها الطبيعية التي تتوالد فيها .

ولكن ربما ظن داعية ان المساررة في النصيحة تنافي طبائع الاسلام وسمته في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأى في إنكار المرأة على عمر رضي الله عنه في المسجد جهاراً دليلاً ينفي نورانية المساررة .

والأمر ليس كذلك عند من عرف مقاصدنا ، إذ لو افترضنا صحة قصة إنكار هذه المرأة على عمر – التي يضعفها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني – وفحصنا فحواها ، لما وجدنا لها علاقة بسياسة أو عقيدة أو موقف عام جماعي ، وانما تتناول أمر مهور الزوجات ، أو أمر توزيع بعض العطايا على من له حق في بيت المال ، في قصة أخرى تروى ، فضلاً عن أن العامي المجهول الذي اعترض ، أو المرأة المجهولة ، لا يصلح عملهما أن يناهض الأدب الذي اختاره سعد بن أبي وقاص أو أسامة ، وهما على ما يعرف عنهما من الفقه والتجربة ، ولا أن يكونا مصدراً لأصول الدعوة وابن حجر يفتيك بعد ابن عكيم بوجوب الأسرار عند خوف المفسدة .

ان نصيحة قادة العدل الذين يتحرون السير على موجب فقه الراشدين غير مواقف العلماء الجريئة في الإنكار على الظلمة

والمبتدعة ، وانما ندعو نحن إلى مساررة لا في مثل هذه الأمور التي يحتاجها الناس في أمر معاشهم اليومي ، بل فيما يتعلق بسياسة المجموعة الداخلية والخارجية ومواقفها العامة ، وفي أيام الفتن خاصة ، خوفاً من استغلال أصحاب الأغراض للنقد المعلن ، أو اغترار المخلصين السذج وأصحاب التجربة القليلة بظاهره ، إذ تصبح النصيحة في موطن يوجد فيه مثل هؤلاء مترددة بين مصلحتين : مصلحة علانية النقد ، ومصلحة عدم إتاحة فرصة لاستغلال المغرض أو لاغترار الساذج به . وبين ضررين : ضرر الاقتصار على اسماع النصيحة لنفر قليل فقط ، وضرر الاستغلال والاغترار ، فيعمل بالقاعدة الفقهية العامة في دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وجلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وهي قاعدة أجمع الفقهاء على اعتبارها ، ويقرها العقل ، وتوجبها التجارب الوافرة في تاريخ الاسلام القديم والحديث

بل وان عمر رضي الله عنه قد أسرع هو نفسه قبل غيره إلى الامتناع عن بحث الأمور العامة أمام الجمهور الواسع الذي قد يضم المغرضين والسذج ، واقتصر على إسماع من يظن فيه الفقه والنبل فحسب ، وذلك حين أراد أن يقوم في مكة أيام موسم الحج خطيباً ليفند لغطاً لغط به بعض الجهال حول بيعة أبي بكر رضي الله عنه وأحداث يوم السقيفة ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

(يا أمير المؤمنين : لا تفعل ، فان الموسم يجمع رعاع

الناس وغوغاءهم ، فانهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس ، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير ، وأن لا يعوها ، وأن لا يضعوها على مواضعها ، فأمهل حتى تقدم المدينة ، فانها دار الهجرة والسنة ، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس ، فتقول ما قلت متمكناً ، فيعي أهل العلم مقالتك ، ويضعونها على مواضعها .

فقال عمر : أما والله ان شاء الله لاقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة) [1] .

فها قد تظافر لدليلنا من جديد : رأي ابن عوف ، وفعل عمر ، رضي الله عنهما .

وهكذا الداعية : لا يضع كلامه إلا عند من هو أهل لوعيه ، وليعتبر بما رأينا في الفتن ، فانها تكون أول ما تكون خفيفة ، ثم يتلقف أصحاب شهوة الرياسة نقد الثقات ، ويزيدون فيه عشرة أمثاله ، فيكون هدماً .

ان الداعية الفطن الكيس ان كان عنده قول يرى ان لا بد من قوله لغير قادته فانما يقوله لاهل الفقه من الدعاة وأشرافهم الذين تأدبوا بآداب السنة طويلاً ، ويسارر به ، لا يوزعه ها هنا وها هنا .

يسارر ، أو يتحرى الحلماء النبلاء العقلاء القدماء ،

---

(١) سحيح البخاري ٢٠٩/٨ .

أصحاب الأقدام المنظورة المأثورة ، ثم يسرع بعد أن ألقى التبعة نحو :

● النور العاشر ، وهو :

*** الاقلال من الكـــلام .**

فانما يسألك الله عن فصاحة قلبك لا عن فصاحة لسانك .

ولا شك انها مسألة نسبية مسألة اللسان ، فليس أحسن وأبلغ من سكوت اذا كثر اللغط ، ولا أجمل من كلام الناصح الآمر بالمعروف اذا أصلح .

فالمؤمن :

(يحسبه الجاهل صميتاً عيياً ، وحكمته اصمتته . ويحسبه الاحمق مهذاراً ،والنصيحة لله أنطقته .)

وهو ذاك النموذج الذي رآه الشاعر :

ضحوك السن : ان نطقوا بخير
وعند الشر : مطراق عبـــوس

فطلب منك تقليده بعد أن رأى جمال تقلبه في الحالتين فقال :

تكلم وسدد ما استطعت فانمـــا
كلامك حي والسكوت جمـــاد

فان لم تجد قولاً سديداً تقـولـه

فصمتك عن غير السداد سداد

وهذا هو عين الصلاح الذي أراده الصالحون لكل لسان ، فمن صلح لسانه عندهم ، أي نطق بالخير وسكت حين الفتن : صلح عمله كله . وفي ذلك كان التابعي يونس بن عبيد يقول :

(خصلتان اذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما : امر صلاته ، ولسانه .)

ثم زاد فقال :

(ما صلح لسان أحد الا وصلح سائر عمله .) فهو المفتاح المبارك ، ولود الخيرات ، من أصلحه تفتحت فيه البصائر ، وهجر الكبائر والصغائر .

● الكلمة الطيبة ترفع درجات

ولذلك كثر كلام رسول الله ﷺ في بيان أهمية اللسان ، وجعل سكوته في موطن الشبهة ترجمة الايمان ، فقال :

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت)، وفي لفظ : (أو ليسكت) [1] .

فقول الخير من الايمان ، حتى ان الكلمة الواحدة لترفع

---

(١) صحيح البخاري ١٢٥/٨ صحيح مسلم ٥/١ .

صاحبها درجات ، كما في قول النبي ﷺ :

(ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات)[1] .

ومن أجل ذلك رغب في هذه الكلمات الخيرة ، فقال :

(أطيبوا الكلام)[2] .

يدلهم على باب الدرجات ، وسلم العلو ، اذ ليس أروع من كلمة حق منك ، أو اصلاح ، حين يفتّن لسان غيرك .

فان عجز المرء : فانه السكوت ، إذ ربما تبدل الكلمة الواحدة ميزانه فيردى ، كما قال النبي ﷺ :

(ان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً ، يهوى بها في جهنم)[3] .

والميزان في هذا ، هنا في الأقوال كما في الأعمال ، هو قول رسول الله ﷺ :

(اذا حاك في نفسك شيء فدعه)[4] .

فان (أكثر خطايا ابن آدم في لسانه .)[5]

فلينظر داعية نفسه ، وليرفق بها ، وليلزم الجمل المفيدة ،

---

(١) صحيح البخاري ٨/١٢٥ .
(٢) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/٣٤٠ .
(٣) صحيح البخاري ٨/١٢٥ .
(٤) (٥) صحيح الجامع الصغير ١/١٩١/٣٨٥ .

وحروف البناء ، وليطب كلامه ، يكون طيباً يهدي من القول طيباً ، فان نصف التربية قول موجه ، وليدع حرفاً حاك في الصدر ، فان الشيطان يؤز ، يحرف النفس إلى طلب انتصار وغلبة ، فتكون الوخزة ، والتهمة المتسرعة ، والنبزة . أو يشجعها على طلب سلامة ودعة ، فتكون حروف اللين .

والطريق الأقرب لهذا الرفق الطيب : أن يتشبه الداعية بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويقلده في خلقه ، لتشمله دعوة النبي ﷺ حين دعا له فقال :

(اللهم أهد قلبه وثبت لسانه)[1] .

فلم يتقلب لسان علي .

فانظر : لم يكتف حتى ذكر اللسان ، وبين أن ثبات اللسان قرين هداية القلب أو نتاجها !

وإلا ، فان لنا حين نرى لساناً قلقاً لاحنا أن نتهم القلب الذي تحته بعدم استكمال الهداية ، وأنه بحاجة إلى الواعظ الناصح الذي يعلمه الفصاحة في الحق ، ويدق له وتدأ يثبته في تيارات الأهواء .

وانما هو نموذج دعاء حفظه الرواة فرووه لك ، تعليماً للغة الدعاء وتلقينا ، كي تقول لاخيك يوم ترى بوادر الفتن :

(اللهم أهد قلبه وثبت لسانه)

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٣٧/٢ .

تقولها بعد قولك :

(اللهم أغفر لي ولاخي هذا)

معاً ، مرة بعد مرة ، كلما لقيته .

● صواب القول من صواب العمل

وبهذا تكون قد أديت واجبك ، وأحسنت أجمل الاحسان الاخوي .

أما فقه الدعوة ، فمن واجبه أن يستمر في عرض غرر النصائح ، عل حريصاً ينتفع ، او جريئاً يتأنى ، ليتأمل وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه اذ يقول له :

(أقلل من الكلام ، فانما لك ماوعي عنك .) (١)

أو وصية عمر الفاروق رضي الله عنه اذ يترحم فيقول :

(رحم الله امرءاً أمسك فضل القول وقدم فضل العمل .)(٢)

أو وصية أبي الدرداء رضي الله عنه لما ذهب في الصراحة لابعد منهما فقال :

(أنصف أذنيك من فيك ، فانما جعل لك أذنان اثنتان وفم واحد ، لتسمع اكثر مما تقول .) (٣)

تلك وصاياهم .

كانوا جيل جهاد وبناء ، ربته المعاناة والممارسة ، وصقلته

الشدائد ، وعرفوا من خلالها قدرة البذل الصامت على تناوش الغايات ، فخافوا أن يقطع هذرما نصرهم المسترسل في سيره .

ان اللغو شين كله ، وضرره أيام التمكين ليس أقل من ضرره أيام المحن .

وعلى دعاة الاسلام أن ينطلقوا اليوم من هذه الحقيقة ، فينطقوا فيما بينهم بالخير الواسع ، والمعنى الكبير ، والفقه المفيد ، في عبارة ضيقة المبنى موجزة ، فان الاكثار مظنة الخطأ ، من غيبة ، أو تهمة بريء ، او اضطرار لاستعمال دليل ضعيف ، ومن وجد في نفسه بقية شوق إلى تحريك اللسان فدونه القرآن ، ومزيد التسبيح ، والحمد . ودونه مجالس الواهمين والدنيويين ، يصدع فيها بحق الاسلام ما شاء

نمط تربوي لا بد منه لجيلنا ، كي تتهيأ الجوارح لفضل فائض من العمل ، بمثله أمات عمر الفتن في جيله . فانبغت له الفتوح .

وفتحنا المنتظر رهن بطريقة عمر .

هذا ، او التردي المعاكس الذي لا يقف ، بل يستمر نازلاً هاوياً ، فان القول والعمل مرتبطان ، فان أخطأت العمل : احتاجت نفسك إلى ستر الخطأ بخطأ من القول آخر زورا .

ذلك ما لاحظه أحد الصالحين فقال :

(لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل)[1] .

هكذا ، في متوالية رديئة ، تقدم ستر الفضيحة على قول الحقيقة ، والتبرير المدلس على التوبة والاعتذار ، في ظن بعيد من الانتصار يراه قريباً ، واللحن يهتك حجابه .

● وذهب الصمت عرفا !

وكان نتاج ذاك الحرص الراشد على الصمت الفعال فوجاً آخر من التابعين يترادفون على درب العمل ويجددون النصح التربوي باقلال الكلام .

● منهم التابعي المهلب بن أبي صفرة الازدي حين يقول :

(يعجبني أن أرى عقل الرجل الكريم زائداً على لسانه) .[2]

كلمة تستوي في ظاهرها مع ما نسمع من طرف لسان أكثر الوعاظ ، لكنها عند من يعرف المهلب قائداً متحمساً لقتال الخوارج تمثل حساسية روح وخزها شذوذ الخوارج عن اجماع المسلمين ، ولذعة قلب كواه تفاصحهم وتبجحهم الزائد أزاء عقل يناديهم باجتماع تتمكن معه جيوش الاسلام من مواصلة الزحف على معاقل الكفر بدل تطاحن داخلي بين طرفين كلاهما موحد .

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي /٣٧٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٩/٣٠٠ .

* ثم عمر بن عبد العزيز الذي يقول :

(من عد كلامه من عمله : قل كلامه)[1]

يذكرك ، لعلك نسيت ، انك تحاسب على الكلام حساباً مثل الذي على عمل الجوارح .

وانظر الترابط بين مشاهدته الواضحة لهذه الحقيقة ، وبين رشده وعدله وطبيعة حكمه الفذة .

حتى ان المطالع لكتب المواعظ ليكاد يرى تواطئاً بينه وبين آساتذة التربية الذين عضدوه على إقرار الاقلال من الكلام خطاً تربوياً للمجتمع ، ومن أبرز هؤلاء : الحسن البصري ، وميمون بن مهران ، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة ، وبقية فقهاء المدينة .

* ونقلة قريبة إلى الجيل الذي بعدهم ترينا استمرار هذا السمت عند الثقات ، ففي مرثية المحدث الثقة محمد بن كناسة الكوفي لخاله الزاهد المشهور ابراهيم بن أدهم اشادة بهذا الخلق وبيان تكامله مع الصفات الايمانية الاخرى وارتباطه بها ، فيقول :

زهود يرى الدنيا صغيرا عظيمها
وفيٌّ لحق الله فيها معظما
وأكثر ما تلقاه في القوم صامتا
فان قال : بَذّ القائلين واحكما

---

(١) الزاهد لأبن المبارك /١٢٩

فاستصغار الدنيا ، والوفاء ، لا يبدو جمالهما الكامل إلا اذا اقترنا بصمت .

• ثم استاذ الزهد في الجيل التالي : بشر بن الحارث الحافي ، عضيد أحمد بن حنبل .

قالوا :

(ما أخرجت بغداد أتم عقلاً ولا أحفظ للسانه من بشر) [1] .

فأبانوا – من وجه آخر – ارتباط حفظ اللسان بالعقل ، فهو قد حفظ لسانه من اللغو ، فوهبه الله لساناً جريئاً في موقف صدق أزاء أمير خدعته البدعة ، فكان يجوب شوارع بغداد يوم تعذيب الأمام أحمد . ينتصر له ، ويثبت الناس ، ويقود جمهور محبيه المتكتل أمام قصر المعتصم .

وهذا اللسان – لعمرو الله – هو اللسان الذي يجب أن يحرص عليه الدعاة ، وبه يفخرون .

لسان اللهج بحديث في مسند أحمد ، والترويج لعقيدة أحمد ، وقيادة من يقتفي طريقة أحمد وطرق من سبق أحمد ومن خلفه من أئمة الفقه والفضل ، لا لسان التثبيط والتخذيل .

ورحم الله داعية أمسك فضل القول وقدم فضل العمل .

كلمة قالها عمر ، لم نبتدعها نحن .

---

(١) تهذيب التهذيب ١/٤٤٥ .

(١٤) خَيرٌ يَعَافُ الصَّاحِبِيْن

بذل لذيذ ، ونصر يتوالى .

عنوان صادق للسنوات الاخيرة من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عكس طابعه الكامل على المهاجرين والانصار رضوان الله عليهم ، فتركهم يتقلبون في أنواع من الفرح غامرة . يستشعرون حمداً تفيض به قلوبهم على نعمة الاسلام والصحبة ، ويراقبون خيراً جامعاً من احكام الفروض والمندوبات والحرام والمكروهات ينزل به جبريل من السماء كل يوم ، او ينطق به النبي صلى الله عليه وسلم ، فينحسر مع كل نزول ونطق خلق من الجاهلية بشع ، ويكتب عليه الجلاء ويزاح ، ليتاح لهم مجال أن يسألوا عن مكملات الخير الذي هم فيه .

الا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، كان لا يقنع . فما ان يشارك اخوته من الصحابة فرحهم هذا حتى تلذع ابتسامة

قلبه تخوفات من احتمالات شر مبهم يراه مقبلاً ، يجهل صفته وعلامته ، فيظل قائماً وجلاً ، حتى ينعته له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكر له بوادره ومقدماته التي ستنبهه يوماً ما إلى الاحتياط ورفع صوته بأذان التحذير .

كان يريد علماً يكمل علم الخير ، فصار يحرص على ان يخلو برسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله .

يقول حذيفة :

(كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة ان يدركني .) (١)

فأتقن علم الشر بهذا الحرص ، وأحاط خبراً بما سيكون من فتن وسوء ونفاق ، حتى احتاج إلى علمه كبار الصحابة ، وطفق مثل عمر رضي الله عنه يسأله ويستشيره .

والمغزى الأكبر هنا يكمن في استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة ، وجوابه له ، وقبوله تعليمه علم الشر .

لم يقل له : اننا في خير ، ونسير من نصر إلى نصر ، فاصرف عنك الهواجس ، بل اجابه وأعلمه .

وانما نستمد نحن مسوغات تطرق بحوث فقه الدعوة لعلم الفتن والقواصم ، وما ينجي منها من الانوار والعواصم ، من

---

(١) صحيح البخاري ٩/٦٥ .

مواطأة النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة ، وتزويده له بما اراد .

نتعلم علم الشر كي نراه ونميزه قبل ان يغزونا .

ففي الزمن النبوي الكريم لم تكن هناك فتنة عارمة غير فتنة النفاق التي تتابعت آيات القرآن تجزم انها غير ضارة مسيرة الاسلام ، فكان الصحابة يواجهونها وهم على يقين تام من التغلب عليها ، يرونها شوكة في الطريق ليس غير .

لكن من شأن الجماعات العاملة ان يكون فيها خلاف في وجهات النظر واجتهاد متباين ، وان يندس فيها الضعيف الطامع ، والعدو المخرب ، فأراد حذيفة ان يحتاط ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم احتياطه ، فحدثه وشرح له ، لننقل نحن لدعاة الإسلام اليوم حديثه ، وحديث من شرح حديثه من فقهاء العمل ، ونتأمل فيما تحقق منه ووعته الامة تجربة من تجاربها ، فنقيس عليه ، ونستخلص منه العبر .

• قافلة السكينة تتهادى

ومن طبيعة انوار الفطنة انها مستمرة الاشعاع ، ولذلك نرى نور الاقلال من الكلام يرسل حزمة ضوء هادية اخرى تستهل بسبب ثان يدعو عمر بن عبد العزيز إلى السكوت ، فيقول :

(اني لادع كثيراً من الكلام مخافة المباهاة .) [1]

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٦٨ .

وهذا من اخفى الابواب التي يقتحم منها الشيطان على الداعية ، اذ تأتيه بعض البلاغة ، سليقة او تكلفاً وتصنعاً ، فتعجبه ، فيقولها من غير نية تعليم او نصح ، فلا يبارك الله بها ، ولا يأبه اصحابه لها بالاً ، فيتعصب لها ، ويجد في قلبه شيئاً تجاههم يضعف مشاعره الاخوية .

* وتظل مبررات الصمت الاخرى من بعد هذا تستجلب لها خياراً آخرين ، كما استجلبت المهلب وبشراً الحافي ، فيقول التابعي الكبير عطاء بن أبي رباح :

(ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا ثلاثاً :

كتاب الله ان يتلوه .
او أمر بمعروف ، او نهي عن منكر .
وان ينطق بحاجته التي لا بد منها .)

* ويضرب الحسن البصري — اذ يختار لنفسه الصمت — مثلاً للمفكر والمهذار يقول فيه :

(كانوا يقولون : ان لسان الحكيم من وراء قلبه ، فاذا اراد ان يقول : يرجع إلى قلبه ، فان كان له : قال ، وان كان عليه : امسك . وان الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى القلب ، فما أتى على لسانه تكلم به .) (١)

---

(١) الزهد لأبن المبارك /١٣١ .

* ويتولى علم السير تعريفنا بحكيم من هؤلاء الذين عناهم الحسن ، يعرض كلامه على قلبه ، فلا ينطق قبل ان يعد لنفسه جواباً .

اسمه : حاتم الاصم . زاهد قديم رأوه قليل الكلام ، فسألوه ، فقال :

(اني لا أحب ان اتكلم كلمة قبل أن أعد جوابها لله ، فاذا قال الله تعالى لي يوم القيامة : لم قلت كذا ؟ قلت : يا رب : لكذا .)[1]

* وعد الفضيل بن عياض كثرة الكلام خصلة من ثلاث خصال تقسي القلب ، وزاد فجعله مرة أخرى علامة من علامات النفاق اذا اقترن بقلة العمل ، فقال :

(المؤمن قليل الكلام كثير العمل ، والمنافق كثير الكلام قليل العمل) .

فطلب من حملة القرآن ، من أجل ذلك ، انيقفلوا افواههم الا من حديث خير ، فان :

(حامل القرآن حامل راية الإسلام ، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو ، ولا أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو .)

وليس أوعظ من أن يتصور احدنا نفسه مع اولئك اللاغبن المازحين من طلبة الحديث المخالفين لاعراف شيوخهم ،

(١) تاريخ بغداد ٨/٢٤٥ .

والفضيل يشتاط غضباً وينادي :

(مهلاً يا ورثة الانبياء . مهلاً يا ورثة الانبياء ، انكم أئمة يقتدى بكم .)

وانها لحقيقة يذكرنا بها الفضيل يجب أن لا تغيب عن بالنا .

ان مجرد حملنا للقرآن ، وطلبنا للحديث ، يضعنا في مقام القدوة والامامة ، ولا بد من وفاء حق هذا المقام .

* ويمر بنا طريق الصمت على آخر من الزهاد اسمه : داود الطائي ، زاد فاشترى من الناس بصمته شهادة خير تنطق يوم يسأله الله ، سلمه اياها ابن السماك يوم موته ، في وقفة على قبره ، حين فرغوا من دفنه ، فناداه امام الجمع المحتشد :

(يا داود :

كنت تسهر ليلك اذ الناس ينامون .

وكنت تربح اذ الناس يخسرون .

وكنت تسلم اذ الناس يخوضون .) [1]

فاستغفر له من حضر ، فهي في يمينه حجة يوم اللقاء ، وهي في الكتاب موعظة لاولي الالباب تحركهم إلى شراء السلامة من وريث لابن السماك .

* وعلى درب الصمت نفسه سار الجواليقي اللغوي ،

---

(١) تاريخ بغداد ٣٥٥/٨ .

صاحب اعراب القرآن ، وأحد اعيان ثقات فقهاء الحنابلة ببغداء ، فكان :

(طويل الصمت ، لا يقول الشيء الا بعد التحقيق والفكر الطويل .) [1]

* صمت السندان !

*** وتلاه الشيخ العارف عبد القادر الكيلاني ، قدوة الحنابلة بالعراق في القرن السادس ، والمربي المستدرك ، فقد عرف خبر من تقدمه ، ورأى أثر منقبتهم ، ثم التفت فرأى واقعاً يعبث فيه اللهو فساداً ، وبقايا أنصار البدع البويهية وفلول المعتزلة تتربص لاغتنام فرصة عودة إلى التسلط ، فصار يركز في تربيته للألوف التي تحضر مواعظه على ضرورة العمل الصامت .**

(اريد منكم أعمالاً بلا كلام .

العارف العامل لوجه الله سندان يدق عليه وهو لا ينطق .

أرض يمشي عليها وتغير وتبدل وهو أخرس) [2] .

هكذا ، كالأرض المعطاءة الخيرة هو الداعية ، تخضر ، ويعلو نباتها ويحصد ، فينفع الناس ، منهم الشكور ومنهم الكفور ، وهي ساكنة راضية .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/٢٠٥ .

(٢) الفتح الرباني /٤٦/٣٨ .

وكسندان الحداد ، كتلة صلب ، تنزل عليه المطرقة مرة بعد مرة ، شديدة موجعة ، وهو هادىء ، قانع بما يحمل للناس من خير ونفع .

أو : هو كغلام الطبيب جالينوس ، فقد كان جالينوس لا يعلم أحداً ، ولا يوظف مساعداً ، خوفاً من شيوع أسرار طبه ، فتظاهر غلام بالتخارس والسذاجة ، فقبله جالينوس واختاره مساعداً ، حتى حفظ علمه على غفلة من استاذه ، فنطق .

(أما سمعت بغلام جالينوس الحكيم كيف تخارس وتباله وتساكت حتى حفظ كل علم عنده ؟) [1] .

وكذلك العلوم والحكم ، تتعزز وتتأبى ، تريد من يتملق لها بالوداعة .

* فقارن بين أرض صامتة ، وسندان قانع صابر ، وبين صوت أزعج الأسد ، فارسل كليلة ودمنة يستجليان الخبر ، فوجداه طبلاً معلقاً في شجرة تحرك الريح غصناً فيقرعه ، فشقاه بأظافرهما ، فنام ملك الغابة مستريحاً ! !

* وليكن شعارك ان : لا لغو ، ولا أصوات ، بل استمتاع بأضواء بعد أضواء .

فالتفت يميناً الآن ، تجد مصباح :

---

(١) الفتح الرباني : ٤٦ / ٣٨ .

● النور الحادي عشر ، يلمع بفضائل :

* الامساك عن الجـــدل

ويقال له أيضاً : المراء ، وهو من لوازم اقلال الكلام ونتائجه ، ومن مكملاته التي تتم زينه .

فالجدل خلق رديء كثير السوء ، وتتجسم آثاره في الجماعات بشكل أبرز مما يلحق الأفراد منه ، فان الفرد قد لا يتجاوز أن يجد ضيقاً في صدره اذا تجادل مع صاحب له بمعزل وعلى انفراد ، ولكن الجماعة التي يتجادل فيها اثنان ، على مسمع من البقية ، تحرم من الخير المقترب منها ، ولو لم تتعدد فيها جهات الجدل واعداد المتجادلين ، كأن من طبيعة الخير ان يجفل من قليل الصخب ، ويأبى الدخول على قوم لا يستقبلونه بسكون ، ولو كانوا صالحين .

ففي صحيح البخاري :

(ان رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : اني خرجت لاخبركم بليلة القدر ، وانه تلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى ان يكون خيراً لكم . التمسوها في التسع والسبع والخمس)[١] .

والملاحاة : هي المنازعة والمخاصمة التي تتضمن جدلاً ، وفي صحيح مسلم انهما كانا : (يحتقان) ، أي يدعي كل

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٠ .

منهما أنه المحق دون صاحبه .

وتعبيره ﷺ بعسى : من باب التأويل بالمستحب ، أو إشارة إلى ما سيكون من زيادة بذل المجهود في التماسها ، وإلا فان في الجزم بتعيين ليلة القدر من الخير للأمة الاسلامية في جميع أجيالها ما هو ظاهر لمن عرف قيمة الدعاء .

ولمثل هذا السلب جعله التابعي مسلم بن يسار جهلاً يجد الشيطان خلاله مجالاً ، فقال :

(اياكم والمراء ، فانها ساعة جهل العالم ، وبها يبتغي الشيطان زلته .)

بل هي اكثر من زلة واكثر من سوء ، فان الامام الاوزاعي قد احصاها فوجدها خمس زلات قبيحات تزيد طرد الخير قبحاً ، فقال :

(دع من الجدال ما :
يفتن القلب .
وينبت الضغينة .
ويجفي القلب .
ويرق الورع في المنطق .
والفعل .)

وهذا إثقال واضح لكفة الشمال من ميزان المتجادل ينبي عن خسارته والعياذ بالله ، خسارة يصعب معها الرجاء اذا

اقترنت بلجاجة واعجاب ، اذ تم حينذاك ، كما رآها التابعي بلال بن سعد فقال :

(اذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته .)

قول خبير ليس بكاذب ولا مبالغ .

والمخرج من ذلك سهل بسيط ليس بالصعب عند الموفق ، لا يستدعي اكثر من اغلاق وفتح .

يغلق ويقفل باب الجدل ، ويرمي بالمفتاح بعيداً . ثم في حركة سريعة يفتح باب العمل ، ليجد نفسه في اطلالة بديعة تأخذ بمجامع فؤاده على الوان متموجة تفيض من مشكاة :

● النور الثاني عشر ، وتنبعث بشعاع :
المبالغة في الصدق يوم الفتنة

فانه لا طريق أقرب من الصدق .

وحين تاب الله على كعب بن مالك رضي الله عنه لما افتتن فتخلف في الثلاثة الذين خلفوا ، قال :

(يا رسول الله : ان الله انما نجاني بالصدق ، وان من توبتي ان لا أحدث إلا صدقا ما بقيت .) [1]

---

(١) صحيح البخاري ٦/٨

فغدا الصدق من يوم اختاره كعب سنة لتوبة المفتتنين ، وكفاية لاحتياط الحذرين .

صدقاً يتجاوز مقداره العرفي الذي تدين بفضيلته كل الامم حين يتعامل افرادها في اسواقهم وزيجاتهم ، ويتعداه ، ليكون نوعاً من الحساسية الايمانية تستشعر الرقابة الربانية ، حين ترسل الفتن المتربصة لغزونا من يوسوس في صدورنا ويشجعنا على الانتصار لنفوسنا عند الخلاف بزيادة كلمة نتأول في اضافتها انها تفسر كلام المخالف ، او بحذف كلمة بتأويل مقارب ، أو باختيار لهجة لرواية الكلام تصرفه من مقاصده الظاهرة وتحمله ما لا يحتمل من المعاني المعيبة .

فان انضاف إلى مثل هذه الكذبة في الزيادة ، أو النقصان ، أو لهجة الرواية ، نشر لها في المجالس ، وسفر رسل صاحبها بها في الأقطار والأمصار : خيف على صاحبها ان يكون ذلك الرجل الذي رآه النبي ﷺ في رؤياه المرعبة المخيفة لما أتاه آتيان فانطلقا به ، فمرا به :

(على رجل مستلق لقفاه ، واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، واذا هو يأتي أحد شقي وجهه ، فيشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى .

قال : قلت : سبحان الله ! ما هذا) ؟

قــالا :

(انه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق) [1] .

ورسول الله ﷺ لا يرى إلا حقاً .

فليحذر صاحب الهوى ان يكذب كذبة ينصر بها هواه إلى حين سريع الزوال ، فتبلغ كذبته الآفاق ، ويحملها البريد ، وتنزل بها حروف المطابع ، فتزل بها أقدام ، فيفعل الزبانية بشدقة ومنخره وعينه مثل ما فعلوا بهذا الذي رآه النبي ﷺ .

ولمثل هذا كان عقلاء الناس دوماً يرون للصدق مكانة ارفع من مكانته التي يراها له العامة ، مثل اياس بن معاوية بن قرة الذي هو من سادة الثقات ودهاة العلماء ، فانه كان يقول :

(امتحنت خصال الرجال ، فوجدت اشرفها : صدق اللسان) [2] .

وان صدقاً في مساومة على شراء طعام في سوق لهو أهون من ان يحفل به هذا النابغة هذا الاحتفال ، لكنه كان يريد معنى وراء ذلك ، يعرفه الرجال .

صدقاً عرفه الحافظ المحدث اسحاق بن راهويه الحنظلي ،

---

(١) صحيح البخاري ٩ / ٥٦ .

(٢) تهذيب التهذيب ١/٣٩١ .

فتناوله ، فأدى به إلى الامامة وسيادة الآفاق ، فقال تلميذه الامام الدارمي :

(ساد اسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه) [1] .

وثقات المحدثين الصادقين من أهل زمانه كثير عددهم ألوف بعد ألوف ، لكنها المبالغة في الصدق سودت اسحاق عليهم .

والقلب الحي يرى في توبة كعب وطريق اسحاق مواعظ ، ودعوة للاقتداء .

وللمفتون ما يختار .

(١) طبقات الشافعية ٨٦/٢ .

النّجوى ١

١٥ طَريق البَطالة

رائع هو فقه الفاروق حقاً .

فالحكم العمرية ، في إجمال قواعد الايمان وموازين الاسلام وأصول الدعوة ، هي أوضح وأحسن تفسير شامل للقرآن الكريم ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشعر الفاحص لاقواله رضي الله عنه انها نتاج تأمل ، صنف عمر خلاله النصوص التفصيلية وجزئيات الشريعة والعقيدة إلى مجاميع متقاربة في معانيها وعللها ، والحق كل حكم بنظيره وشبهه ، ثم رأى من بعد القاسم المشترك الذي ينظم كل مجموعة ، فاستل من ذاك القاسم قاعدة أو ميزاناً او اصلاً .

انه نمط من الاجتهاد الاستنباطي الذي لم يفصح عن خطواته عمر ، ولم يسجل مراحله أحد ، ولكن من يعاني التفقه يدرك انه من المفترضات البديهية التي كانت سابقة حتماً لنطق الراشد

الثاني رضي الله عنه بما نطق ، فان الحكمة تنقدح في قلبه في ساعة تفكر ، فتظل تتقلب وتجيش في صدره مدة ، حتى تصادف ذروة خشوع في احدى صلواته ، فيرجح عنده صوابها مع ذاك التصاعد ، فيدعها بعد انفلاته من صلاته موعظة سائرة على مدى الاجيال لاولي الاعتبار .

كل فقهه وفعله كان كذلك رضي الله عنه ، حتى انه كان يخطط لجيوش الفتوح وهو في صلاته ، كما اخبر عن نفسه .

ولذلك كانت الحكمة العمرية مرقاة المتفقة . ولذلك كان السابق .

ولذلك أيضاً ... كان المنتصر ...

● الفتن بقية جاهلية

ومقالته :

(انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة : اذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية .)

مقالة جمعت كل ضروب فقهه ذاك ، فهي قاعدة ايمانية ان شئت ، وهي ميزان ، كما انها اصل من اصول الدعوة اصيل .

لا بد من معرفة الجاهلية .

يسميها الجاهلية متابعة للقرآن ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي الشر كذلك ، والشرك ، صغيراً كان أم كبيراً ،

وحكم الطاغوت . وهي المعاصي غير المكفرة صاحبها أيضاً .

كل ذلك يعنيه عمر .

ويشهد لنا في أنها المعاصي أيضاً ، لممها وكبائرها ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي ذر حين عيّر بلالاً بأمه السوداء :

(انك امرؤ فيك جاهلية)

فسماها جاهلية ، لأنها بقية باقية من خلق الجاهلية وان لم تنقل أبا ذر وراء حائط الاسلام .

قال البخاري :

(المعاصي من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها الا بالشرك ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : انك امرؤ فيك جاهلية .) [1]

قال ابن حجر :

(أي ان كل معصية تؤخذ من ترك واجب او فعل محرم فهي من اخلاق الجاهلية .) [2]

وهكذا توافق رأي عمر مع فعل حذيفة بن اليمان في سؤاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر والفتن مما عرفناه عنه حين

---

(١) صحيح البخاري ١٥/١ .
(٢) فتح الباري ٩٢/١ .

رؤيتنا الماضية لدور الصخب في اجلاء الخير . والفتنة معصية ، فهي جاهلية وان لم تسحب صفة الكفر على مقارفها ، ولا بد من معرفتنا بها ، وتفقيه الدعاة بأوصافها وعلاجها ، والا نقض الاسلام عروة بعد عروة .

بل الحقيقة ان التفرق والخلاف كان من ابرز ظواهر جاهلية العرب ، وأولى المعاصي بتطرق فقه الدعوة لها .

وذلك مبرر جديد ، عُمَري النسبة ، يشجع بحوثنا على فضح أباطيل الفتن والمفتنين .

والفتن أنواع وضروب ، منها التي في العقيدة ، ومنها التي في التعامل والسلوك والحلال والحرام . ومنها الطفيفة ، ومنها الغليظة . ونحن نتعلم منها ها هنا فتن التعامل الجماعي التي تطرأ على المجموعة المتعاهدة على الدعوة إلى الله ، الساعية لاقامة حكم الله ، أو الحاكمة به .

يجب أن نعرف جاهلية الخلاف وخلع الطاعة ونكث العهد والتخذيل ، والا نقضت وهدمت عرى الدعوة عروة أثر عروة وتقاعد الدعاة عن العمل فوجاً تلو فوج ، وارتفعت معاني الاخوة من ساحتهم .

قال ابن تيمية رحمه الله :

(وهو كما قال عمر . فان كمال الاسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله .

ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه ، ولا يكون عنده من الجهاد لاهله ما عند الخبير بهم ، ولهذا يوجد عند الخبير بالشر وأسبابه – اذا كان حسن القصد عنده – من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عنده غيره .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم ، لكمال معرفتهم بالخير والشر ، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر ، لما علموه من حسن حال الاسلام والايمان والعمل الصالح ، وقبح حال الكفر والمعاصي)[1] .

● وعي يفضح المخادع

ومن حكمة عمر في هذا الباب أيضاً قوله :

(لست بخب ، ولا يخدعني الخب .)

والخب ، بفتح الخاء وكسرها ، هو : المخادع الخبيث الذي يسعى بين الناس بالفساد .

وهذه الدعوة مباركة ، تربي ابناءها على أن لا يكونوا أخباباً ، بل تؤلف ارواحهم ، وتريهم أنوار الفطنة ، وتعلمهم النية الصالحة والقول الطيب ، وتحذرهم سهام الشيطان ، والتأويل المستدرج ، ثم توجه الرهط المخطىء منهم نحو تربية تستدرك .

---

(١) مجموع الفتاوي ٣٠١/١٠ .

ولكنها دعوة مفتحة الابواب ، قد يختلس الخب فرصة ، فيلج على حين غفلة من الحارس ، ويتخفى دهراً .

ولذلك وجب على هذه الدعوة المباركة أن تربي ابناءها أيضاً على اكتشاف مخادعة الخب ، كل خب ، وتصف لهم لحن قوله ، وظلمات دروبه ، وخروق استدلالاته .

(فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر ، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر ، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به) [1] .

قالها ابن تيمية ثانية .

ولقد كان الجدل ، والكذبة التي تطوف الآفاق ، من آخر اساليب الاخباب التي فضحتها انوارنا ، وما زالت الفطنة ، العمرية السمت ، تتوهج ، لتؤنس مسيرتك بلألأة ألوان طيف :

● النور الثالث عشر ، من شمس :

* ترك النجوى

فان مجالس المؤمنين لم تعرف الا زيادة الايمان لها هدفاً ، وكان ابن رواحة يأخذ بيد أبي الدرداء ، رضي الله عنهما ، ويقول : (تعال نؤمن ساعة) [2] ، فيتذاكران امر الايمان ، ويتعرفان

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٣٠٢ .

(٢) كتاب الزهد لأبن المبارك /٤٩٠ .

على مسالك التوبة ، ويتآمران بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس .

وكان عمر بن عبد العزيز يأمر أبا بكر بن عمرو بن حزم ، رحمهما الله ، بالجلوس للتعليم ، ويقول له :

(ولتجلسوا ، حتى يعلم من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سراً .) [1]

وجعل أحمد بن أبي الحواري الدمشقي المجالسة دواء قسوة القلب ، فقال :

(اذا رأيت من قلبك قسوة فجالس الذاكرين ، واصحب الزاهدين .)

فمجالس المؤمن عزيزة ، ولا ينبغي له أن يجلس الا بنية ان يؤمن ساعة ثم يقوم ، متداولاً آية او حديثاً او وصية حكيم من صالح المؤمنين ، وليس من حقه ان يميل بالجالسين معه إلى نقد اجتهادات قادته بما يهاب أن يذكره لهم صريحاً .

وكذلك غدوات المؤمنين وروحاتهم ، فأنها ثمينة مثل مجالسهم ، ومن لم يجد عند الذين حوله فقهاً فان عليه ان يسيح طلباً له ، كما كان التابعي علقمة بن قيس النخعي الكوفي يقول لاصحابه :

(امشوا بنا نزدد ايماناً ، يعني يتفقهون .)

---

(١) صحيح البخاري ١/٣٥ .

او يذهب إلى من يرجو ان يلين له قلبه ، اذا ألهاه الصفق بالاسواق واحاديث الرواتب وفرق الاسعار ، كما كان التابعي ميمون بن مهران يذهب إلى سيد التابعين الحسن البصري ويطرق بابه ويقول له :

(يا أبا سعيد : قد آنست من قلبي غلاظة ، فاستلن لي منه) .

فان لم يجد الصاحب الجليس الصالح ، والمداوي الملين ، فان امامه خلوة ساعة تذيقه حقيقة اللذة ، فانه (ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل .) ، كما يقول التابعي مسلم بن يسار .

ثم أمامه المحراب ، يذكره به التابعي بكر بن عبد الله المزني ويتساءل :

(من مثلك يا ابن آدم ؟

خلي بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت على ربك ، ليس بينك وبينه حجّاب ولا ترجمان) .

● الاجتهاد لا ينمو في الجيوب

فأما منصف نفسه فيطلب ذلك ، من مجلس او رحلة او خلوة او لبث بمحراب ، يأنس بمخالطة من شاء من افراد جماعة الايمان ، أو يقتدي بما يروى له من فعل المهتدين .

وأما المشرف على ضلالة ، فانه يتوارى مع صحب له عن العيون ، ويكتم سره عن الجماعة ، ويبثه لمن يهواه ، فيؤز بعضهم الحمية النفسية في البعض الآخر ، فيكون حنق ، فتثبيط ، فتبرير لا يبرأ من تدليس ، فاذا هو افتتان .

تلك التي عرفها عمر بن عبد العزيز فقال :

(ما انتجى قوم في دينهم دون جماعتهم إلا كانوا على تأسيس ضلالة)[1] .

وهذه هي بداية كل بدعة في تاريخ المسلمين ، تبدأ بالنجوى ، ثم يكون الاستدراج .

فالنجوى دون الجماعة في المفاهيم التي هي من الدين ، أو في خلع الطاعة الشرعية التي هي من الدين أيضاً ، والتي بسببها سمي الخوارج الخالعين للطاعة : مبتدعة ، يقرن ذكرهم بالجهمية والمرجئة ، كل ذلك ضلالة داخلة في قول عمر .

ولا تغير النية الصالحة في طبيعة النجوى او تسحب عليها ذيل الصلاح تبعاً ، ولا إدعاء الاجتهاد وطلبه من خلالها ، فان الاجتهاد لا يترعرع سراً ، لاحتياجه دوماً إلى التقويم ، وإلى الشهادة له أو عليه من قبل الآخرين وليس يتاح ذلك في أجواء التناجي المتواري المستخفي الذي يشبه التهامس .

ولقد أظهرت لنا التجارب الكثيرة أن معظم التناجي يؤدي

(١) كتاب الزهد للامام أحمد /٢٩١ .

إلى الخروج ونكث البيعة ، ولا يتجاوز ان يكون مرحلة أولية للماشي في دروب الفتنة ، درى أو لم يدر ، ولا تتجاوز حجة المتناجي أن تكون هي نفسها حجة الخارج ، كلاهما يدعي أنه يريد مصلحة الاسلام ، وانه يمارس ضرباً من العبادة ، والخطأ يلفهما لفاً .

كل الخوارج مُخْطٍ في مقالته
وان تعبّد فيما قال واجتهدا

وتقريرات سيد قطب رحمه الله لمجالات النجوى المذمومة في القرآن الكريم تلتقي مع هذا الذي نقول ، ويذهب لابعد ممن يتوهم ان الله تعالى قد ذم النجوى في حياة رسول الله ﷺ فقط . فهو يعقب على الآية الكريمة .

(لا خير في كثير من نجواهم ، إلا من أمر بصدقة ، أو معروف ، أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) .

فيقول :

(لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى ، وهي ان تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة ، لتبيت امراً . وكان اتجاه التربية الإسلامية ، واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل انسان بمشكلته او بموضوعه ، فيعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم ، مسارة ان كان امراً شخصياً لا

يريد ان يشيع عنه في الناس . او مساءلة علنية ان كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة ، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص .

والحكمة في هذه الخطة ، هو الا تتكون جيوب في الجماعة المسلمة ، والا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها ، أو بأفكارها واتجاهاتها ، والا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمراً بليل ، وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل ، وتواجه عن الجماعة وتستخفي به عن أعينها ، وان كانت لا تختفي به عن الله ، وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضي من القول .

وهذا الموضع احد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها .

ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة ، تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة ، وكان المجتمع المسلم كله مجتمعاً مفتوحاً ، تعرض مشكلاته — التي ليست بأسرار للقيادة في المعارك وغيرها ، والتي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب اصحابها ان تلوكها الالسن — عرضاً عاماً . وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعاً نظيفاً طلق الهواء ، لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره الا الذين يتآمرون عليه ، او على مبدأ من مبادئه — من المنافقين غالباً — وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع .

وهذه حقيقة تنفعنا . فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئاً

من هذه الظاهرة ، وأن يرجع افراده اليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر ، او بما يعرض لهم من خطط واتجاهات او مشكلات .) [1]

وهكذا يخرج الموفق من ضيق مجلس النجوى إلى رحاب التشاور الواسعة وبهجة الاصلاح بين الناس ، ابتغاء مرضاة الله ، والله نور السماوات والأرض ، فيجعل الله له نوراً جديداً ، يزيد قوة ابصاره ، ويشجعه على سرعة الفرار إلى الله ، فيمر في محاذاة مصباحه ، مصباح هذا النور الجديد ، ويلتفت اليه ليحصي فضل الله عليه ، فاذا هو :

* النور الرابع عشر ، المتدلي من ثريـــا :

* حمل القلب على استقباح الفتـــن

فان المرء مطالب بأن ينكر بقلبه كل أنواع الفتن ، وان يستشعر عيبها ، ولو لم يدخل طرفاً فيها ، فان الاستحسان يوشك أن يغري صاحبه بالولوج .

لذلك لا يعد احدنا بريئاً من هذه الفتن تمام البراءة الا بمثل هذا الاستقباح .

وقديماً أبى شريح القاضي ان يمزج نبله وفضله بشيء من

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٢٦ .

آثار الفتن ، فلبث تسع سنين كاملات معتزلاً فتنة القتال أيام أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً ليقاتل عنه ويحكم العراق باسمه ، كان شريح خلالهن : (لا يخبر ولا يستخبر .) ، مع ان ابن الزبير كان له من التأويل الصادق اكثر من غيره ، فقيل لشريح :

(قد سلمت !

قال : فكيف بالهوى)[1] .

وكان هواه مع ابن الزبير .

أي انه كان يتهم نفسه بعدم البراءة وان لم يشترك في قتال او يقف خطيباً مؤيداً ، لان قلبه كان يميل إلى ابن الزبير .

فاذا كان شأن مجرد الميل القلبي كذلك ، فمن باب أولى أن تكون موالاة أهل الفتنة ، والتصريح بالرضا عن فعلهم ، كالدخول في فتنتهم نفسها ، او منزلة قريبة من الدخول ، وان أبقى الراضي لنفسه صورة الوفاء بالبيعة ، ولم ينسب نفسه إلى جمهور المفتتنين .

وخلال سرد الامام احمد لاوصاف الزاهد وطبقات الزهاد وعظنا موعظة صريحة ، أحيا بها فقه الحسن البصري امام التابعين فروى استفتاء التابعي عبد الواحد بن زيد للحسن .

---

(١) طبقات أبن سعد ٦/١٤١ .

قال عبد الواحد :

(قلت للحسن : يا أبا سعيد : أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب ، إلا أنه عاون بلسانه ورضي بقلبه ! !

قال : يا ابن أخي : كم يد عقرت الناقة ؟

قلت : يد واحدة .

قال : أليس قد هلك القوم جميعاً برضاهم وتماليهم)[1] .

وابن المهلب هذا هو ابن المهلب بن أبي صفرة البطل مبيد الخوارج ، اعجبته نفسه ، وغره ما ورثه من جاه ابيه ، فعشق الرئاسة ، فأعلن الانفصال عن الدولة الاسلامية الفتية .

فالموالاة كالدخول ، ليس من فرق بينهما عند رأس فقهاء التابعين باحسان .

وهي كذلك عند الذين بعده ، فجعل بعضهم استئناس المرء وصحبته للمتخلقين بأخلاق المفتتنين مسوغاً لنا لتصنيفنا اياهم معهم . فقال :

- (دليل وحشتهم : انسهم بالمستوحشين .
- ودليل بطالتهم : صحبتهم للبطالين .
- ودليل تخليطهم : صحبتهم للمخلطين .)

---

(١) كتاب الزهد للأمام احمد /٢٨٩ .

ولعمرو الله ما تجنى ولا ظلم .

فالعمل الاسلامي رحب ، كله أجر ومثوبة ونور ، ولمثله يبتسم العاقل مستبشراً ، فان استوحش بعض من يدعيه ، وعبس وبسر ، ثم استأنس بوحشة آخر : فانه شريكه دون ريب .

وهذه الفتن كلها بطالة وسلبيات ، وقعود عن العمل وإنزواء ، وإنحدار تدريجي نحو الركود ، ثم سبات وخطيط ، وصاحب أصحابها منهم دون ريب .

وهي كلها استعارات ، وترقيعات ، ومزج للباطل بالحق ، وتدخين وتخليط ، ومن رضي ان يقعد بباب دكان صاحبه الحداد ، لتطربه الأنغام النشاز التي تبعثها مطارق الحدادين ، فلا يعجبن ان ظنه الناس حداداً .

اللهب البارد ١٦

مهما عصفت الفتن وآذت ، فان إجالة سريعة لابصارنا في محيط هذا الجيل الموفق من الدعاة تترك بسرعة أثراً من السكينة في قلوبنا تصغر أشباح المفتتنين فيها ، بل تدعهـا بدداً ، حتى تخلو من الرهبة لهم تماماً .

هذا ما كان مراراً ، كلما شيكت الدعوة بشوكة من صاحب هوى أو عاشق رياسة ، وهذا ما سيكون ويستمر ، ما بقيت هذه المعادن البيضاء النقية التي تشتد غيرتها على دعوتها ، فتبادر إلى انكار الفتنة على أهلها ، وتتناوش الاستدراك من قريب ، من حيث يؤشر لها المخضرمون نقاط تواجده على خارطة التجارب العملية لتاريخ العمل الاسلامي ، القديم والحاضر .

فهذه الخارطة التي لخصت نتائج المسح الشامل لآثار الخطط المرحلية ، وأوجزت الخبر اليقين المعلل لمصائر من التحق بالركب

على مدار السنين فثبت ونجح ، أو غوى فانكبح ، هي من أثمن ما يحوزه الداعية المتفقة طالب الوعي ، ومن أبرك العوامل التي تضاعف شدة غيرته ، وتميزه عن المسلم الفرد الذي يلتمس المصالح للاسلام من خلال دائرته الضيقة وتجربته المحدودة .

• مجالس الساعة الايمانية

ولقد اقترنت اشارات الخطر الحمراء التي رسمتها التجربة على الطريق الانتجاني القائد إلى مفاوز البطالة باشارات سلامة واضحات تبرز أهمية المجلس والمعية والخطوات المشتركة إلى مناجم الخير .

علامات عتيدة وضعها الصحابة والتابعون على خارطـة التجريب القيمة .

• اجلس بنا نؤمن ساعة .

• تعال نؤمن ساعة .

• امشوا بنا نزدد ايماناً .

• اجلسوا ، حتى يعلم من لا يعلم .

• آنست غلظة ، فألن لي قلبي .

• إلى مناجاة في المحراب .

لافتات تطلب منك الدخول .

أو هي هتافات .

سمها كيفما شئت ، لكنها قاعدة في العمل التربوي غنية عن الاسم ، تفرض نفسها فرضاً على أجيال السائرين في دروب تأليف الارواح ، تذكرهم بأن لزوم مجتمعنا الخاص ، والعيش في أجواء الدعاة الجماعية يكفلان حلولاً أكيدة للكثير من مشاكل العمل ، ابتداء بالفتور الطارىء ، وانتهاء بالفتن .

فالداعية سائح جوال ، يشغف ارتياد الربوع الخالية حباً ، لكنه يجب أن يأوي إلى أجواء الاخاء الايماني وركنها الشديد ، ليستروح قلبه ، ويستشعر السكينة في ظلال جماعية ، كما تعود الاطيار إلى وكناتها ومحط سربها مع كل مغيب لتسكن إلى أشكالها .

لذلك يجب أن يسود الجماعة عرف بالغ الحساسية يستنكر التناجي ، ويتعاهد (مجالس الساعة الايمانية) بالادامة والاحياء ، وتعميرها بالفوائد المناسبة لكل مستوى ، بحيث يجد فيها القديم المتوغل نوعاً من الانس والسلوة يقارب ما يجده الناشيء المبتدىء

مجالسهم مثـــل الرياض انيقـــة
لقد طاب منها الريح واللون والطعم

وعلى مجالس الساعة الايمانية هذه تعول الخطة التربوية ، وعلى سمتها الجدي النظامي يجب أن نحافظ ، وأن لا نسمح لذي الاجتهاد الغريب أو المخالف المنازع في الرئاسة باستغلالها لمساررة ونجو وتثبيط .

• هجر الكلام الرديء :

وقد أرتنا الأيام أن مجرد مثل هذا الكلام في ذم النجوى لا يقيد المخالف عن الاسترسال في هواه ومحاولة الخلوة مع العاملين ليطلب نصرتهم له ، ولكن العنصر الفعّال في إبطال النجوات وتضييق المجال عليها انما هو الداعية الثقة النبه ، بأن يقوم بدور السكوت عن التكلم إلى غيره وعدم إشاعة ما نوجي به ، الا يعلق المعنى المعيب في قلب ساذج ، أو جديد لم يخبر الأمور بعد .

وهي وصية سفيان الثوري في التحذير من رواية المعاني المبتدعة ولو على سبيل الأخبار اذا لم يعلمها أحد ، اذ أرشد إلى وجوب كبتها وحصرها فقال :

(من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه ، لا يلقيها في قلوبهم) .

والبدع بدع عمل كما هي بدع اعتقاد ، وكلام أهل الفتن يختلط بشيء كثير من هذه البدع التي حذر منها الثوري ، وأسلوبهم بحد ذاته بدعة غليظة .

فمن سمع أيام الفتن نوع تشكيك أو اتهام أو طعن يفوه به عاص ، وعلم أن غيره من الثقات البعيدين عن العصيان لم يسمعوا بهذا التشكيك وانهم في عافية منه ، فليستره عنهم ، فانه لا يدري ما عسى أن يعلق بقلوب بعضهم من هذا التشكيك باغراء الشيطان ، وليوصل الخبر إلى أميره فحسب . أما اخوانه

فيفتح لهم نافذة يستمتعون من خلالها بالنظر إلى بزوغ فجر جديد يبشر بقرب انتشار :

● النور الخامس عشر ، الذي يوقده :

ـ علمك بأن الله لا يصلح عمل المفسدين :

كما كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى أحد ولاته وصية جامعة من دون تطويل فقال :

(أما بعد :

فاعمل عمل رجل يعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين)[1].

وهي جملة واحدة موجزة جمعت الخير من أطرافه ، ووضعتك أمام حقيقة فاصلة .

فاذا كان أمر الله هو النافذ في هذه الحياة ، وقد كتب الله على نفسه انه لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يحب كل خوان أثيم ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، فلمَ خداع النفس ؟ ولمَ تمنيتها بانتصار مبني على أوليات ومقدمات فاسدة بينة العوار ، صاحبها أدرى الناس باعوجاجها ؟

ان هذا الاستشعار بحتمية قدر الله الذي وعد به ، انما هو نور ساطع يخفف جرأة الجريء على مقارفة الافتتان إذا تذكر

---

(١) تاريخ الطبري ٥٦٧/٦ .

به حين يجالسه داعية فتنة في ظلمة يسوغ له المشاركة فيما هو فيه ، والمؤمن لا يزني ساعة يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق وهو مؤمن ، وكذلك لا ينكث بيعة وهو مؤمن . كما أنه قد يقف على باب الاثم فيذكره مذكر بالله فيرجع ، كما في حديث البخاري عن المرأة التي أراد ابن عمها السوء معها فذكرته بالله ، فعف بعدما أوشك وشارف ، فوهبه الله بعد دهر استجابة منه لدعائه ، ورفع الصخرة التي سدت فتحة الكهف عليه .

وهكذا كهوف التخذيل والأرجاف ، قد يجد المرء نفسه حبيساً فيها على غفلة من نفسه ، فيدعو بدعاء عمار : نعوذ بالله من الفتن . فتتدحرج صخرة الأوهام عن باب سجنه ، ويتنفس الصعداء ، ويعود إلى عرصات العمل الفسيحة .

وهذا الباب من أبواب التقوى في الاستسلام لقدر الله بلزوم أمر الله ونهيه ، ودلالة ما يحبه الله وما يكرهه ، جد مفيد في اتقاء الخلاف خاصة ، والعزوف عن التفكير بكيد وخديعة .

وضمانته العامة : الاسراع إلى الاصلاح الذي أرشدك اليه سفيان بن عيينة حين قال :

(من أصلح ما بينه وبين الله : أصلح الله ما بينه وبين الناس .) [1]

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٧ .

فصلح المرء مع الله ، بحيث لا يكون مؤذناً بحرب منه ، ولا مكروهاً عنده : طريق لصلحه مع الناس وصلح الناس معه ، في رحاب أخوية ، بلا خلاف ، ولا تطاول ، ولا تحديات .

كما أن صلحه هذا مع الله هو من باب ثان بداية توارد الخواطر الايجابية على قلبه ، وتزاحم الافكار الجدية فيه ، التي تخرجه من سكون الكسل ، وايثار الدعة ، إلى طلب لذة التضحية وركوب المتاعب ، فتتجدد له حالة كان هارون الرشيد ، الخليفة الحاج الغازي ، على مثلها ، فاستوقف جمالها كلثوم ابن عمرو العتابي ، حفيد صاحب المعلقة سميه ، فقال يمدحه :

مستنبِط عزَمات القلب من فِكَر
ما بينهن وبين الله معمور

فعزمة القلب الخيرة بنت فكرة تستمد جرأتها من العمران الذي شيده صاحبها بينه وبين الله .

عمران بمعاني التوحيد لله ، والتوكل عليه ، والاخبات اليه ، والخوف منه ، ورجاء نيل رضوانه .

وعمران آخر لدور الأنصار الجدد ، في صحراء جاهلية الكفر ، أو صحراء جاهلية المعاصي ، بتربيته لهم ، وإسكانه إياهم فيها ليوقدوا اذا طال على القوافل مداها ، فتستأنس بنارهم حيناً ، وتزول وحشتها ، وتلبث سائرة في صحبتها ، حتى يبدو لها :

● النور السادس عشر ، الهادي إلى :

*** ادانة السوء الظاهر .**

فان العمل الخاطىء لا يصح معه ادعاء الصلاح ، ولا تبرره النية الحسنة ، والضرر يزال ويتجنب ولو لم يقصد فاعله الاساءة وكل ناو فله ما نوى .

فمن الدعاة أناس يريدون الخير للدعوة ، لكنهم ورثوا سذاجة أصحاب السفينة الذين قص علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال ، كما في لفظ البخاري :

(مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة ، فصار بعضهم في أسفلها ، وصار بعضهم في أعلاها ، فكان الذي بأسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأساً ، فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا : مالك ؟ قال : تأذيتم بي ، ولا بد لي من الماء !

فان أخذوا على يديه : أنجوه ونجوا أنفسهم ، وان تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم) [1] .

وفي لفظ ابن المبارك ان النعمان بن بشير رضي الله عنه كان اذا أراد سرد هذا الحديث يقول قبله :

---

(١) صحيح البخاري ٢/٢٢٥ .

(يا ايها الناس : خذوا على أيدي سفهائكم .)

فاذا سرده عاد فقال :

(خذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا .)[1]

ولقد صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، وصدق النعمان ، فكم من مخلص جاهل يسلك سبيل صاحب الفأس هذا في سفينة الدعوة ؟

ذاك حمل فأساً .. وصاحبنا يحمل اللسان .

انه يهدم ويشكك ويثبط ويفرق ويعصي ، كل ذلك بدعاوى حسن النية والنقد الذاتي .

انه يجهل ان القانون على السفينة انما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه ، بل على الشروع فيه ، بل على توجيه النية اليه ، فلا حرية هنا في عمل يفسد السفينة ما دامت ملجحجة في بحرها ، سائرة إلى غايتها .

ان كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الارضي ، بل معناها البحري ، فهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها الا معنى (أوسع قبر) .. في قاع المحيط المظلم ، لو ترك هذا الخرق الصغير وشأنه .

وكذا حسن النية . انه لا يحمل عندنا في علاقاتنا معناه

---

(١) كتاب الزهد لأبن المبارك /٤٧٥ .

الاخروي الذي يحاسب الله بموجبه عباده ، فالافساد واحد حتّى وان كان بنية حسنة .

أفما رأيت حالة هذه الطائفة التي في (الاسفل) تعمل لرحمة من هم في (الاعلى) ؟

انها قصة القواعد الساذجة مع القيادات العاملة .
عاطفة ملتهبة .. لكنها باردة .
ومشاعر صادقة .. لكنها كاذبة .
ورحمة خالصة .. لكنها مهلكة .
انهم المصلحون اصلاحاً مخروقاً . (١)

● إمامة الدعوة كإمامة الصلاة :

ان تكوين جبهات المعارضة لا تعرفها أخلاق الاسلام ، ولا يستزل الشيطان بهذه الذريعة الا صاحب الفقه الضعيف .

ونهج اشاعة النقد نهج باطل ، لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا قاله أحد من سلف الامة ولا أئمتها ، ولا سلكه داعية ذكر عنه الثبات على العمل بعد اتيانه .

انه طريق إلى الفرقة والتباغض .

وأن العمل الاسلامي قائم ملى معنى عبادي نحتسب فيه الاجر عند الله كقيام المصلين مع امامهم في الصلاة يحتسبون فيه الاجر

---

(١) اقتباسات من وحي القلم ٣/٧ .

ويؤدون به عبادة مفروضة ، يحرصون على أجادة الأمام لامامته ويعينونه على ذلك ، فاذا اخطأ نبهوه برفق يصلح ما أخطأ فيه ، لا تشهير معه .

وقيادة الدعوات ليست كراسي حكم يتنازع عليها كما تتنازع الاحزاب الارضية ، ولكنها مسؤولية ضخمة ، وامامة في دين ، كالامامة في الصلاة .

وللشيطان مداخل كثيرة جداً ودقيقة للغاية ، قد يقع فيها الداعية ، فيختلط عليه التناصح الصافي مع التنابذ العدائي ، والحرص على الدعوة مع الحرص على أهواء النفس ، إلى غير ذلك من الاختلاطات التي يعرفها من أطال التأمل في دقائق النفوس وخلجات الافئدة ، والعاصم من كل ذلك : الالتزام بقواعد العمل الجماعي ، وأن يكون النصح للمنصوح في السر أحب اليه في العلن ، وأن تكون استقامة المسؤول أحب اليه من وقوعه في الخطأ ، وأن يود لو أن غير كفاه مؤونة النصح ، فهذه ونحوها من علامات نجاة الداعية من التورط في حبائل الشيطان .

معاني أدركها السلف ، فانه لما روي قول شداد بن أوس رضي الله عنه : (يا بقايا العرب : ان اخوف ما أخاف عليكم : الرياء ، والشهوة الخفية .) :

(قيل لابي دواد السجستاني : ما الشهوة الخفية ؟

قال : حب الرياسة .)

فقال ابن تيمية معقباً :

(فهي خفية ، تخفى عن الناس ، وكثيراً ما تخفى على صاحبها .) [1]

فأحدهم ينازع ويخاصم تعبداً وتقرباً إلى الله في ظنه ، ولا يدري أن حسن مقصده لا يغير من حقيقة التنازع شيئاً .

● سيماء السوء واضحة

فاذا كانت الجماعة مطالبة بازالة الضرر الذي يقع من قبل المخلصين أحياناً على سذاجة ، أو بشهوة خفية ، فمن باب آكد أن تسارع إلى إزالة ضرر من تسوقهم الشهوة المفضوحة إلى اتباع غير سبيل المؤمنين .

ولا تقل : كيف نميز بين الطائفتين ؟ فان الفراسة الايمانية تتكفل بذلك ، كما تكفلت فراسة المحدثين بفضح الحديث الموضوع أحياناً ، فانك تجد عندهم مثل قول الحاكم النيسابوري في كثير بن عبد الله الناجي : (زعم أنه يسمع من أنس ، وروى عنه أحاديث يشهد القلب انها موضوعة) [2] .

فالداعية لا يترك حذره اذا لم ير الدليل الواضح وضوح الشمس ، بل تكفيه شهادة قلبه للاحتياط في كثير من الأمور اذا تجنب الهوى .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤٦/١٦ .

(٢) تهذيب التهذيب ٤١٨/٨ .

* فالقلب راء ما لا يرى البصر *

وهذا من المعاني التي تواطأ الناس على تأكيدها ، فكان ابن تيمية يقول : (انه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه) [1] .

وفي الشعر القديم :

لا تسأل المرء عن خلائقــــه في وجهه شاهد من الخـــبر

وفيـــه :

* ان الصدور يؤدي غيبها النظر *

وكان الشعر الحديث أجود في تطرقه لهذا المعنى ، فقال عبد الوهاب عزام :

ان يكن في الكلام صدق وكـــذب
ولدى القلـــب سره المكنـــــون
فعلى الصدق في العيـــون دليـــل
وعلى الوجه شاهـــد لا يمين [2]

أي أنه شاهد لا يكذب .

هذا من مجرد النظر إلى الوجه ، فان انضاف إلى ذلك سماع كلامه : كان الاستدلال أقوى ، كما قال الله تعالى :

---

(١) مجموع فتاوى أبن تيمية ٢٧٢/١٨ .
(٢) ديوان المثاني /٣٠ .

(ولتعرفنهم في لحن القول) .

بل الخبير يعرفهم في لحن السكوت أيضاً ، فكم من سكوت يعرف المقابل فيه انطواءه على الغضب وتربص الفرصة للانتقام والكيد .

فاذا انضاف إلى الكلام فعل ، فان ما في القلب يتضح تماماً ، وان حلف لك صاحبه ونفى .

ويخبرني عن غائب المرء فعلـــــه
كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

وهبه دلس علينا وخدع ، أفعلى الله تمر الخدعات ؟
كلا والذي برأ نسمته .

كــل مستخف بســر فمــن اللــه بمرأى
لا ترى شيئاً عــلى اللـ ـه من الأشياء يخفــى

فالله رقيب حسيب ، يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، والعاقل من اتقاه ، وترك شهوته وهواه .

نسميه تركاً وهو أفضل الجهاد ، فان رسول الله ﷺ قال :

(أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه) [1] .

ولا تستغربن ذلك ، فان قتال الكفر لا ينفر له عبد رياسة أو درهم ودينار .

---

(١) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/٣٦١ .

١٧ مهاجرون يأبون التعرب

كان من خبر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أزاء علم الشر ما قصصناه آنفاً ، وعلمنا مقدار حرصه على تمييز الفتن ، ومقدار تطلعه لنيل أجر النذارة لقومه ، والتيقظ لفضح اقترابها المستتر بأنواع التدليس ، والمتخفي بظلام الشبه .

والذي يبدو للمتأمل في تواريخ الفتن وتسلسلها ان (ظلام الشبهات) هذا يكاد ان يكون هو الظرف المثالي الذي تفضل اختياره لبدء تغريرها بالمؤمنين ، اذ لا يزال ظلام الحرام البين دامس مخيف يرهب أقل الناس إيماناً ان يلج فيه ، ولكن ظلام الشبهة أقل اسوداداً ، وهو بالغبش أشبه منه بالحلاكة ، وربما تخللته ومضة ، وخففت منه بقية خيط أبيض ، فيتوهم المؤمن ، فيلغ ، وفي ظنه ان لا خلابة ثم ، حتى يستغلق الظلام من حوله ، فيؤوب ناجياً بمشقة وقلب راجف واجف ، او يرهب الأوبة

بعد اذ قطع الظلام عليه طريق رجوعه واستوى ما هو قدامه وخلفه . ولا يبعد ان يعتاد وحشة الظلام ، ويألفها ، ويترك التفكير بعودة .

مثل صريع الاغراء في ذلك مثل التاجر الماشي في سفر ومعه رأس ماله ، فان كان نبهاً ، وقارب مصرا آهلا حين الغروب : بات فيه واستأنف مع وضح النهار ، وان لم يكن كذلك ، وكان محروماً حاسة الاحتياط والحذر ، فان الشفق يشدهه ، ولا يفطن لما بعده من عتمة ، فيظل سائراً ، حتى يتوسط القفر ، ويصعب عليه التقدم او الرجوع . فاذا كان معه لص في خطوه الأول يهيج غرامه بالشفق زيادة ، ويأتيه بابلغ أقوال الأدباء في جماله ، ويرغبه بنيله قبل اعتداء الأفق عليه : فان اللص ينفرد به بعد ، ويسلبه ثروته .

• سراج وقوده التوبة

ولذلك انتهت دراسة حذيفة رضي الله عنه لمثل هذه التغريرات إلى الجزم بان هناك نوراً إيمانياً في قلب المؤمن ينير له طريقه في الظلمة التي استدرج اليها ، تفشل معه خطط اللصوص هؤلاء ، ويستطيع الرجوع على ضوئه ، فقال :

(ان في قلب المؤمن سراجاً يزهر) [(١)] .

فهو يزهر كما يقول ، اي يتألق ويسطع سناه .

---

(١) مجموع فتاوى أبن تيمية ٤٥/٢٠ ، ٢١٦/٥٧٨/١٠ .

والايمان يزيد وينقص ، فربما خفت السراج في ساعة جزر ، فيستدرج المؤمن ، لكنه سرعان ما يعود إلى الأزهار مع المد الايماني ، طالما ان أصل الايمان ارجح فيه من أصول الشهوات ، فتكون النجاة .

والعرف الايماني يحفظ لكل معصية توبة نسبية خاصة ، ما زال المؤمنون يستدركون بهن التفريط ، ولكن أكثرهم ما ما زال يجهل التوبة من طلب الرئاسة وأمثالها من مقدمات الفتن ، ففطن ابن تيمية لهذه الغفلة عن هذه التوبة ، وطفق يذكرنا بأن :

(باب التوبة مفتوح ، فان الرجل قد يسأل الامارة فيوكل اليها ، ثم يندم فيتوب من سؤاله ، فيتوب الله عليه ويعينه :

أما على إقامة الواجب .

وأما على الخلاص منها) [1] .

وتوبة الله على طالب الرياسة باعانته على القيام بواجبها أثمن من الخلاص منها ولا شك ، لتضمنها معنى الستر وأمن الانفضاح ، واتاحتها للتائب مجال الاكتيال من أجر الامامة الذي لا يكاد يعدله أجر .

فهذا صاحب السراج : ان لم ينر له نور عصمة : أنار له نور توبة .

أما الذي اطفأت ريح الشهوات سراجه ، ففي واد آخر ،

---

(١) المصدر السابق

وشأن مختلف ، واضطراب متعب ، حتى ان ابن تيمية انكسر قلبه عليه لما رآه في تقلبه :

(يجتذبه الشرف والرئاسة ، فترضيه الكلمة ، وتغضبه الكلمة ، ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، ويعادي من يذمه ولو بالحق) [١] .

وهذه ترديات تثير الشفقة دون ريب ، وتدعونا إلى تعميم الاحتياط منها ، بزيادة ايقاد أنوار الفطنة في قلوب المؤمنين ، وتناوش قبس ذكي يجد الدعاة عليه هدى ، ويسعى جماله بين أيديهم يدعوه الفقه باسم :

● النور السابع عشر ، ويزيـــن :

*** اتقاء الغدر .**

وهو نور يوقده وضوح الاشارة الشرعية والعرفية لقبح اثم الغدر بالبيعة الرضائية .

فعن عبد الله بن عمر وانس بن مالك رضي الله عنهما قالا : قال النبي ﷺ :

(لكل غادر لواء ينصب يوم القيامة يعرف به) [٢] .

وقد فسر ابن عمر هذا الحديث بانه الغدر ببيعة الأمراء [٣]

---

(١) المصدر السابق

(٢) (٣) صحيح البخاري ١٢٧/٤ ، ٧٢/٩ .

قاطعاً الطريق على من يريد ان يتأوله .

وكان يقال :

ثلاث من كن فيه : كن عليه:

البغي : لقول الله تعالى : (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) .

والمكر : لقول الله تعالى : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) .

والنكث : لقوله عز وجل : (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) .

وهذه البيعة المعروفة الآن في الدعوة ، والتي توجب حقوقاً لمن بويع وبايع بالتبادل ، وفقاً لشروط تفصيلية ، انما هي من البيعات التي يجب الوفاء بها شرعاً ، اذ المؤمنون عند شروطهم ، وقد الزم الدعاة أنفسهم بها عن رضا كامل واختيار ، وقبلوا الحد من بعض حريتهم في الاجتهاد تمكيناً لممارسة عمل جماعي لا تتحقق آمال الدعاة في استئناف الحياة الاسلامية وتحقيق مصالح الأمة إلا بواسطته ، ولا يستمر إلا بمثل هذا الحد من حرية المشارك فيه وتفويض قادته صلاحية الأمر ومنحهم الطاعة ، وكلام ابن تيمية في أول الجزء التاسع والعشرين من مجموع فتاويه عن القواعد الفقهية العامة التي تحكم شروط المسلمين في عقودهم وبيوعهم ليس فيه ما يمنع من العمل بهذه

الشروط الرضائية التي يوجبها الداعية على نفسه بكامل اختياره طمعاً في أجر وثواب العمل الجماعي ، ورغبة في الوصول إلى استدراك سريع لحال الأمة يبرد لذعات قلبه اليومية التي تسببها المآسي المتكررة ، والفجائع المؤلمة ، ابتداء بضياع فلسطين ، ومجازر زنجبار وقبرص وارتريا والفلبين ، ومروراً بصراع القوميات الدموي في البنغال وديار الأكراد ، وانتهاء بخطط الماسونية والتنصير وتمكين المماليك .

والحقيقة ان ناكث البيعة يوقع نفسه في جملة أمور رديئة حتى ولو اعتزل ولم يؤذ جماعة العاملين .

• فهو واقع في اثم عدم الوفاء بالعهد ، وعلى مقربة من خصلة من النفاق بغيضة ، فان المنافق اذا عاهد غدر ، وأقل ما يقال في هذا العهد الذي أعطاه انه آكد من النذر الذي ينذره على نفسه ، والنذر واجب الوفاء ، يشغل الذمة بمجرد النطق .

• وهو واقع أيضاً في اثم التكوص على العقب ، المذموم في القرآن ، فليس هو مجرد وقوف سلبي لا يتقدم بوفاء ولا يزداد من الخيرات ، وانما هو رجوع ايضاً يستهلك ما أدخره من الحسنات .

• كما انه قد دخل في سنة نافلة تطوع بها ان لم نقل بوجوب العمل الجماعي ، والمتطوع بسنة عليه ان يتمها كما يقول جمهور الفقهاء .

• ثم ان الناكث يقع رابعاً في اثم انتصابه قدوة سيئة لغيره يشجع من بعده على تقليده وتسويغ النكث احتجاجاً بسابقته .

• نطيع الله في العاصي

ومن هنا كانت عقوبة الناكث بليغة في العرف العملي ، ووجب على الدعاة ان لا يأتمنوا ناكثاً نقض عهداً ، بل يجردونه مما هو فيه من العمل حتى يحدث لنفسه توبة تصدقها استقامة دهر بعد اعلانها .

لسنا نبتدع ذلك ، وانما هي قاعدة وضعها التابعي الكوفي سليمان بن مهران الأعمش ، فقال :

(أعظم الخيانة : أداء الأمانة إلى الخائنين) .

فالمشاركة في العمل شرف وأمانة لا تنبغي لغير ملتزم ، فضلاً عن أن يكون رأساً ووجهاً ، ومنعه ها هنا باب آخر من أبواب التقوى دلنا عليه الزاهد عمر بن ذر رحمه الله فقال :

(انا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من ان نطيع الله فيه) .

فمن عصى الله فينا ، بنقض عهده معنا ، واطلاق لسانه فينا ، نكافؤه بأن نطيع الله فيه ونصنفه في الخالفين .

أما الذين يصدقون الوعد ، ويخطون خطو الصعود ،

فيحتلون القلب احتلالاً .

اولئك اخواني الذيــن احبهــم
وأؤثرهم بالود من بــين اخواني
وما منهــم إلا كريــم مهــذب
حبيب إلى اخوانه غــير خــوان

ومكافأتهم ان نأخذ بأيديهم ، لنمضي سوية ومعاً في طريق الأنوار اللاحب ، ونمر بهم على :

● النور الثامن عشر ، لينبههم إلى :

*** خطأ الاحتجاج بزلات السلف .**

بل نهدرها هدراً ، فان العصمة لم تكتب لهم وان كانوا نجباء ، فان مما ادخل الفساد على الخلق في مشاهدات ذي النون المصري الزاهد انهم :

(جعلوا قليل زلات السلف حجة انفسهم ، ودفنوا كثير مناقبهم) (١) .

وصدق والله ، اذ رأينا ما رأى ، كأن سمت الناكثين على مدار التاريخ واحد متشابه ، وراقبنا فتنة جادل المفتّن فيها أميره ، ورد عتبه ، فقال : انت لست افضل من عثمان رضي الله عنه حتى تحرم الخروج عليك ، ولا انا وصحبي

---

(١) الغنية لعبد القادر الكيلاني ١٨٤/٢ .

أفضل من فلان وفلان ممن خرج على عثمان حتّى نتنزه عن فعل فعلوه .

وهذا لعمرو الله هو الفقه الأعوج الأعرج ، فان تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولنا ما نكسب ، ولا نسأل عما كانوا يعملون ، وهذا المجادل لم يفطن إلى أن الخطأ لا يصلح ان يقتدي به ، وان الشر لا يقلد ، وان جمهور المهاجرين والأنصار لبثوا في ساعة العسرة على الطاعة والولاء لعثمان ، لكنه منعهم من الدفاع عنه .

ولمثل هذا اشترطوا الورع للفقيه ، كي يريه نور ورعه عوار الحجة الكاذبة الساترة لخطلها ، وشبهوا نموذج الفقيه الفطن بالتابعي محمد بن سيرين، وذلك حين جزم مُوَرّق العجلي انه لم ير :

(رجلاً أفقه في ورعه ، ولا أورع في فقهه ، من محمد ابن سيرين) [1] .

فالورع لا بد له من فقه يعصم صاحبه من الابتداع ومجانبة السنة ، كما ان الفقه لا بد له من ورع يبعد المتفقه عن الهوى في الاجتهاد او الوقوع في تغرير الزلة .

فافعال الرجال معروفة ، منها المنتصبة انتصاب المنار ، تدعو المشمرين لاقتداء ، فيعرفونّها ، ومنها المائلة العوجاء .

---

(١) تهذيب التهذيب ٢١٥/٩ .

وذو الصدق لا يرتاب ، والعدل قائم
على طرقات الحق ، والشر أعــوج

فانظر ، ان كان ثمة توسع في التأويل ، وإكثار من الغرائب ، فان الفقه يوشك ان يولد كسيحاً . وان كان هناك الذي تعلمه من صحيحيك ، وفكرة تراها ترتقي مدارجك ، وتتفيأ ظلالك ، فانه فجر جديد يبشر بزوغ :

● النور التاسع عشر ، الحاث على :

* الاعتبار باستكبار الشرع لتعرب المهاجر .

فتكون لنا عبرة وموعظة بما أخرجه البخاري في صحيحه عن التابعي يزيد بن أبي عبيد ان سلمة بن الأكوع رضي الله عنه دخل مسجد الكوفة آتياً من مسكنه في البادية ، فقال له الحجاج ابن يوسف الثقفي :

(يا ابن الكوع : ارتددت على عقبيك ؟ تعربت ؟
قال : لا ، ولكن رسول الله ﷺ اذن لي في البدو)[1] .

والحجاج يشير هنا إلى حكم شرعي صادق فيه ، فان رسول الله ﷺ نهى عن رجوع المهاجر إلى البادية والصحراء وعيشه عيشة الأعراب ، ولذلك لم ينكر عليه سلمة بن الأكوع قوله هذا ، وانما بين له انه استأذن رسول الله ﷺ باستثنائه

(١) صحيح البخاري ٩/٦٦ .

من ذلك والترخيص له ، فاذن له .

قال الحافظ ابن حجر :

(ان رسول الله ﷺ عد من جملة أصحاب الكبائر من رجع بعد هجرته اعرابياً) .

ثم قال :

(وقال ابن الاثير في النهاية : كل من رجع بعد هجرته أعرابياً إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد)[1] .

ويشهد لهذا الحكم أيضاً ما أخرجه عبدالله بن المبارك في كتاب الزهد عن ابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وهو أحد فقهاء التابعين ، ان علي بن ابي طالب رضي الله عنه كان يقول :

(رجعة المهاجر على عقبيه من الكبائر)[2] .

ويشهد له أيضاً ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد بسند على شرط صحيحه سوى رجل ثقة اشترطوا لتصحيح حديثه وجود شاهد متابع له ، وقد شهد له من ذكرنا ، ان أبا هريرة رضي الله عنه عدد الكبائر فذكر منهن :

(الاعرابية بعد الهجرة)[3] .

وصرح الفقيه العلائي من الشافعية بانها كبيرة[4].

---

(١) فتح الباري طبعة بولاق ١٣/٣٤ .
(٢) كتاب الزهد لأبن المبارك /٢٥١
(٣) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد ٢/٣٧ .
(٤) الاشباه والنظائر للسيوطي ٤١٥

وفي سنن سعيد بن منصور ، بسند صحيح لكنه مرسل ، ان النبي ﷺ نهى : (ان يتزوج الاعرابي المهاجرة يخرجها إلى الأعراب)[1] .

فهذه الروايات تتظافر على تصحيح حكم النهي عن تعرب المهاجر وسكناه البادية ، منعزلاً عن مجتمع الجهاد والعمل .

ولا شك ان حكم الردة او اعتبار التعرب كبيرة حكم خاص بجيل المهاجرين ذاك ، ولكن القلب يدرك ان النهي ما كان الا ليستمر المهاجرون ، من قريش وغيرها ، في العمل الجماعي والفتوح وتعليم التابعين وادارة الدولة المتوسعة .

ومن له تأمل في حال الأمة اليوم يرى تجمع الدعاة الحالي ، وهجرتهم من التسيب والتفرد والضياع في خضم الحياة الجاهلية الحاضرة إلى دار الدعوة والعمل والانتظام ، اشبه ما يكون بتلك الهجرة الأولى .

فمن خرج عن الجماعة ، ورضي بأن يكون سائباً ، فقد اتى إلى ركن بلا قواعد ، فان رسول الله ﷺ يقول :

(من أراد منكم بحبحة الجنة فليلزم الجماعة ، فان الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد)[2] .

واذا كان رسول الله ﷺ قد أذن لسلمة رضي الله عنه

---

(١) سنن سعيد بن منصور جـ ٣/ق١/١٢٦ .
(٢) حديث رقم ١١٧ في مسند احمد بسند صحيح .

بالتعرب والرجوع إلى البداوة فمن ذا الذي يأذن اليوم لهؤلاء الذين يخلعون الطاعة ويعافون الجماعة ؟

لا أحد والله ، ولعلها كبيرة كتلك الكبيرة .

فواقع الاسلام لا يأذن .

واحتدام الخطر لا يأذن .

والفقه لا يأذن .

والقلب الحي لا يأذن .

والمروءة لا تأذن .

ولقد هاجرتم ايها الدعاة إلى مدينة الدعوة ، فاحذروا ان يفسد ما انتم فيه غضب أو هوى او حب رياسة ، أو طاعة زوجة ، أو حرص على مال .

إلا أنها هجرتكم فاحفظوها .

زادكم الله ثباتاً .

وانما عهدنا بكم انكم مهاجرون تأبون البداوة .

الصّادق الكذوب

١٨

ما برحت الأيام تؤكد أن ضخامة حجم معطيات التنظيم الحركي التي جنتها الدعوة الاسلامية الحديثة هي أكبر مما صورته تخمينات رعيل الدعاة الأول .

عرف ذاك الرعيل قابلية التنظيم الذي هم بصدد انشائه على تجميع الجهود ونقل العمل من أطواره العفوية وارتباطه بردود الفعل الساذجة إلى تخطيط يوضح تفاضل الحاجات ويكشف المصلحة الكامنة في تجاوز المفضول منها في سبيل اسراع في الوصول إلى هدف أهم . ولم يكن ما سببته المحن المتلاحقة من تأخر في الوصول إلى الغاية النهائية ليثلم صوراً متعددة لأكثر من نجاح حققته الدعوة في الوصول إلى أهداف مرحلية بارزة .

ومع ذلك ، فان هذا الانتقال إلى الانتظام الحركي ، شأنه شأن كل خير ، قد جاء بفوائد أخرى ثمينة لعلها لم تخطر على

بال بعض الرواد الذين بدأوه .

● مصفاة الرجال

وأجلى اتضاح حاضر للفوائد التي لم تكن مرتقبة اول مرة : يظهر في ما قام به العمل الحركي من استخلاص الصالحين فحسب من بين جمهرة المتصدين للنشاطات الاسلامية .

فالمتصدون كثرة كثيرة ، ولكن مراتب نياتهم وهممهم ووعيهم متعددة ، حتى ان بعضهم لينزل إلى مستوى هابط يولد الضرر ، من بين مدخول في نيته له إلى المنفعة الشخصية قدم ممدودة ، وبارد في همته يتصدر في وقت احتدام فيغفو ويسوف ، او قليل ذكاء لا ينظر ما حوله ولا له في معرفة الواقع نصيب .

وحالة التسيب والتفرد واستقلال شخصيات هؤلاء المتصدين لا يمكنها ان تقدم أبداً وسيلة للتمييز الضروري بين هـــذه المستويات المختلفة ، إذ التمييز ليس هو إلا نتيجة لممارسة وزن الأشخاص وأعمالهم بميزان معين ونموذج محدد موصوف ، وهذا التعيين والتحديد لا يتصور حصوله إلا من جماعة تتواطأ عليه مواطأة اقتناعية من لدن بعض افرادها ، تكتمل بمواطأة أخرى تفويضية يتنازل فيها البعض الآخر عن اجتهادهم المخالف ويتعهدون بالعمل وفق اجتهاد الفئة الأولى ، لكثرتها وقلتهم ، أو لكون رأي القائد مع الفئة الأولى وان قلت ، حسبما يكون

عليه النظام الذي ارتضوه لتحديد العلاقات بينهم . وتمثل كل خطة جماعية في حقيقتها مجموعة هذه المواطآت .

وبذلك تصبح هذه الموازين المتفق عليها ، المسماة بالخطة : أداة تمييز بين المتصدين للعمل . من وافقها وكانت له القدرة على تنفيذ جزء منها : حظي بوصف الصلاح . ومن خالفها ، أو لم يستطع المشاركة في تنفيذ شيء منها : نحي إلى جانب ان لم يستقم أمره بعد محاولة تربوية وتدريبية معه .

فلولا الانتظام الحركي لما كانت هذه الخطة ، ولولا الخطة لما كانت تنقية المتصدين ، ولظلت جمهرتهم متناقضة دوماً ، وفي هذا ما يشير إلى أن ظاهرة الافتتان انما هي ظاهرة طبيعية في الحركات ، بل ما يشير إلى أنها ضرورة لازمة ، لما فيها من تنقية مزيج الرجال المتباين النيات والقابليات والاجتهادات .

وكاد الشاعر القديم ان يقترب من هذه الحقيقة لما مدح صاحبه فوصفه بأنه :

● محض اذا مزج الرجال ، مهذب *

اذ ليس من الممكن استمرار التباين اذا مزج الرجال ، بل لا بد من تمحض المهذب الصالح مع أمثاله وظهورهم دون ما هنالك في المزيج من كدر وشوائب وغثاء .

افرأيت في الفيزياء كيف تعمل القوة المركزية عند حركة

الدوران بمزيج ما على فصل مكوناته حسب كثافاتها ؟ فكذلك قوة الخطة الصادرة من مركز التجمع ، تفصل من خلال دوران دولاب العمل ومن خلال التحرك اليومي الهادف مزيج الرجال حسب كثافاتهم النوعية ، فمنهم الثقيل الراسخ ، ومنهم الخفيف الطافي ، فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها ، كان ذلك قدراً مقدوراً .

ولكن القدر يصارع بالقدر ، والأسباب قريبة ميسورة . ولذلك كانت التربية الرفيقة ، والنذارة من الواجبات المفروضة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة .

وأنوار الفطنة الماضية لم تأت إلا في هذا المساق التربوي ، الذي يمد صاحب بذرة الحياة بحيوية نماء ورباء .

وفي نفس المساق يرتفع على سارية التربية التحذيرية :

● النور العشرون ، واصفاً جمال :

* تعليق التضحية على أمر القادة

فان مبادرة الداعية إلى التضحية بروحه ، بلا استئذان الأمير ، مهدورة القيمة عند الفقهاء مجردة من الفضائل ، وربما كانت اثماً اذا نتج عنها توريط الدعوة بما لم تحسب له حساباً ، وتكون عندئذ فتنة كبقية الفتن .

فقلة إدراك بعض متحمسة الدعاة لأصول العمل ، وجهلهم

بالواقع الذي يحيط بهم ، يؤدي بهم أحياناً إلى فهم التأني والتربية المرحلية أو الحذر في الانتقاء على انهما بطء قيادي وخوف وإحجام عن الاقدام ، فيخرجون إلى تهورات ومجازفات يؤكد النظر التحليلي فشلها ابتداء ، وينفون معنى الافتتان عنهم ، لما هم فيه من تعريض أنفسهم إلى مخاطر قد تصل إلى بذل الروح .

وانما هو ظن بعيد توهموه ، ولو انهم أرادوا مصلحة الدعوة خالصة من دون موافقة الخفي من شهوات انفسهم لاعدوا لعملهم عدته الاستشارية ، ولحرصوا على انتماءاته الخططية ، ولكنهم قوم يستعجلون .

ولقد سئل الفقيه التابعي الجليل نافع المدني رحمه الله ، مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ووارث علمه ، عن تضحية لا يحركها أمر قائد ولا توجبها خطة ، فقيل له :

(هل يحمل الرجل اذا كان في الكتيبة بغير اذن امامه ؟

فقال : لا يحمل على الكتيبة إلا بأذن امامه)[1] .

وهذا جواب صريح : ان المسلم المنتمي إلى كتيبة إسلامية لا يهجم على كتيبة العدو إلا باذن قائدها .

وظل هذا الفقه يحكم التضحيات وينظم صرفها قروناً

(١) مسند الأمام أحمد ، حديث رقم ٤٨٧٣ .

طويلة ، حتى أخذه ابن قدامة الحنبلي ، احد اعلام الفقه المقارن ، فقال :

(لا يخرجون إلا بأذن الأمير ، لان امر الحرب موكول اليه ، وهو أعلم بكثرة العدو وقلتهم ومكامن العدو وكيدهم ، فينبغي ان يرجع إلى رأيه ، لانه أحوط للمسلمين)[1] .

فاذا كان هذا هو الأصل ، فمن باب أولى ان يمتنع الذي هفا أول مرة واستعجل واخطأ فصدر له الأمر بالامتناع ، فانه يظل في استثناء ، حتى ان الأمر اللاحق الذي يستنفر الجميع لا يشمله ، إلا ان يأذن له القائد اذناً خاصاً يلغي منعه الأول ، فقد :

(سئل الامام أحمد عن الامام اذا غضب على الرجل فقال : أخرج ، عليك ألا تصحبني . فنادى بالنفير ، هل يكون أذناً له ؟

قال : لا ، انما قصد له وحده ، فلا يصحبه حتى يأذن له)[2] .

فلا يباح للمطرود من صف الجماعة ، ولا لعموم الدعاة ، ان يتحركوا وفق اجتهادهم أبداً ، لشمول الخطر الناجم عن اخطائهم المحتملة وتعديه إلى كل المسلمين ، وكم من مشاكل اتت من قبل صاحب هوى ، غوى ، فطرد ، فأراد التعويض من طريق يظنه قصيراً ، ففشل ، فأتعب الناس من بعده .

---

(١) (٢) المغني ٣٦٤/٨ .

ان البيعة توجب طاعة الأمير في كل خطوة .

(إلا ان يتعذر استئذانه ، لمفاجأة عدوهم لهم ، فلا يجب استئذانه ، لان المصلحة تتعين في قتالهم والخروج اليهم لتعين الفساد في تركهم .

ولذلك لما أغار الكفار على لقاح النبي ﷺ فصادفهم سلمة بن الأكوع خارجاً من المدينة تبعهم ، فقاتلهم من غير اذن ، فمدحه النبي ﷺ وقال : خير رجالتنا : سلمة بن الأكوع)[1].

فافهم ايها المتحمس ، وانتظر ، فانما لك من أجر الرباط مثل الذي تظنه من أجر الزحف ، وانظر كميناً نصبوه للسذج ، يغريهم ويمنيهم برئاسة في زحف موهوم ، واعنهم على رؤيته بقبس من :

● النور الحادي والعشرين

الذي يكشف ان :

* قيادة الباطل مثلبة ، كما ان جندية الحق منقبة .

فقيادة الباطل ليست بشيء ، ولا لها في العرف الاسلامي قيمة ، وانما هي مجردة عن الفضائل ، حتى أن نفس صاحب المروءة لتعافها فطرة ، وتعتبر ايرادها موضوع مساومة وثمن تأييد من أكبر الاهانة .

---

(١) المصدر السابق .

وهذا النور أوقده قاضي البصرة المحدث الثقة عبيد الله ابن الحسن العنبري المتوفي سنة ١٦٨ هـ ، فكأنه قد دعي إلى خروج عن الطاعة بتمنية من خلابات الرئاسة ، فأبى وقال :

(لان أكون ذنباً في الحق : احب إلي من أن أكون رأساً في الباطل)[١] .

وما زالت البيعة تميز بين الاثنين هنا ، تصف المطيع ومن بويع بالحق ، وتضع ناكثها في صف المبطلين .

وانما ديدن المسلم ، الأجر من رب العالمين ، والأجر لا يأتيك إلا أن تتملق له بفرض ومندوب ومستحب ومكارم أخلاق ، وللوفاء نسب مع كل هذه الدرجات ،.ولمحاسنه مرايا تعكس اشعاعاتهن جميعاً ، فتجتمع الانعكاسات في بؤرة لتولد :

• النور الثاني بعد العشرين

وعلى ضوئه نعرف ان :

* أقوال الحق الصادقة لا تكفي لتزكية قائلها تزكية مطلقة .

فقد يتكلم المبطل بكلام من الحق يريد به باطلاً كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . وربما يصدق الكاذب ، ولكن

(١) تهذيب التهذيب ٧/٧ .

المعول عليه : سلوك القائل وتصرفه .

وكم من كلمة هي من الحق الذي لا شك فيه يوجب الورع السكوت عنها في وقت معين أو تجاه سامع معين ، سداً للذريعة ، أو ترجيحاً لمصلحة أخرى تزاحمها ، من تأليف قلوب ، ومراعاة لمستوى الفهم ، وغير ذلك .

وفي قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان السارق تأكيد لهذا المعنى الذي نقوله ، من اعتبار سلوك القائل في الحكم عليه ، فقد أخرج البخاري في مواضع من صحيحه بلفظ المتابعة غير الموصولة عن شيخه عثمان بن الهيثم بسند صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ وكله بحفظ الطعام المجتمع من زكاة الفطر في رمضان ، فأتاه سارق فجعل يحثو من الطعام ، فأمسك به أبو هريرة ، فاستدر عطفه ، فأطلقه ، ثم جاءه ثانية فأطلقه أيضاً ، فلما جاءه في الليلة الثالثة قال ابو هريرة :

(لارفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات انك تزعم لا تعود ثم تعود .

قال : دعني اعلمك كلمات ينفعك الله بها .

قال ابو هريرة : قلت : ما هو ؟

قال : اذا اويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : الله لا اله إلا هو الحي القيوم ، حتى تختم الآية ، فانك لن يزال عليك

من الله حافظ ، ولا يقربنك شيطان حتّى تصبح .

قال ابو هريرة : فخليت سبيله ، فاصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل اسيرك البارحة ؟

قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله .

قال : ما هي ؟

قلت : قال لي : اذا اويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم : الله لا اله إلا هو الحي القيوم . وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتّى تصبح .

وكانوا احرص شيء على الخير .

فقال النبي ﷺ :

أما أنه قد صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟

قال : لا .

قال : ذاك شيطان)[1] .

قال ابن حجر :

---

(١) صحيح البخاري ١٢٦/٣ طبعة صبيح .

(وقد وصله النسائي والاسماعيلي وابو نعيم من طرق إلى عثمان المذكور)[1] .

ففي هذه القصة مع طرافتها دليل واضح على ان صاحب الشر المبطل قد يتكلم ببعض ما هو حق ويتستّر به ليصل إلى مراده . فيجب على الداعية المسلم المرتقي لمدارج الفضل ان لا ينخدع اذا اتته شياطين الانس تريد ان تسرق ما معه من عمل صالح وتحثو منه في جعبتها الفارغة لقاء ثمن من الكلمات التي تدلل فيها تلك الشياطين على ان لها بعض الحق ، بل يكون متيقظاً ناظراً لما تخفيه من أحوالها الباطلة ، وشاعراً بما تبنيه على ذلك الحق الجزئي من نتائج باطلة ، فيمسك الداعية بها من معاصمها بقوة ، ويسلمها إلى ولي الأمر ، ليمنع شرها عن قافلة الخير ، فتستمر في السير على توهجات :

● النور الثالث بعد العشريـــن

الذي ينبهنا إلى أن :

● سوء الرؤساء دليل ضرر المجموعة .

وهو نور قرشي اصيل ، اوقده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما خرج يوماً إلى طرقات المدينة ، فرأى مالكاً الاشتر

---

(١) فتح الباري ٥/٣٩٢ طبعة البابي .

وصحبه يحاصرون عثمان بن عفان رضي الله عنه يريدون قتله ، فقال :

(والله ، ان امرا هؤلاء رؤساؤه لامر سوء) [1] .

وهذا ميزان مهم غالباً مـــا ينساه الذين يتعاملون مع الجماعات ، ولو فطن له المخلصون لما انخدع أحد منهم بفتنة مفتتن يرفع عقيرته ببعض الحق الذي يريد من ورائه الباطل ، فان كل حزب او جماعة او كتلة سياسية أو فكرية تصطبغ في كثير من سياساتها الاجتهادية بآراء قادتها حتى ولو وجد نظام معين ومفهوم مدون لتلك الجماعة ، إذ لا يحصر الأساليب جميعاً نظام ، ولا يحيط بالمعاني كلها تدوين ، ولا بد ان يبقى للاجتهاد الدور الرئيسي الأول .

كما ان روح التقليد عند الاتباع ، المؤدية لاستيعاب الاملاء الذي يملي عليهم ، تضعهم في حالة انشداد للرؤساء ، تتضاعف قوتها طردياً مع قابليات الرؤساء الفطرية ، من ذكاء وشجاعة وقوة صبر على كثرة التحرك ، ومع العوامل المساعدة لها ، من تقدم في السن ، أو قصة بطولة سابقة ، او نسب عريق ، او بلاغة لسان وقلم ، إن لم يكن هناك شيء من التدليس وتسخير من يبث المدح لهم . ومن أجل هذا قال عمر بن

---

(١) طبقات ابن سعد ٧٢/٣ .

الخطاب رضي الله عنه مقالته المشهورة (اخوف ما أخاف على امتي من عالم باللسان جاهل بالقلب) .

لكل ذلك لم يكن الفصل بين شخصيات قادة تجمع ما وبين تجمعهم كله سهلاً ميسوراً وان عدد له في الفكر بنوداً ودون لعمله دستوراً ، بل الصواب الذي ينبغي على المدعو لمناصرة جماعة ما أو دخولها ان ينظر الرؤساء ، فان وجد ثمة اسواء ومثالب ظاهرة او يرويها الثقات عنهم : توقف وتهيب وأخذ حذره ، واعرض عن كلام جميل يدور على ألسنتهم لعل الخدعة تقتضيه ، كما اقتضت خدعة الصياد ان يقلد أصوات الطيور ويصفر بمثل صفيرها لتنزل وتحط على شباكه المنصوبة .

وقد يرد العكس على جماعة خير تنادت لصلاح تحت قيادة ثقات ، مع ان انفرادها دون جماعة خير سبقتها يعد امراً مفضولاً وليس فاضلاً ان لم يكن لها مبرر قوي يجيز تفردها ، ولكن هذا العكس لا يرد أبداً على جماعة فتنة ، تناجت ونكثت بيعة وانحازت إلى جانب وقدمت بعض أهل الفضل لها صدوراً ، اذ المقياس يختلف هنا ، ولا تمحو فضائل متعددة هفوة النكث الواحدة ، وغاية أمر الصدور : ان نحكم عليهم بانهم بسطاء سذج وقعوا في الخلابة فصاروا لا يصلحون كقدرات وان لم يتعمدوا الاساءة .

١٩ انهيار الضرار

يروى أن عبداً مهدياً داعياً إلى الله تعالى نظر يوماً إلى أصحابه من حوله ، فأعجبه الذي هم فيه من جمال التعبد والاخاء .

ثم نظر أخرى ، متأملاً تقلب القلب ، فأطرق . وبشعور مزيج من السرور والتخوف قال لهم :

(يا ملح الارض لا تفسدوا ، فان الشيء اذا فسد لا يصلحه الا الملح .)

فكانت منه حكمة صادقة ، تشهد حروفها انها من كلام أهل التربية وممارسيها .

وكأنه ما من مصلح مرب الا وصى بها اصحابه مراراً وحين موته .

فجراثيم التسمم ، وبكتريا العفونة ، لا تنمو في بيئة مالحة . وكذلك أهل الفساد ، لا يستطيعون رفع رؤوسهم في بيئة يتواجد فيها الناهون عن المنكر .

انه تصوير لواقع القلة المؤمنة من دعاة الأسلام بين الكثرة اللاهية المسترسلة مع أمور دنياها .

بهم يصلح الله كل فساد اجتماعي ، فيقومونه من بعد الاعوجاج . وهم الذخيرة للامة يحفظون لها مصالحها كلما ضيعها شهواني ظلوم ، فيرجعونها إلى مكانة العز التي تنبغي لها .

فاذا اعوج الدعاة أنفسهم ، وضيعوا رابطة اخائهم ، وألفوا بعض المنكر ، فمن للامة يصلحها ؟ ومن للمجتمع يزكيه ؟

لذلك بات النداء إلى التحابب وايطاء الاكناف ، ثم التواصي بانكار المنكر ، ركنين مهمين في التربية الجماعية الاسلامية ، يكفلان تمكن الدعاة من أداء دورهم الواجب في مصادمة الفساد.

فالاخاء يحفظ المجموعة ، ويمنع التسيب ، ويكسب الانكار فاعلية تأثيرية .

والتواصي . بما يتضمنه من تجريء على التضحية المحتملة ينقل المجموعة إلى الشجاعة في المواجهة والصبر عليها .

وبهذين الركنين التربويين تمكنت دعوة الاسلام الحديثة من انتاج (جماعة انكار متآلفة) أحيت سمت اخاء ايماني

انقطع لقرون طويلة ، وطفقت تضرب في النهي عن الفساد الامثال ، فشدت قلب يوسف القرضاوي اليها ، فراح يصف في سنة ١٣٧٠ هـ حسن نماذجها :

أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم
والناس تزعم نصر الديـــن مجانا
عاشوا على الحب أفواها وأفئدة
باتوا على البؤس والنعماء اخوانا
الله يعرفهم انصار دعوته
والناس تعرفهم للخير أعوانا [١]

هكذا ، ليس غير .

أعوان خير ، يقدمون ضريبة نصر الدين ، على درب من الحب .

فلا عجب أن يكونوا الخط البارز في صورة الاسلام الحديثة .

ولا عجب أن يحرص كل ذي حرص على منع من يريد لهم انفراطاً يحرمهم القدرة على ممارسة الانكار ، ويضع في دربهم احجار العثرات .

فذاك سبب ايقادنا للانوار .

غيرة على بهاء المنظر ونقاء الصورة من جانب . وكشفاً

---

(١) مجلة المباحث عدد ٣١ .

للمتصدي الجريح الضعيف المتكلف لحشر نفسه في فجوات صفوف الصورة من جانب آخر .

فالاعمش تكثر في عينيه أشعة أنوار الفطنة ، فتبهره ، فيضع كفه على وجهه ، ويطلب التواري . والاجهر يكون قريباً من النور وهو لا يبصره .

ولكن سليم العين يلتذ ، وربما كان كمن ينظر من خلال عدسة تكبير .

أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامه
سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه

قدر وحظ لم يقسما للاعمش والاجهر أن يتمتعا بما سبق أن أوقده فقه الدعوة من أنوار .

أما الموفق فأهل لان يزداد لذة ، وأن نرتقي لأجله سارية أخرى ، لنعلق عليها مصباح :

● النور الرابع بعد العشرين فيتألق بوميض :

*** الحرص على نجاة النفس .**

فان الامارة أمر شديد ، من لم يستطع الوفاء بلوازمها فقد تعرض يوم الحساب لنقاش دقيق ، وكل انسان خبير نفسه ، ويفترض فيه أن يقدر تقديراً صحيحاً قدرته الفطرية على قيادة قومه ومدى دخل الظروف المحيطة به وظروفه العائلية والمعاشية

والصحبة في أدائه لدوره ، فمن ساق نفسه إلى رئاسة وهو يعلم أن في الجماعة أفضل منه وأمهر ، وأنه سيسبب ضياع فوائد ، ويعجز عن سد ثغرات محتملة : فقد ظلم .

ولهذا خاطبك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، يسألك الرفق بنفسك من غد لا تدري عظيم غضب الله عليك فيه ، فقال :

(نفس تنجيها : خير من امارة لا تحصيها) (١)

اذ الامارة تحتاج إلى احصاء من أطرافها ، ورعاية وحسن أداء ، وانها خزي وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها ، ولا يصلح لها من كان على مثل ضعف أبي ذر رضي الله عنه ولو كان على مثل ما كان عليه من صدق اللسان وجمال العبادة .

وهذا المقدار هو من العلم الذي لم نر له في طلاب الرئاسة جاهلاً ، لكنهم يؤخذون ويفتق عليهم من باب التقليد والمحاكاة وقول : ليس فلان أفضل مني . فان أحدهم يرى التنافس في الرئاسة يشغل أقرانه ، ويظل يرقب ما يشجر بينهم ، حتى ينسى معاني علمه ، ويتأثر بمنظر التنازع دون قول فقه الدعوة .

وانما كان خبير الفتن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

---

(١) الفوائد لابن القيم /١٤٥ .

يتخوف من مثل هذا ، ويعده باب ما بعده من الارتكاسات ، فقال :

(إن أخوف ما أخاف على هذه الامة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون) .

هذا من مجرد الرؤية والمراقبة ، فكيف ان اجتمع معها ترغيب وتشجيع ووصف لِلذات وجدوها ؟

لا شك أن مخالفة العلم ستكون أسرع ، والاستجابة أكثر احتمالاً . ولذلك دعاك الزاهد يحيى بن معاذ إلى الاعتصام بميزان ثالث في هذا الموطن تميز به صدق الخطيب الذي يدعوك فجزم لك بأنه :

(لا ينصحك من خان نفسه)

فالمنازع في الرئاسة ، الملحاح في نزاعه ، قد روط نفسه ، وأضعف احتمالات نجاتها ، وتلك خيانته لها ، فكيف يرتاد لك الخير من بعد ؟

فانظر ناصحك ، وسائل قلبك : هل خان نفسه ثم أتاك ، أم لا زال يكتال الحسنات ؟

فان كان ناصحاً لنفسه : عرضت مفاد نصيحته على أنوار الفطنة لتؤيدها أو تكشف سذاجتها . وان كانت الاخرى أعرضت .

والا فان الزيغة الاولى منك تجلب ثانية رغما عنك ، فانها العقوبة الربانية :

(فلما زاغوا : أزاغ الله قلوبهم)

وسعيد بن جبير أمام التابعين ينذرك :

(ان من ثواب الحسنة : الحسنة بعدها . وان من عقوبة السيئة : السيئة بعدها .) (١)

فالزيغ ولود ، كما أن الاحسان ولود ودود .

لا بد من ذلك ، حتى قال فقيه المدينة عروة بن الزبير بن العوام :

(اذا رأيت الرجل يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده اخوات .

واذا رأيته يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات .) (٢)

فتتوالى عثرات المصغي لخائن نفسه ، حتى لقد رأينا في بعض البلاد رأي العين مَن طلب ذروة الرئاسة على قوم دعاة قد تراجع إلى الخلف بتدريج لما لم يحصل له مراده ، فترك الامر بالمعروف أول مرة ، ثم ترك المسجد ، ثم ترك نفس الصلاة واكتفى بالجمعة ، ثم ترك الجمعة ، ثم أفطر رمضان ، ثم أصبح يغيظ في نهار رمضان من يمر أمامه من الصائمين بنفث الدخان قرب وجهه .

---

(١) مجموع فتاوى أبن تيمية ١٠/١١ .

(٢) تهذيب التهذيب ٧/١٨٣

أفغير العقوبة أحاطت به ؟

وهذا ما يدعوك إلى أن تفقه بدايات الفتن المقبلة من النظر إلى نهايات الفتن السابقة ، فانه قل من نجا من تراجع بعد الافتتان.

ولذلك فاننا لا نجد أجمل من حرص الداعية على نجاة نفسه ، والحاحه في طلب :

● النور الخامس بعد العشرين المعين على :

● تمييز الغايات الصدامية في مساجد الضرار .

كما ميزها الذين سبقونا في الانتماء إلى هذه الدعوة المباركة وعاصروا ذروة نشاطها قبل أن تمتحن ورأوا كيف يعمل أعداء الاسلام على تسقط أخبار المخالفين ، فيدسوا اليهم من يؤزهم أزاً زائداً ، ويعيب عليهم القعود عن الانتقام ، ويحملهم على تجميع كل حانق في كيان منافس يرصد نفسه للمناوشة وتثبيط الجدد ، ثم يتم اختيار اسم كبير ضخم لكيانهم يحاولون من ورائه تحويل الانتباه اليه .

وانما هي مساجد الضرار يعاد بناؤها ، بهندسة جديدة ولون مبتكر ، لها إلى مسجد الضرار الاول نسب ، ومع تاريخه ارتباط .

ويسألون : كيف تكون لنا جرأة على هذا الاتهام ودعوة

الإسلام ليست حكراً على أحد ، بل لكل مسلم أن يتجمع ويعمل كيف يشاء ؟

ولسنا بحمد الله للعمل حاكرين ، ولكن يبطل عجب المتسائلين فحصهم لاطوار عمل من ننسبهم إلى الضرار ، ان كان تأملهم لواقع المسلمين يحملهم على مصاولة حركات الالحاد وأحزاب العمالة وتبليغ معاني الاسلام إلى السائبين اللاهين ، أم هم قد عافوا أولئك وحاموا حول دعاة الاسلام ومناصريهم يصادمونهم ويثبطون ، ويجادلونهم فيلهون ؟

ان جماعة تدعي الاسلام ، ثم تترك المجتمع المـــاجن والمنكر المستشري ، والشباب الضائع ، وتتجه إلى المصلين والملتفين حول دعاة الاسلام تزين لهم الانتساب اليها ، وتلح في تهوين أمر الدعاة الآخرين ، ورميهم بالاستبداد والافتقار إلى الوعي ، لهي أحرى الجماعات باسم مسجد الضرار .

ومن ذا الذي في قلبه ذرة ايمان وألم على المصير الذي آل اليه أمر المسلمين ثم لا يفرح ويهش ويبش لاقوام يعالجون المرض ويستدركون الانفراط ، وان خالفوه في الاسم والاسلوب؟

ولكننا نعيب الصدام والهاء العاملين ، وندعو الذي لم يعجبه أسلوبنا واجتهادنا ويحاول العمل في جماعة أخرى إلى أن ينظر : أهي في تبشير وانذار بمعاني الاسلام في الاوساط العامة وعلى اتصال بأفراد أهملهم الغير ، أم تركت أولئك وأوساطهم والتافت نحو مسلمين يعملون في مقاومة الفساد ، تماريهم ،

ونحصي لممهم وتلبسه لباس الكبائر ؟

فان كان ديدنها الصدام : توقف واحجم وربأ بنفسه عن أن يشارك في إشغال السائرين . وان وجد خيراً : نظر الامر ثانية على أضواء أنوار الفطنة الاخرى ، عسى أن يكون هذا الخير مفضولاً أو محفوفاً بخطر سوء الرؤساء .

اننا نقولها صريحة : ان من الاهمية بمكان أن يعرف كل من يريد المساهمة في النشاط الاسلامي أن المسجد الضرار النفاقي الاول :

(ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين . تتخذ في صورة نشاط ظاهره للاسلام وباطنه لسحق الاسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين ! وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الاسلام لتخدر القلقين الذين يرون الاسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الاسلام بخير ولا خوف عليه ولا قلق . وتتخذ في صور شتى كثيرة .) (١)

كذلك فان من الخطورة بمكان أن يعطي المخلص أذناً صاغية منه لمن كان في مسجد ضرار ولم تشتهر له توبة حتى ولو انفرط عقد أصحابه وانهدم بنيانه وظن المخلص أنه سيتعامل مع فرد

---

(١) في ظلال القرآن ١١/٣٥/٣٧ .

لا يستطيع الاضرار ، فان النفس تبقى موتورة حانقة غاضبة .

فيومها لما هدم الله الضرار الاول بأيدي المؤمنين : بقيت ريبته في صدورهم ، فقال الله تعالى بعد انهياره :

(لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم .)

وهي اشارة إلى طبيعة أصحاب كل ضرار ، في كل زمان، بعدما يهدم الله بنيانهم .

فلقد انهار الجرف المنهار ، (ولكن ركام البناء بقي في قلوب بناته . بقي فيها ريبة وشكاً وقلقاً وحيرة . وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت او تستقر . الا أن تقطع وتسقط هي الاخرى من الصدور .

وان صورة البناء المنهار لهي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار . تلك صورة مادية ، وهذه صورة شعورية . وهما تتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان . فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة ، حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار .) [1]

ومثل هذا العنصر القلق ليس أهلاً أن نلتمس عنده النظر

---

(١) المصدر السابق

العادل حتّى نمنحه السمع المصغي ، بل نتجاوزه ، ونطلب الخير على شعاع :

● النور السادس بعد العشرين اللامع بمعاني:

● مضاعفة الحذر من فتن آخر الزمان .

فنحن أقرب إلى الساعة مما كان عليه المسلمون قبل أربعة عشر قرناً حين نزل قول الله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) وهذه علاماتها تترى ، وليس بآخرها : تطاول الحفاة العراة في البنيان ، وتوسيد الامر إلى غير أهله ، ولفائف كأسنمة البخت المائلة فوق رؤوس الكاسيات العاريات .

وفي الحديث الصحيح أنه :

(لا تقوم الساعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء اعناق الابل ببصرى .) (١)

وبصرى قرب الجولان جنوب دمشق .

وقد تحدث مؤرخ المدينة السمهودي عن نار عظيمة التهبت من باطن الارض وسالت أياماً قرب حرة المدينة الشرقية سنة ٦٥٤ هـ حتّى جمدت حجارة سوداء ، وكان نورها يشاهد من أطراف الحجاز ، وشهد رعاة الابل ببصرى ان ابلهم حصل لها التفات غريب لا يدرونه . (٢)

---

(١) صحيح مسلم ١٨٠/٨ .

(٢) رسائل في تاريخ المدينة ، نشرها حمد الجاسر .

فان لم تكن هذه النار هي المقصودة في الحديث فان ناراً وشيكة الخروج بالحجاز ستصاحب اكتشاف حقول النفط فيها بعد العزم على التنقيب وازدياد احتمالات وجود النفط حالياً قد تكون هي النار التي ستمد لها أعناق الابل ببصرى ، والله أعلم .

وللمحدث الهندي صديق حسن خان كتاب (الاذاعة لما كان وسيكون بين يدي الساعة) ، جمع فيه علاماتها . وقد أعيد طبعه .

وليس للمؤمن الا أن يصدق ويوقن بقرب الساعة ، وان كان ذلك لا يغنيه عن الاخذ بالاسباب والعمل بظاهر الشرع ، فانه لا يدري ما بين العلامات وبين قيام الساعة من زمن ومدة .

والمهم الذي يجب أن يفطن له الداعية أثناء انتباهه لاحصاء علامات الساعة ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من قلة الايمان واضمحلاله عند اقترابها ، فيأخذ حذراً مضاعفاً ازاء كل سبب تواترت عند المؤمنين كثرة تأديته إلى ذاك الاضمحلال .

ومراقبة تواريخ الفتن ومصائر المفتتنين يرينا تردياً كثيراً ما سار فيه الخارج عن الجماعة ووصل به أخيراً إلى ترك الصلاة والتنصل من الالتزامات الاسلامية .

ولذلك وجب أن يجفل الداعية من اسم الفتنة ، ويقشعر جلده من كل نداء عصيان لاوامر الجماعة وخطتها ، الا يسير

في طريق ضمور الايمان في ظرف مساعد من طبيعة آخر الزمان ، حيث (تكثر الفتن) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كيف لا والنفاق في آخر الزمان يعم الاقطار حتى يغزو نفس المدينة المنورة التي هي معقل الايمان وداره ؟

ففي الحديث الصحيح :

(ان الايمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها .)[1]

ولكن مع ذلك فان أهلها لا يستطيعون في آخر الزمان الثبات على ايمانهم ، فيتركونها استكباراً ونفاقاً وهي على أحسن ما تكون من وفرة الثمار والعمران ، ويأبون أن يجاوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن يوصفوا بأنهم من سكنة المدينة ، والعياذ بالله .

وقد ورد الخبر الصحيح بذلك في قول رسول الله ﷺ :

(يتركون المدينة على خير ما كانت ، لا يغشاها الا العواف ، يريد : عوافي السباع والطير .

وآخر من يحشر : راعيان من مزينة يريدان المدينة ، ينعقان بغنمهما ، فيجدانها وحشاً ، حتى اذا بلغا ثنية الوداع : خروا على وجوههما .)[2]

و (روى مالك عن ابن حماس عن عمه عن أبي هريرة رفعه : لتتركن المدينة على أحسن ما كانت ، حتى يدخل الذئب

---

(١) (٢) صحيح البخاري ٢٦/٣ .

فيعوي على بعض سواري المسجد او على المنبر . قالوا : فلمن تكون ثمارها ؟ قال : للعوافي : السباع والطير .

أخرجه معن بن عيسى في الموطأ عن مالك . ورواه جماعة من الثقات خارج الموطأ .) [1]

(وروى عمر بن شبة باسناد صحيح عن عوف بن مالك قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، ثم نظر الينا فقال : أما والله ليدعنّها أهلها مذللة أربعين عاماً للعوافي .) [2]

وعمر هذا ثقة ، وهو :

(عمر بن شبة بن عبيدة .. البصري ، النحوي الاخباري نزيل بغداد .

.. قال ابن أبي حاتم : كتبت عنه مع أبي وهو صدوق صاحب عربية وأدب .

وقال الدراقطني : ثقة .

وذكره ابن حبان في الثقات وقال : مستقيم الحديث .) [3]

أفرأيت ؟

أهناك أشنع من هذه الفتنة وأكثر منها هولاً ؟

منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي الذئب فيعوي

---

(١) (٢) فتح الباري طبعة بولاق ٧٧/٤ .

(٣) تهذيب التهذيب ٤٦٠/٧ .

عليه ! وسواري مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي صلى عندها كبار الصحابة وأفذاذ الاعيان يعوي عندها الذئب !

فاذا كانت مثل هذه الفتنة العارمة تحدث في موطن الايمان ولا يسلم منها مؤمنو المدينة ، فكيف بمقدار الخطر الذي تفتحه علينا الفتن في غيرها من البلاد ؟

ان الداعية يعتبر ، ويدع الكثير مما يراه بعيداً عن البأس خوفاً أن يكون باباً وذريعة توصله إلى مابه البأس .

ولفؤاد البصير رجفة مميزة عند ذكر هذه الاخبار ، تلجؤه ولا بد إلى حذر مضاعف يحفظ به ثروة الاعمال الصالحة التي حازها من خلال نشاطه غادياً ورائحاً في مصالح الدعوة ، الا يبددها في صفقة غابنة ، مع صرخة فائتة .

دمــاءٌ على المصحف

٢٠

يرينا استقراء واقع العمل الاسلامي وتاريخه القريب ، في كثير من البلاد ، ان أي قوة من قوى الحركة الاسلامية وتجمعاتها ، حين تنطلق انطلاقاً مبدؤه النية الخالصة لنيل رضا الله سبحانه ، فان (شمولية الاسلام) تسم مفاهيم الحركــة بسماتها ، مقرونة باتجاه عملي لانتشال اكبر عدد ممكن من الشباب من براثن الضياع . وتظهر هذه الشمولية ورغبة الانتشال واضحة في مفاهيم الجماعة وشروطها ، فترى جناساً بديعاً بين احكام الاسلام كلها بارزة في تصرفات دعاتها وسلوكهم ، لا تخطيء عين المعامل لهم رؤية ما فيه من بيان وبلاغة تطبيقية ، كما ترى خطابها للناس بسيطاً بعيداً عن التكلف والاجتهاد الغريب يجعله مفهوماً لدى الجميع ، مع شرط متشدد في التجميع والتأمير يمنع احتمال الانحراف .

فالجماعة الصحيحة الاتجاه لا تعرف (القصورية) ، ولا بفضح مستوى اعضائها التربوي قولها وادعائها ، بل هم يعظون ويبشرون بحكمة ، ويجعلون بينهم وبين البدعة ستراً ، ويربأون بأنفسهم عن تجزيء يحصر قضية الاسلام في ثانويات يطغى الاهتمام بها على اصول العقيدة وعلى ما تعم باهماله البلوى على الامة من الاحكام ، مثلما يربأون بها عن الاصطلاح المبهم ، والجدل في الفروع ، اذ ليس عمل الدعوة محاورات فلاسفة ابداً .

ولذلك كان لا بد أن ترفع مثل هذه الجماعة اثناء مراحلها الأولى من خططها احتمال قبول من يخالف سمتها هذا بين صفوفها ، وأن تلغى بتاتاً رغبة التكاثر بالاعضاء ، اذ ان الهدف الذي من أجله وجدت الحركة الاسلامية أرفع من مجرد التكاثر وأسمى ، ولا تحل ازمة المسلمين الحاضرة بكثرة المتجادلين في الجزئيات ، فان الناس تلفهم ظلمات متراكبة ، من البدع ، او الايمان ببعض الكتاب والكفر ببعض . كما ان دعاة الاسلام أنفسهم ربما لفتهم ظلمات الرياء والهوى ومحبة الرياسة ، والحاجة ماسة إلى ايقاد انوار ايمانية تجلي الظلام الذي سجى .

فليس دبيب الذر فوق الصفاة في
الظلام بأخفى من رياء ولا شرك

فهما يتسربان بأخفى من مشية النمل فوق صخرة ملساء في ليلة ظلماء .

فأما الشرك فهو ما يقع فيه الناس اليوم من الاحتكام إلى غير ما انزل الله تعالى جحوداً وتكبراً .

وأما الرياء فهو ما يقع بسببه الخلاف بين دعاة الاسلام احياناً ، فترتفع معه الاخوة ، ولا ينتهي حتى يقوم شاعرهم يعاتب ويوبخ :

أبَعْدَ الصفاء ومحض الاخـــاء
يقيم الجفـــاء بنـــا يخطب ؟
وقـــد كان مشـــربنا صـــافياً
زمـــانا ، فهل كدر المشرب؟

وكل احد يعلم أنه زلال لم يكدر ، ولم تغيره الشوائب .

فاسلامنا هو اسلامنا .

ودعوتنا هي دعوتنا .

وأساليبنا تزيدها تجارب الايام صفاء .

ولكن النفوس هي التي تتكدر ، فيتغير المذاق ، ويصبح الحاو مراً .

والظلام يلف هذا الشارب المتكدر ، مثلما يلف ذاك الكافر المتعثر ، وان اختلف اسوداده .

فمن احسن قولاً ، واوقد نوراً ، فهو للصواب قد فعل .
ومن خالف ، وسار عكس الاتجاه : ناديناه أن :

* خلّ الطريق لمن يبني المنار به *

لا لاننا نحتكره ، او نرى ضيقه ، بل هو طريق فسيح عريض ، ولم تجد الاثرة لها فيه ثغرة لتدلف منها فتسده ، ولا يقف التعنت خلف أبوابه ليمنع ولوج مخطيء قد استبد به الحنين ، وملك عليه التحذير من الصفقة الغابنة جوانب قلبه ، فأطلق منه لسان الاعتذار ، وعزم على الاوبة إلى مباهج الفطنة ، ولكن لان الشرع اعطانا حق ازالة اسباب الضرر التي توضع عبر طريقنا ، وانما نحن بناة منارات هدى ، ليس لذي معاكسة ان يزاحمنا في طريق مهنتنا التي شغفناها حباً في هذه الحياة ، وما مـــن مخلص الا ومتاعب الامة تخاطبه ان يساعدنا ويشد ازرنا ، او يدعنا نوقد الانوار ، ونواصل رفـــع القواعد من :

● المنار السابع بعد العشرين الناشر لاشعاع :

* الاتعاظ بالتاريخ :

فان التاريخ يكشف لنا عن دور اليهود في تجريح القيادات المسلمة كلما رأوا نجاحها وفشل اساليبهم الاخرى في محاربة الاسلام ، بل أصبح النيل مـــن القادة ، ومحـــاولة تحطيم مكانتهم المعنوية في نفوس المسلمين ، هو الاسلوب المفضل عندهم .

انه (التماسك حول العقيدة القويمة والقيادة الامينة هو الذي يتعب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة ــ في كل زمان ــ

وهو الذي يكلفهم الجهد والمشقة ، ومن ثم تتجه جهودهم اولاً لتحطيمه .)[1]

وتوضح الفتنة التي حدثت زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه هذا الدور والتخطيط اليهودي جلياً ، ودورانه حول محور واحد هو : افساد طاعة الجنود لامرائهم .

فقد كانت لعثمان رضي الله اجتهادات في امور بسيطة استغلها المغرضون في التشنيع عليه والباسها لبوس الإحداث في الدين ، مثل اتمامه الصلاة في منى أيام موسم الحج ، وحرق المصاحف التي تخالف مصحفه الذي دونه كبار قراء الصحابة باشرافه ، وانهائه نفي الحكم بن أبي العاص ورده إلى المدينة بعد أن أبعده النبي صلى الله عليه وسلم عنها . وله خطبة اثبتها ابن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) بين فيها صواب اجتهاداته هذه .

ولكن اليهود رصدوا هذا الاختلاف البسيط في الصف المسلم ، فدسوا رجلاً منهم تظاهر بالاسلام ، اسمه عبد الله ابن سبأ ، ليطور الخلاف إلى فتنة عارمة .

يقول الطبري في تاريخه :

(كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أصل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٢ .

فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند احد من اهل الشام فأخرجوه حتى اتى مصر .)

لكنه كان يتسقط خلال رحلته هذة كل سارق وقاطع طريق ومفسد نالته عقوبة من احد الولاة فتوترت نفسه ، ويواعدهم أن يكونوا بالمدينة أيام يكون الناس حجاجاً بمكة ، لينقلبوا على عثمان والناس غافلون .

وضع لهم خطة اوجزها بقوله لهم :

(انهضوا في هذا الامر ، فحركوه ، وابدأوا بالطعن على امرائكم ، واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الامر .) (1)

هكذا ، باسم الامر بالمعروف يكون الهدم .
انها الخطة الدائمة لكل ذي هوى .
وباسم مصلحة الدعوة تتطور الخلافات اليوم إلى فتن .
ثم كان من ابن سبأ أن :

(بث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الامصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وجعلوا يكتبون إلى الامصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه اولئك في

(1) تاريخ الطبري ، الطبعة الأولى ، القسم الاول ٦/٢٩٤٢/٣٠١٨/٣٠٢٠

أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الارض اذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ، فيقول اهل كل مصر : انا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء .) [1]

وبهذا فسدت النفوس ، وحان يوم انقلابهم ، فاذا بهم حول دار عثمان يحاصرونها ، ثم دخلوا عليه وانفردوا به ليأتوا بالعجائب ! !

(فضربه الغافقي بحديدة معه ، وضرب المصحف برجله ، فاستدار المصحف واستقر بين يديه ، وسالت عليه الدماء .) [2]

(فسال الدم على المصحف وهم في ذلك يهابون في قتله ، وكان كبيراً ، وغشي عليه ، ودخل آخرون ، فلما رأوه مغشياً عليه جروا برجله ، فصاحت نائلة وبناته ، وجاء التجيبي مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه ، فوقته نائلة ، فقطع يدها ، واتكأ بالسيف عليه في صدره ، وقتل عثمان رضي الله عنه .) [3]

(وأما عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات قال : فأما ثلاث منها فاني طعنتهن اياه لله تعالى ، وأما ست فلما كان في صدري عليه .

وأرادوا قطع رأسه ، فوقعت نائلة عليه وام البنين ، فصاحتا وضربتا الوجوه ، فقال ابن عديس : أتركوه . واقبل عمير

---

(١) (٢) (٣) المصدر السابق

بن ضابىء فوثب عليه ، فكسر ضلعاً من أضلاعه .) [1]

فبربك : اهذا خلاف بين مسلمين ام مجزرة شيوعية كمجزرة الموصل؟ هكذا اعداء هذا الاسلام دوماً .

يريدون قطع رأس الجماعة ، وكسر أضلاع تنظيماتها ، والمبرر : (لله) ، كما قالها ابن الحمق !!

وبصيحة (لله) هذه ضاع الوف من شباب الدعوة بالامس القريب ، وثبطت جموع ، وكشفت أسرار ، وملئت سجون .

ولو صدقوا لقالوا مثل ما قال ابن الحمق مستدركاً : (ست لما في الصدر) !!

وأراد أهل عثمان دفنه .

(فلما سمع بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة ، وخرج به ناس يسير من اهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يقال له : حش كوكب ، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم ، فلما خرج به على الناس رجموا سريره ، وهموا بطرحه .)

ذلك انهم منعوا دفنه بالبقيع وقالوا :

(والله لا يدفن في مقابر المسلمين ابداً .) [2]

وقتل مع عثمان عبدان دافعا عنه ، (فجر بأرجلهما ، فرمي بهما على البلاط ، فأكلتهما الكلاب .) [3]

---

(١) الكامل لأبن الأثير ١٧٩/٣ .

(٢) (٣) تاريخ الطبري ٣٠٤٦/٦/٣٠٤٩ .

فانظر كيف تطور الاعتراض على الاجتهادات إلى قتل ، وكسر ضلوع ، وتمثيل ، وطعنات ، ودفن في مقابر اليهود ، وتقديم جثث اعزها الله وكرمها طعاماً للكلاب ! !

فهل يأمن المخلصون اذا لم يسلكوا سبيل الاعتراض الصحيح اليوم ومالوا إلى تشهير وافتتان ان تنتهي اعتراضاتهم إلى اضرار كبيرة ؟

لا والله ، فأن من شأن الفتن دوماً انها تتطور وتفلت السيطرة عليها .

والفطن من وعظه التاريخ ، وسارع إلى تناوش قبس من :

● **النور الثامن بعد العشرين المتوقد بجمال :**

* **الاعراض عن الجاهلين .**

فان الخارجين يديمون الاحتكاك بأفراد الجماعة كي يبقوا مادة لتماسكهم ، ولا بد من تفويت مقصدهم بالسكوت وعدم الالتفات إلى تحرشهم ، مع نظرة رأفة ورحمة لهم تقود لسان احدنا إلى أن يقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

فمن اخلاقه صلى الله عليه وسلم انه كان لا يغضب لنفسه قط ، وهذا يوجب على الداعية ان سمع كلمة تعريض به ان لا ينفعل ، فان المكر السيء لا يحيق الا بأهله ، وقد قال الله تعالى عن نفسه (وهو يتولى الصالحين) ، والاعراض عن الجاهلين

معنى من معاني الصلاح قطعاً .

وليعلم الداعية ان مدافعة الخصوم لا تكون أشد من مدافعة الاعداء في ساحات القتال ، والمدافعة في ساحة القتال لا تكون بالالتحام دائماً ، وانما هناك الاختفاء والسكوت ايضاً . ولما نادى أبو سفيان المسلمين في معركة أحد بأعلى صوته : هل فيكم محمد ؟ هل فيكم أبو بكر ؟ هل فيكم عمر ؟ لم يجبه احد ، مع ان الجواب كان ابعث للغيظ في قلب ابي سفيان من السكوت ولكن الموقف كان يستلزم السكوت .

فاذا حصل مثل هذا في سوح القتال فحصوله في الحياة اليومية أولى .

اننا أصحاب دعوة ايها الاخوة ، ولا يجوز أن ننزل عن مستوى دعوتنا الرفيع إلى حضيض التراشق برديء الكلام ، ولا يعذرنا الله اذا تركنا هذا المستوى العالي الذي اكرمنا الله به بحجه ان غيرنا جرنا اليه ، اذ المؤمن لا يترك درجة من درجات ايمانه باستغواء من شيطان او بجهالة من جاهل ، بل من الواجب ان نقول : اللهم اغفر لنا وله ، وأهدنا واياه ، ولا تجعل غضبنا لانفسنا ، ولا في عملنا شيئاً من أهوائنا .

فاذا قلنا ذلك فان سكينه غامرة ستتنزل على قلوبنا تزيد متعتنا باضواء :

● النور التاسع بعد العشرين حين يكشف لنا سبيل :

*** كبت الاشاعة .**

بعدما عاب الله اذاعتها في قوله :

(واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف اذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلاً .)

(والصورة التي يرسمها هذا النص ، هي صورة جماعة في المعسكر الاسلامي ، لم تألف نفوسهم النظام ، ولم يدركوا قيمة الاشاعة في خلخلة المعسكر ، وفي النتائج التي تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ، لانهم لم يرتفعوا إلى مستوى الاحداث ، ولم يدركوا جدية الموقف ، وان كلمة عابرة وفلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال ، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال ؟ او ربما لانهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر . وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك ، واذاعتها ، حين يتلقاها لسان عن لسان ، سواء كانت اشاعة أمن او اشاعة خوف ، فكلتاهما قد يكون لاشاعتها خطورة مدمرة ، فان اشاعة امر الامن مثلاً في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو .. اشاعة أمر الامن في مثل

هذا المعسكر تحدث نوعاً من التراخي مهما تكن الاوامر باليقظة لان اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الاوامر ، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية .

كذلك اشاعة امر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ، ثابت الاقدام بسبب هذه الطمأنينة ، قد تحدث اشاعة أمر الخوف فية خلخلة وارتباكاً ، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف ، وقد تكون كذلك القاضية .

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه ، او لم يكتمل ولاؤه لقيادته ، او هما معاً . ويبدو ان هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك ، باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الايمان ، ومختلفة المستويات في الادراك ، ومختلفة المستويات في الولاء . وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني .

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح :

(ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .)

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم ، الذي يقوده أمير مؤمن — بشرط الايمان ذاك وحده — حين يبلغ إلى اذنيه خبر ، ان يسارع فيخبر به نبيّه أو أميره ، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ، أو بين من لا شأن لهم به ، لان قيادته المؤمنة

هي التي تملك استنباط الحقيقة ، كما تملك تقدير المصلحة في اذاعة الخبر — حتى بعد ثبوته — او عدم اذاعته .) [1]

فمن ارته هذه الانوار طريقه فهو الموفق ، والا أوقدنا له :

● **النور الثلاثين كمحاولـــة اخيرة :**

وهو نور تحذيري أحمر اللون ينذر بالخطر البالغ ، ويشير إلى وجوب :

* **خوف تنكر الارض والمؤمنين للخوالف .**

فكل امريء لاقي الذي كان قدما ، وكل امرىء يجزى بما كان ساعياً ، وجل حصاد المرء من حيث يزرع .

فمن خالف الجماعة فانه لن يجد الا وحشة ، حتى قال كعب التائب رضي الله عنه :

(تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف) .

(فتتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو ، ولا كأن اهلـــه وأصحابه ومن يشفق عليه بالذين يعرفهم ، وهذا سر من الله لا يخفى الا على من هو ميت القلب .) [2]

(والخوف والهم مع الريبة ، والامن والسرور مع البراءة من الذنب .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/١٧١ .
(٢) زاد المعاد ٣/٢٠ .

فما في الارض أشجع من بري ... ولا في الارض أخوف من مريب

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير اذا ابتلي به ثم راجع .)[1]

وانه لمما يحرص عليه المؤمن العاقل ان يكثر من يحبه من المؤمنين ويديم محبتهم له حتى ساعة موته ، ليصلوا على جنازته فيقولوا : : اللهم اغفر لحينا وميتنا ، اللهم اغفر لنا وله .

وهذا ما يحرص عليه كعب بن مالك التائب رضي الله عنه ، فانه وصف نفسيته ايام المقاطعة فقال :

(ما من شيء اهم إليّ من أن أموت فلا يصلي عليّ النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني احد منهم ، ولا يصلي عليّ .)[2]

فالذي لم تعجبه قواعدنا وموازيننا وأنوارنا السابقة ، ويتأول لخلافه مع ذلك بعض التأويل ، مدعو إلى أن يرهب مقاطعتنا له ، الا يموت من غير مستغفر له من الدعاة .

ذلك ان الفقهاء اجازوا لنا ترك السلام على مقارف الذنب ، وترك رد السلام عليه ، تأديباً له . وخلع البيعة ، ونكث العهد ، من أكبر الذنوب .

نعم ، يجب أن نوقع هذه العقوبة بحذر بالغ ، وبأمر الامير

---

(١) زاد المعاد ٣/٢٠ .

(٢) صحيح البخاري ٦/٨٨ .

لا بمبادرة من الاتباع ، ولكن الفقه اجازها استثناء من الامر بافشاء السلام ، لتعلقها بمعنى الردع والتأديب .

قال أبو داود :

(اذا كانت الهجرة لله فليس من هذا شيء ، وان عمر بن عبد العزيز غطى وجهه عن رجل .)

قال :

(وابن عمر هجر ابنا له إلى أن مات .) [1]

وقد خصص البخاري اكثر من باب في صحيحه لبيان جواز ذلك فقال :

(باب : هل للامام ان يمنع المجرمين وأهل المعصية من الكلام معه والزيارة ونحوه ؟) [2]

ثم أورد حديث الثلاثة الذين خلفوا كجواب على سؤاله ، تدليلاً على الجواز .

وقال أيضاً :

(باب ما يجوز من الهجران لمن عصى .) [3]

وأورد حديث الثلاثة ايضاً .

وعلى ذلك مضى فعل العلماء ، وعلى الاخص هجرهم لمن يبتدع .

---

(١) سنن أبي داود ٥٧٧/٢ .

(٢) (٣) صحيح البخاري ١٠٢/٩ ، ٢٦/٨ .

بل كانوا يهجرون اشقاءهم ، كما حدث للمحدث الصدوق الثقة احمد بن حرب الموصلي ، اذ :

(هجره اخوه علي لمسألة اللفظ)[1]

أي لقوله : لفظي بالقرآن مخلوق ، مع ان قوله هذا تحتمله مذاهب اهل السنة ، ولكن جهره به في وقت شاعت فيه بدعة خلق القرآن اجفل اخاه فانكر عليه وهجره .

وكان ابراهيم بن المنذر الحزامي المدني من ثقات العلماء ، ومن شيوخ البخاري وغيره ، ولكنه اثناء محنة خلق القرآن لان وخلط ، فذمه احمد ، ولم يرد عليه السلام .[2]

ومن مثل هذا استدل ابن تيمية مشروعية الهجر للمخطىء وان كان من اهل الفضل في جوانب اخرى .[3]

وكل هذا مما فصله الحافظ ابن حجر بتفصيل جيد ، فقال :
(ذهب الجمهور إلى انه لا يسلم على الفاسق ولا المبتدع .)
قال :

(وقال المهلب — احد شراح البخاري .— : ترك السلام على اهل المعاصي سنة ماضية ، وبه قال كثير من اهل العلم في أهل البدع ، وخالف في ذلك جماعة .)

(وألحق بعض الحنفية بأهل المعاصي من يتعاطى خوارم

---

(١) (٢) تهذيب التهذيب ١٦٧/٢٣/١ .
(٣) مجموع فتاوى أبن تيمية ٢٧٧/١٠ .

المروءة ، ككثرة المزاح واللهو وفحش القول والجلوس في الاسواق لرؤية من يمر من النساء ، ونحو ذلك. وحكى ابن رشد قال : قال مالك : لا يسلم على أهل الاهواء . قال ابن دقيق العيد : ويكون ذلك على سبيل التأديب لهم ، والتبري منهم .)

ثم قال :

(وقال النووي : واما المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً ولم يتب منه فلا يسلم عليهم ولا يرد عليهم السلام ، كما قال جماعة من اهل العلم . واحتج البخاري لذلك بقصة كعب بن مالك .)

قال (وهو مما يخص به عموم الامر بافشاء السلام عند الجمهور .) [1]

وليس ترك الجماعة والنزاع معها وعصيان اوامرها بأقل من هذه الذنوب التي ذكرها جمهور الفقهاء . والتحلل من الوفاء ببيعة واجبة من اكبر خوارم المروءة فوق كونه حراماً .

فانظر لنفسك ايها المخالف .

ان كنت تتأول لنفسك وتأبى التغافر والالتفات إلى عيب النفس ، وتلزم النجوى ، والجدل ، ولا تقيس حالك على التعرب بعد الهجرة ، ولا تريد الاتعاظ بالتاريخ ، ولا تتقي

---

(١) فتح الباري طبعة الحلبي ٢٧٨/١٣ .

طبايع اخر الزمان ، فهلا ترفق بحالك ازاء مؤمنين سوف لا يسلمون عليك ولا يستغفرون على جنازتك يوم موتك ؟

فاحفظ مصلحتك ، وتواضع ، وامش مع القافلة ، نحفظ لك حقك ما دمت حياً ، ونوصلك إلى قبرك باستغفار ، ولا ندع النائحة المستأجرة تنفرد بنعيك !

نهضة

٢١ العاشر

بلغنا أن زاهداً كان كثير الوصية والنصح لاصحابه ، يروي لهم كل يوم طرفاً من تجاربه في الحياة ، وتأملاته في طبايع النفوس ، فلما انهى حديثه ذات يوم قال له مقدم اصحابه لو اوجزت ايها الشيخ معناك في جملة تكون لنا شعاراً !

فقال الشيخ : نعم ، افعل .

فقام ، وكتب على الجدار الذي يجلسون عنده ، بخط كبير :

(لا تمضوا في طريق اليأس ، ففي الكون آمال .
ولا تتجهوا نحو الظلمات ، ففي الكون شموس .)

ثم انصرف .
فكانت الشعار .

حكمة تضع نفسها امامنا مع انتهاء استعراضنا للانوار

الثلاثين المختارة ، تشير إلى الاكتشاف الذي لا بد ان يصل اليه كل مشتغل بتربية النفوس ومعامل لها .

حقيقة يراها الجميع :

ان بعض النفوس تستلذ اليأس ، وتعشق الظلام ، لكن الامل من حولها واسع ، والنور غامر .

ولذلك وجبت هذه الربتة الخفيفة على كتف المطرق المطأطىء الملتفت ، تنبهه إلى سكينة قريبة منه لو تناوش ، وهالة جميلة فوقه لو رفع رأسه ونظر .

وهل اسطع من هالة شمس هذه الدعوة التي هو فيها ، وانصع بياضاً ، واشد لالأة ؟

بداية شجاعة ملأت الفراغ .

وفكر اتباعي لم تدنسه بدعة او فلسفة .

وشباب حفظته من الضياع .

وجهاد اليهود والانكليز .

ومحن تجددت فيها سنن الثبات ..

ونصر من بعد كل ذلك ينادي : ما كان يوماً ما بعيداً ، ولكن اشترط ان تمد له يد العاملين وتسعى اليه صفوف المنتظمين.

فمن لم ير كل هذه الشموس : تركناه إلى ظلامه وان كان عفيفاً طاهر الجوارح ، حفظاً لسمعة الصف المستقيم السائر ،

واتباعاً لوصية ذلك الشيخ الفاضل الذي حذر الامام البنا ، منذ أول ايام الدعوة ، من :

(الصالح الذي لا يحترم النظام ولا يقدر معنى الطاعة ، فان هذا ينفع منفرداً ، وينتج في العمل وحده ، ولكنه يفسد نفوس الجماعة : يغريها بصلاحه ، ويفرقها بخلافه .)

قال (فان استطعت ان تستفيد منه وهو بعيد عن الصفوف فافعل ، والا فسد الصف واضطرب **والناس اذا رأوا واحداً خارج الصف لا يقولون : خرج واحد . ولكن يقولون : صف أعوج .**

فاحترس من هذا كل الاحتراس .) [1]

فهذا اذا كان صالحاً لا يحترم النظام ، فكيف به ان كانت تسيره الشهوات ؟

• عقل تصرعه الشهوة !

الخطب اعظم حين ذاك ، حيث تتعطل القلوب عن وعيها ، والعقول عن موازينها .

ولاخطار مثل هذه الحالة : لفت الفقيه الوزير العباسي ابن هبيرة الدوري انظارنا ، فقال :

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية /٨٨ .

(احذروا مصارع العقول ، عند التهاب الشهوات .) (١)

وسماه : مصرع العقل ، للدلالة على ان مراده يتجاوز مجرد مصرع البدن بالزنا وامثاله ، وانه يعني ما هنالك من حب رياسة ، وهوى وانتصار للنفس ، تفقد العقول معها فطرتها التي تسوقها إلى تحري المصالح ودرء المفاسد .

وصريع الشهوة لا تنفع معه مجرد تلك الربتة التي ربتناها على كتف اليائس ، وانما يحتاج إلى هزّة ، في لوم يوقظه من سنة النوم .

فمن يلق خيراً : يحمد الناس أمره
ومن يغو : لا يعدم على الغي لائمـــا

او قل : يحتاج إلى النصيحة الصريحة ، والتي لصراحتها يراها البعض غليظة .

وليست هذه الصراحة عند ذي اللب والايمان مما ينكر علينا ، وهي عنده من العدوان عليه ، بل هي من تمام الحب له والشفقة عليه ، فان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وربما يتغلب شيطان على داعية في ظرف شبهة فيفقده اتزانه ، فهو بحاجة من بعد إلى نصح وتذكير بالموازين .

ومن هنا كان خير الدعاة : ابذلهم للنصيحة ، واكثرهم

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/٢٧٥ .

اذاعة بها . ويقارنه في درجته : احملهم لغلظة النصيحة ، واعظمهم قبولاً لها .

• رسالتان

ولقد كانت يوماً ما قصة نصح ، عبر رسالة ، من صاحب خير من هؤلاء الدعاة ، قابلتها قصة صحوة واعتذار ، من جواد كانت له كبوة .

وفي القصص لاولي القلوب الحية مواعظ وعبر ، وربما تنبه مخطىء اذا رويت له ، فيكون له فيها بعض مزدجر .

وتبدأ القصة بهفوة من داعية ، بعد دهر من الحب ، يترك معها الجماعة ، ويخلع البيعة وينشر قيل وقال ، فيعاقبه اميره ، ويعاتبه ، ويذكره بتفاهة الدنيا ، ويكتب اليه أن :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء .
اما بعد ايها الاخ هدانا الله واياك .

فانه مما ادركنا من كلام السلف الاول ان الله تعالى اذا اراد بعبد من عباده خيراً : جعل فيه ثلاث خصال :

الفقه في الدين .
والزهادة في الدنيا .
والبصر بعيوبه .

وأود أن نتصارح اليوم ونتكاشف ، لعل الله يجعل لك بعد ذلك من امرك رشداً ويسراً ، فترجع إلى سربك ، وتحفظ ذخيرة أسلفتها من ضياع يهددها .

أدعوك إلى أن ترجع بذاكرتك ان استطعت إلى أول هذا الخلاف الذي تدندن فيه ، وأن تخبر قلبك بصدق عما سترى .

سترى ان بداية ما تلح فيه كانت كلمة همس ، وضعها واضع في اذنك ، فغلى بها صدرك .

وما اخالك تستطيع نسبة شيء من الاجتهاد في امور الدعوة مما تخالفنا فيه إلى نفسك قبل تلك الهمسة .

أفترضى ان تسلب ذاتك استقلالها بهذه البساطة ، ثم يضيق صدرك ان ذكرناك وعاتبناك ؟

كلا ايها الاخ ، كلا .

فمن اجل واش كاشح بنميمـــة
مشى بيننا صدقته لم تكــــذب
وقطعت حبل الوصل منا ، ومن يطع
بذي ودد قول المحرش : يعتـــب

بل لا بد عندنا من هذا العتب ، ولا نسلمك لشيطانك بسرعة .

واخبرني :

بأي سنان تطعن القوم بعدمـــا
نزعت سناناً من قناتك ماضيا ؟

فانت قد نزعت رابطة العمل الجماعي من قناتك ، وهي ليست سناناً ماضياً فحسب ، بل كل سلاحك الذي تصول به وتجول .

افتخدع نفسك ؟

وكيف ترى في عين صاحبك القذى
ويخفى قذى عينيك وهـــو عظيم ؟

فتحاسبنا عن صغائر لا يخلو منها مجتهد ، ولو شئنا ان نذكرك بنقص بعد نقص بدر منك لاسكتناك !

ولكنا لسنا بحاجة إلى أن نروي سوابق برودك .

وانما نقول : انى اعتراك لما خالفتنا هذا الدأب الواضح ؟

هلا تناهيت وكنت امرا　　　يزجرك المرشد والناصح !

او لا ترى ما انت فيه من الافتتان : انقاصاً لعدد العاملين ، وتوهية لركن كل داعية ، وفتّاً في عضده ، واشماتاً لعدوه ؟

فاتئد ، وتدبر امرك .

واني مذكرك بالله تعالى ، فارجع اليه ، وخل الهوى .

وثق ان الدنيا بعد الدعوة لا تكاد تعدل جناح بعوضة عند اللبيب الذي ذاق لذة التعب والبذل لها .

افترى في دنياك النعيم ، وتنسى انه عديم !
ام تحسبها الغناء ، وهي عن قريب إلى فناء !
ام تظنها سلم الارتفاع ، كأنك تجهل ما فيها من قصص الاتضاع !
ام فيها يوم يوثق له بغد !
لا والله .

وإنما نحن وإياك لكما قال الشاعر

• كلانا عالم بالترهات •

فانك تعلم رخص ثمن ما انت مقدم عليه ، وانه ترّهات ، ولكن الانتصار للنفس يوهمك .

والامر اهون مما تظن ، ومن غشك فأقعدك في بيتك قد ظهر لك تدليسه ، فتب ، تجد باب الدعوة مفتوحاً ، وكل ارضها مدارج ، لمن اراد المعارج .

فاستعذ بالله ايها الاخ من الفتن ، واطلب نصيحة الخبراء ، ونق نيتك مما علق بها من شوائب ، واتق الله عند غضبك ، وابعد بنفسك عن تأويل يستدرج .

وليسعك التغافر ، وسارر في نصيحة القادة .

واحرص على نجاة نفسك ، والتفت إلى عيبك ، وانظر صواب الدعاة ان نبهك احد إلى اخطائهم ، وعلق تضحيتك على امر قادتك .

وأمسك عن الجدل ، والنجوى ، والغدر ، وصن اذنك عن أستماع الغمز .

واتعظ بالتاريخ ، وباستكبار الشرع لتعرب المهاجر .

وبالغ في الصدق ، ولا تحتجن بزلات السلف ، واعلم بان الله لا يصلح عمل المفسدين ، وان الجندية هي طريق القيادة .

واحذر طبايع اخر الزمان ، وخف تنكر الارض والمؤمنين للخوالف .

والا .... هجرناك .

وانت ، انت البادىء .

ولا تجزعن من سنة انت سرتهـــا
فأول راض سنة مـــن يسيرهـــا

ولعلك ستجرب العمل مع من سبقك بالخروج ، فلا تجد ثم الا غليظاً ، او متهوراً ، و مبتدعاً .

كلام خبير ناصح امين اقوله لك :

لست ارى واجداً بنا عـــوضا
فاطلب وجرب واستقص واجتهد

ولقد كان يكفيك ما انت فيه من سير في الطريق السهل المشرق ، لكنك حملت نفسك مركباً من العبء باهضاً ، وسقتها لشغب انت في غنى عنه ابدا .

وانها كلمة نصح اخيرة اقولها لك :

السهل اهون مسلكـــــا فدع الطريــق الاوعــرا
واحفظ لسانك تسترح فلقد كفى ما قد جرى
ولقد نصحتك واجتهد ت ، وانت بعد تخيرا .)

فلما قرأ المخطىء رسالة أميره هذه ، وتدبر ما فيها : استيقظت فطرته ، ورجع إلى طرف لسانه طعم حليب طاهر رضعه ، فأمسك بقلمه يكتب أن :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

قد بلغتني الرسالة ، فما وجدت فيها الا حقاً .

ولا أدري ما أقول ايها القائد المطاع ، فاني قد ادركت هفوتي منذ ايام ، ولكن الحياء منعني ان اتوجه اليكم باعتذار .

ولقد اصبحت فجأة لاجد نفسي وحيداً اتلفت ، فاذا مظاهر الجاهلية من حولي ترهبني بعد اذ كنت عزيزاً بانتسابي إلى هذه الدعوة المباركة ، شجاعاً مستصغراً لكل جبار عنيد .

فاذ اخوتي حولي ، واذ انا شامخ بصافية الافكار ، والنفس في شمم : اتاني الواشي بعد الواشي ، فصدقتهم ، فكانت تلك العثرة مني .

تكنّفني الوشاة فأزعجوني فيا لله للواشي المطـــــاع
فاصبحت الغداة الوم نفسي على شيء وليس بمستطاع
كمغبون يعض على يديـه تبين غبنــه بعد البيـــاع

وكيف أصف لك شعوري يومها وقد صرت كما صار كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف فقال :

(اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم : احزنني اني لا أرى الا رجلاً مغموصاً عليه النفاق .) (١)

فما من خارج عن الجماعة من قبل ، كنت اعلم ضعف يوم كانت قدمي ثابتة ، الا واصبح يحتفل بي اذا رآني ، ويهش بوجهي ، ويبتسم ابتسامة تلذع قلبي .

وانه لدرس لي ، كان ، وعفا الله عما سلف ، واحمد الله تعالى على ما هداني اليه اولا ، حين كنت ناشئاً في هذه الدعوة ، وأخيراً حين زلت قدمي بالامس فبصرني عيبي ويسر لي التوبة اليوم ، ثم أحمده لما كان بين ذلك من حفظ وتربية وتأديب .

ايها القائد المطاع :

أملي أن تقبلوا عذري ، مؤكداً اني الآن قد :

صحا قلبي ، وعاد إليّ عقلي

واقصر باطــلي ، ونسيت جهلي

راجياً نسيان ما حدث ، اذ لعلها كبوة جواد . والسلام عليكم ورحمة الله .)

---

(١) صحيح البخاري ٦/٥ .

تلك قصة عتاب واعتذار .

وهل لهذا القائد غير ان يقبل عذر المعتذر بعد اذ بلغه قول النبي صلى الله عليه وسلم : اقيلوا ذوي الهيآت عثراتهم ! [1]

● صلح ذوي الراحات

لكن الذي يرفض النصيحة : يبقى صريع شهوته ، فيفضحه عيبه ، فتشير اليه الاصابع ، فيفتش عن مثيل ، فتتكون جمهرة ناشزة ، تبدو من خارج كأنها متآلفة ، وعوامل التناقض تتصارع داخلها .

وهذا هو صلح الافتضاح الذي اكتشفه الفضيل بن عياض لما وصف انفاراً من الاضداد تحالفوا فقال :

(افتضحوا فاصطلحوا)

فلكل منهم عيوب ، فهم مصطلحون على ترك التناصح بينهم ، متفقون على تدليس عيوبهم وتغطيتها بلبوس الصفة الجماعية .

وهذه الظاهرة تكشف لمن يعرفها خلفيات كثير من الفتن التي الهت الدعوة ، وتبين أصول انطلاقها وتطورها .

وغالباً ما يكون فقدان القدرة على العمل التجميعي والتربوي هو العيب المشترك المؤدي إلى ظاهرة صلح الافتضاح هذه ،

---

(١) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/٣٨٢ .

فان الضعيف يهوى ان ترتفع منزلته في الدعوة بتناسب طردي مع قدم انتسابه وارتفاع منزلته الوظيفية أو الدراسية أو الاجتماعية ، وللدعوة انظمة واعراف وشروط تمنع تولية من لا يبرع في اعمالها وتنفيذ خططها ، أو من يتوارى ويؤثر الراحة ايام التضحية ، فتصطدم رغبة الضعيف بالاسباب التي تحول دون تحقيقها ، فيكون الافتتان عند ضعف التقوى .

وخطاب الشاعر القديم لبعض المفتتنين يبعثه استشعاره لهذه الحقيقة لما يقول لهم :

فانتهوا ان للشدائد اهلاً   وذروا ما تزيـــن الاهواء

فهو يطلب منهم الانتهاء عن الغي ، ويدعوهم إلى الافصاح عما ستروه من دافع حب الراحة وتجنب المشقة .

وهو نفسه الدافع الذي حكاه القرآن عن المخلفين في سورة التوبة اذ يقول الله تعالى :

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر . قل : نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون .)

(ان هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الارادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز . وهم يتساقطون اعياء خلف

الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والاشواك ، لانها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والاشواك فطرة في الانسان ، وانه الذ واجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال .) [1]

(هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد – في ساعة العسرة – وتخلفوا عن الركب في أول مرة . هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يرجون لجهاد ، ولا يجوز ان يؤخذوا بالسماحة والتغاضي ، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذين تخلوا عنه راضين :

(فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي ابداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ، انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين .)

(ان الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق . والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد ، لانهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثم يعودون اليه في ساعة الرخاء . جناية على الصف كله، وعلى

---

(١) في ظلال القرآن ١٠/٢٦٤ .

الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير .

(فقل : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً .)

لماذا ؟

(انكم رضيتم بالقعود اول مرة .)

ففقدتم حقكم في شرف الخروج ، وشرف الانتظام في الكتيبة والجهاد عبء لا ينهض به الا من هم له اهل، فلا سماحة في هذا ولا مجاملة :

(فاقعدوا مع الخالفين .)

المتجانسين معكم في التخلف والقعود .

هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، وانه لطريق هذه الدعوة ورجالها ابداً .) [1]

● فتاوى الفقهاء في تنقية الصفوف

وهو الطريق الذي فهمه اعيان فقهاء الاسلام منذ صدر الاسلام وعلى تعاقب القرون فارشدوا قادة المسلمين إلى تطهير الصف من المخذل والمثبط والمرجف ، والتشدد في انتقاء الجنود.

فمثال كلام السلف الاول في ذلك استعراض الامام الشافعي في كتاب الام لحوادث تخلف المنافقين المتتالية عن

---

(١) في ظلال القرآن ١٠/٢٦٥ .

المشاركة في الغزوات النبوية الكريمة ، وتنبيهه إلى أن من يشتهر في اجيال المسلمين بعد ذلك بمثل ما وصف به اولئك المنافقون فان امره يقاس عليهم ويعاقب بمثل ما عوقبوا به .

يقول الشافعي :

(غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغزا معه من يعرف نفاقه ، فانخزل يوم أُحد عنه بثلثمائة ، ثم شهدوا معه يوم الخندق فتكلموا بما حكى الله عز وجل من قولهم : ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً . ثم غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني المصطلق فشهدها معه عدد ، فتكلموا بما حكى الله من قولهم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . وغير ذلك مما حكى الله عز وجل من نفاقهم . ثم غزا غزوة تبوك فشهدها معه قوم منهم نفروا ليلة العقبة ليقتلوه ، فوقاه الله عز وجل شرهم وتخلف آخرون منهم فيمن بحضرته ، ثم انزل الله عز وجل في غزوة تبوك او منصرفه عنها — ولم يكن في تبوك قتال — من اخبارهم فقال : ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين .

قال الشافعي : فأظهر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم اسرارهم وخبر السماعين لهم وابتغاءهم ان يفتنوا من

معه بالكذب والارجاف والتخذيل لهم ، فأخبره انه كره انبعاثهم فثبطهم ، اذ كانوا على هذه النية ، وكان فيهم ما دل على أن الله عز وجل امر ان يمنع من عرف بما عرفوا به من ان يغزو مع المسلمين ، لانه ضرر عليهم .

قال الشافعي :

فمن شهر بمثل ما وصف الله تعالى المنافقين : لم يحل للامام ان يدعه يغزو معه ، لطلبه فتنتهم وتخذيله اياهم وان فيهم من يستمع له بالغفلة والقرابة والصداقة ، وان هذا قد يكون اضر عليهم من كثير من عدوهم .) (١)

واستمر الفقه على هذا حتى استلم رايته ابن قدامة المقدسي فقال :

(ولا يستصحب الامير معه مخذلاً ، وهو الذي يثبط الناس عن الغزو ويزهدهم في الخروج اليه والقتال والمشقة ، مثل ان يقول : الحر أو البرد شديد ، والمشقة شديدة ، ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش ، واشباه هذا .

ولا مرجفاً ، وهو الذي يقول : قد هلكت سرية المسلمين وما لهم مدد ، ولا طاقة لهم بالكفار ، والكفار لهم قوة ومدد وصبر ولا يثبت لهم احد ، ونحو هذا .

ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار واطلاعهم على

---

(١) الأم للشافعي ٤/٨٩ .

عورات المسلمين ومكاتبتهم باخبارهم ودلالتهم على عوراتهم او ايواء جواسيسهم .

ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد ، لقوله تعالى : ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة .

ولان هؤلاء مضرة على المسلمين فيلزمه منعهم .)[1]

وهذا من الكلام الحق الذي لا يستغربه المعالج لسياسة الجماعات .

● غرور الفقيه يمنع تأميره

واما من يستغرب مثل هذا الكلام ، ويستصعب قياس احوال مفتتنة اليوم على احوال المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاننا على استعداد لكي نسير معه مرحلة فقهية اخرى لا خلاف فيها .

فلو تجاوزنا وصية الذي حذر الامام البنا من الرجل الصالح الذي لا يحترم النظام ، مما ذكرناه آنفاً ، ونصحه له بابعاده عن الصف ، فاننا نجد في فقه عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما يسوغ ابعاد الصادق صاحب الخير عن المسؤولية اذا كان

---

(١) المغني لأبن قدامة ٨/٣٥١ .

فيه نوع من حب الظهور والخيلاء، سداً للذريعة، وصيانه له من احتمالات الافتتان والجناية على نفسه وعلى الدعوة .

فقد روي ان الراشد الخامس لما ولي الخلافة ارسل إلى أبي عبيد المذحجي ، وكان فقيهاً ثقة في الحديث ، من شيوخ الاوزاعي ومالك ، وممن يستعين بهم الخليفة سليمان بن عبد الملك فقال له عمر :

(هذه الطريق إلى فلسطين ، وانت من اهلها ، فالحق بها .

فقيل له : يا أمير المؤمنين : لو رأيت ابا عبيد ، وتشميره للخير ! !

فقال : ذاك أحق ان لا نفتنه . كانت فيه ابهة للعامة .) (١)

فهي كلمة قالها عمر ، وبررها فعل عمر .

ولقادة الدعوة هذا اليوم ان يقولوا لكل داعية يتطلع للسمعة والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة مثل الذي قاله عمر لابي عبيد ، ويفهموه ان :

قد اخطأت بداية الطريق إلى مرادك ، فمررت بديار دعوة التواضع والبذل والالتزام الخططي وهذه الطريق إلى ديار اشكالك ، فالحق بهم .

---

(١) تهذيب التهذيب ١٢/١٥٨ .

٢٢ ــــــ أخيارٌ... ولا فخرٌ!

ومن العوائق : الهزيمة النفسية امام كثافة نقد المتهجمين ، حتّى ان الداعية ليظن بنفسه السوء .

ذلك اننا ما زلنا نسمع بين الفينة والفينة نقداً من الدعاة لانفسهم ، يتخذ أحياناً عند بعض متحمسيهم شكل تقريع ، يتهمون خلاله انفسهم بأنهم قصروا عن الوصول إلى منازل السلف ، وان بينهم وبين الصفات التي يحكيها التاريخ لنماذج السلف الصالح الاول من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين والتابعين وتابعيهم باحسان رحمهم الله ، بونا شاسعاً ، وان الفاحص يتلفت فلا يرى أحداً سما وعلا في أخلاقه وعبادته وجهاده إلى درجة يماثل بها أولئك النبلاء النجباء .

وقد يتخذ هذا التقريع بعداً اخر يتفرع منه ، يضع الدعاة في موقف المتهم لمناهج التربية الاسلامية الحركية ، ويحملها

مسؤولية هذا القصور .

ولسنا نشك في أن هذه الظاهرة ظاهرة صحية في مجتمعات الدعاة ، وان فحص النتائج ومعاودة الحساب فضيلة راجحة على السير الجزاف الذي لا يعطف المرء فيه إلى مناقشة العمل .

ولكن جمال هذه الظاهرة لا يكتمل الا بمناقشة وتقويم من قبل المجربين لما يطرح من تساؤلات وشكوك في هذا الباب ، وهذا ما يحدونا إلى أن نطلب من الدعاة مصاحبتنا خلال هذه الفقرات في عملية وزن للقضية ، نحاول أن نكون حكماً فيها ، يكشف حقيقة الرصيد الحاصل ، وطبائع النقص الواجب استدراكه .

والذي ندعو له ابتداء أن يرى الداعية الناقد لنفسه فروقاً واضحة بين جيلنا واجيال السلف ، وظروفاً قد تغيرت ، ولا بد من اخذ ذلك بعين الاعتبار حين البحث .

• طمع محرك ، ورحمة مغرية

فأول ما يبدو هنا من ذلك ان المربي بالامس غير المربي هذا اليوم ، فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون المهديون ، ومن وازاهم من قدماء المهاجرين ونقباء الانصار ، هم المربون لذلك الجيل السالف الذي فتح الله تعالى على يديه الفتوح العظيمة . وتلك بركة أنيل لها في خصوصية واضحة ، من لدن متفضل لطيف منعم سبحانه لا ينبغي لاحد

ممن بعد جيلهم أن يسمح لنفسه في أن يأمل عشرها فضلاً عن مثلها . بل لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الجيل الاوسط من الصحابة رضي الله عنهم أنهم لن يبلغوا نصيف مد أحد من رعيلهم الاول كما روى مسلم في صحيحه ، فكيف بمسلمة الفتح ومن تلاهم ؟

فكل متصد للتربية بعدهم ناقص ولا بد عنهم ، وانما فرضتنا الحاجة التربوية فوضعتنا في مقام الاستاذية بعضنا لبعض ، طمعاً في أن ننال بالتواصي الجماعي بالحق وبالصبر ما يمكن أن ينال من جميل الخصال الايمانية ، ومحاسن الصفات الاسلامية.

فنحن بهذا الطمع نتحرك ، من دون تطلع لمنافسة السلف الصالح ، فانهم قد استبدوا بالحظ الاوفر من الفضل ، وبالنصيب الاوفى من المحاسن ، ومتجرد عن الادب ذاك الخلف الذي يطيل عنقه تكلفاً ليصل برأسه إلى مستوى رفعتهم ، ولولا حديث (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) لفترت الهمم ، وركت العزائم ، ولكنها رحمة الله واسعة ، تطمع الطامع وتغريه ، فيتشبه بالكرام عسى ولعل .

• الهدم الصعب

ولو عكسنا رؤيتنا لجابهتنا حقيقة مقابلة لهذه ، تفصح عن أن المتربي هذا اليوم هو غير سلفه المتربي ، وليس المربي فقط ، فاليوم يشهد المجتمع تصارعاً بين مناهج تربوية مختلفة ، يقف

المنهج التربوي الاسلامي في خضم تصارعها ، ونجد الفرد الشاب الذي نحاول تربيته مختلط الفكر ، موزع القلب ، مضطرب النفس ، من جراء ما خضع لهذا الزخم الشديد المتناقض من مواد التربية التي تصبها عليه مناهج المدارس والجامعات ، وبرامج الاذاعة والتلفزيون ، ولغو الصحف والمجلات ، ولكلها تأثيرات تصادم كلام المربي المسلم ، وتؤثر سلباً على تلميذه .

أما جيل السلف فكان جيلاً بسيطاً فطرياً ، وكان العرب خاصة في عزلة عن الامم ، وما ثم الا شركهم بالله تعالى شركاً بدائيا غير معقد ، يعبدون خلاله الاصنام لتقربهم إلى الله زلفى ، وهم أهل صدق في المقال ، وعفاف في الجوارح ، قد غمرتهم خلوتهم الصحراوية بسكينة افتقدتها الامم ، ولم تكن لهم فلسفة جاهلية تناقض الاسلام الجديد ، ولا يعرفون الجدل في ذلك ، بل فيهم بقية من الحنيفية الابراهيمية ، حتى لقد كان زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله يجهر بالتوحيد عند الكعبة ، ويدعو العرب إلى ملة ابراهيم ، قبل أربع سنوات فقط من نزول القرآن ، فكان صنيعه وصنيع امثاله من آخر الحنيفيين المهديين ، ارهاصاً بين يدي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، بمثابة التمهيد واثارة تطلع العرب إلى الدين القديم الجديد .

ومن ها هنا ، فان جهود النبي صلى الله عليه وسلم ، وجهود اصحابه رضي الله عنهم ، في التربية من بعده ، قد أثمرت كلها

ولم يتبدد شيء من جهدهم سدى ، لجودة معدن المتلقي المتربي ، وخلو فكره عما يناقض ما يقال .

بينما نبذل اليوم جهداً كبيراً لاصلاح ما أفسدته التربيات المختلفة في نفوس تلاميذنا ، ونسلك معهم طريقاً طويلة لايصالهم إلى منزلة الحياد ، ان صح هذا التعبير ، لنبدأ من بعد ذلك باعطائهم مفردات الاسلام وهي عملية شاقة ، عملية استلال بقايا الجاهلية من نفوس المتربين التلامذة فبعضهم يحن حنيناً إلى شيء من طباعه الماضية وقد كنت تظن أنه قد استكمل الايمان أو قارب ، وكم من حيصة يحيصها المتربي قرب النهاية تعلم المربي ضرورة اطالة النفس في هدم تأثيرات ورذائل التربيات المعاكسة في نفس التلميذ الثاني اللاحق له قبل بناء قواعد الاسلام فيه .

ولا شك أن عملية الهدم والبناء عملية مزدوجة تتم في آن واحد ، ولا نريد أن يعترض معترض على الفاظنا هذه ، ولكنها الفاظ لا بد منها لتوضيح المعنى .

ومما يمكن ان نحتج به ونتخذه دليلاً في هذا الصدد ، ان الفرس وأمم الهند ، كانت لهم فلسفات جاهلية وكتب مدونة ، سببت اختلاط اسلام كثير منهم بالبدع حين أسلموا وعاند كثير منهم ، ولم تظهر فيهم نماذج عالية في حيازة صفات الاسلام بمثل كثافة ظهورها في العرب أول ما أفتتحت الفتوح ، مع أن المربي واحد ، وانما شاع فيهم الخير من بعد دهر طويل

نسوا فيه جاهليتهم تلك ، واندثرت معالم فلسفاتهم .

وتكررت هذه الظاهرة مرة أخرى في عصر الاسلام الاوسط حين دخلت شعوب جديدة في الاسلام كانت متأثرة بفلسفات الاغريق والرومان ، فلم يكثر فيهم النبلاء الا من بعد دهر .

كذلك نجد صدى هذه الظاهرة جلياً لما شاعت فى زمن المأمون ترجمات كتب أرسطو وأفلاطون ، فضعفت الهمم ، وندرت نماذج الخير ، حتى أن المتفحص للتاريخ ليجد صدوداً غريباً عن كتب سقراط لا يفهمه لاول وهلة ، ولكن عجبه يزول حين يعلم أن سقراط كان أقرب إلى التوحيد من أولئك ، فركنوه جانباً ، ولولا وقفة امام السنة أحمد بن حنبل لضعفت دولة الاسلام ، لكن الله رفأ به الفتق وسد الخرق .

ومرادنا من كل هذا : التنبيه على أن بعض جهودنا التربوية اليوم تهدر بلا سبب منا ، ولا سبب من المتربي ، ولكنها جناية الجاهليات المعاكسة على الجيل الحاضر .

● الخيرية المتناقصة

ومع ذلك فان احتمال ظهور نماذج تقابل نماذج السلف ممكن ، لكنهم لن يكونوا الا قلائل ، ويجب أن نوقن أن الله تعالى شاء ذلك ، واراده وكتب علينا أن نكون أقل استمتاعاً بجمال الاسلام عما كان عليه السلف ، فان الحديث الصحيح

ينطق بأن خير القرون قرنه صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

ولو جمعنا هذا الحديث إلى حديث «شرار الناس من تقوم عليهم الساعة وهم احياء» المروي في دواوين الصحيح أيضاً، لتبين لنا أن خيرية الاجيال في تناقص وتقلص مستمر، وان القدر قد جعل المنافسة من الآخر للاول مستحيلة، لكنها المقاربة والتسديد، من غير أن يدب إلى نفوسنا يأس في حيازة بعضنا لما حازته اجيال السلف من المكارم، فان عصابة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تزال ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، كما نطق الحديث الصحيح، ولا ندري أينا الموفق لان يكون فيها، وعلينا أن نصارع القدر بالقدر، كما أرشدنا إلى ذلك عبد القادر الجيلاني رحمه الله حين ذكر أنه قد فتحت له روزنة، أي فتحة مثل الشباك، فرأى سفينته تجري في بحر القدر تلاطمها أمواجه، فهو يصارع القدر بالقدر. ومما قدره الله لنا أننا في الجيل المتأخر المفضول، فنصارعه بقدر الخير المتمثل بالعمل على الانتساب لهذه العصابة، ونعمل لما يتيسر لنا، مدافعة وتحويلاً لقدر الشر المتمثل بتناقص الخيرية.

● جمال الفضائل سبب تخليدها

ولا يغيبن عن الاذهان ان الكتب التي عرفتنا بأحوال السلف قد أرخت الفضائل بأكثر مما أرخت نقص الناقصين، وما من شك في أن أساتذة التربية يميلون إلى تاريخ هذا النقص،

ليبتعد عنها الموفقون ، ميلهم إلى تاريــخ الفضائل ، ليقتدي بها المشمرون، ولكن في النفس الانسانية ميلاً إلى حب الجمال فطرياً ، مقتبس من حبه سبحانه وتعالى للجمال ، اذ هو جميل يحب الجمال ، كما في الحديث الصحيح عند مسلم ، كمثل ما أقتبس الله للانسان والحيوان شعبة من فيض رحمته الواسعة هو عز وجل ، فكانت كتب التاريخ ، لذلك اكثر اظهاراً للفضائل لجمالها ، من اظهار العور والنقص والحيصات ، فنحن نرى الصورة الفاضلة لمجموع اجيال السلف ، وغابت عنا هفواتهم بتأويل من تأول تغييبها ، جمعاً للقلوب ، وسداً لباب التناحر والفتن والطعن فيهم ، وهكذا اصبحنا نظن أن السلف أصحاب كمال مضاعف عما هو عليه أمرهم حقيقة .

وليس هذا من الطعن بالسلف بحال من الاحوال ، فانا قد قدمنا من الكلام ما ينفي هذا الوهم ، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى يزن المسلمين بميزان سورة الاحقافِ ، في قوله « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم ، في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، » ونعلم أن الله قد ذكر ذلك لنا ارشاداً وتنبيهاً وتأديباً وتعليماً ، وان من رجحت حسناته هو الراجح وقد عظم خيرهم . وفي التأول لهفواتهم مندوحة .

نعم ، انه ليس من الطعن ، ولكنها دعوة إلى الواقعية في فهم تاريخنا لا بد منها لتوضيح الجواب للذين يلومون

أنفسهم ، ودليلنا : ما ذكروه من أشياء على سبيل المدح عن آحاد منهم دون سائرهم ، من شدة التعبد ، وصلاح الباطن ، والشجاعة الفائقة ، ونحو ذلك فلو لم يكن المجموع قاصراً بعض القصور عن المستوى المثالي الذي وضعناه فيه ، لما تميز هؤلاء بالفعل المذكور عنهم .

وهذه الطبيعة في المؤرخين مستمرة تقتضيها صنعة التربية ، حتى أننا لو قرأنا بعض الصحف الاسلامية ترثي بعض خيار أموات المسلمين اليوم ، من الدعاة والعلماء والمجاهدين والمنفقين ، لرأينا أوصافاً تصور كأنها السلف ، بينما نحن نعرف بحكم معايشتنا لهؤلاء المرثيين هفوات وكبوات أغفل ذكرها من كتب رثاءهم ، لا من باب التدليس والتمويه والتزلف بل من باب تربوي بحت ، غايته اثارة الهمة في الأحياء للاقتداء بمحاسن فعالهم .

فقس ما كان يجري بين السلف من ذلك على ما يجري بيننا من هذا .

● التراجع يضعف الهمم

يضاف الى هذا أننا الآن في فترة اجتماعية وسياسية ميزتها التراجع والتدهور اذا قسناها وفق موازين التمدن ، وقد شاهد ابن خلدون في مقدمته ، وغيره من علماء الاجتماع ، أن أعمار الدول كأعمار بني آدم ، وأنها تبدأ بقوة وفتوة ،

ثم يستوي أمرها على نسق هادىء ، ثم يميل الى التأخر التدريجي حتى تنقضي تلك الدولة ، فتتأسس على أنقاضها دولة جديدة تأخذ الأمر بقوة وتستأنف الانتصار .

والاسلام قد مثلته خلال تاريخه دول متعاقبة انطبق عليها هذا الميزان ، وكل منها قد أجاد وأفاد ، وحمى الاسلام ، وفتح الفتوح ، فتأجج حماس المسلمين أبناء تلك الدول في فورات متعاقبة حفظت للاسلام حيويته ، كما أنه ليس من هذه الدول دولة الا وتورطت في هفوة أو تقصير يقابل احسانها.

وجيل المسلمين الحاضر يعيش فترة تراجع شديد بانقضاء عمر الدولة العثمانية ، تولد عنه فراغ ، بانتظار قيـــام دولة جديدة تمثل الاسلام . لا بد أنها آتية ان شاء الله . وفي مثل هذا الفراغ يضمحل الحماس ، فيبقى حماس الأفراد معتمداً على ذاتيتهم المحضة ووعظ الواعظين ، لا يظاهره أو يعينه الحماس العام السائد في كل دولة فتية ، الناتج عن انتصاراتها المبهجة لنفوس أبنائها .

وهذا ما يعطي من باب آخر شبه عذر نعتذر به لجيلنا الحاضر في تخلفه عن بلوغ الدرجات العالية وقصوره عن منازل السلف . ولقد مرت فترات في التاريخ الاسلامي شبيهة بهذه ، هي فترات نهايات الدول الاسلامية ، فكان الجهل يشيع ، وتبرد الهمم ، ثم تبدأ صعوداً آخر بمجيء دولة أخرى يحكمها مسلم موفق عالي الهمة .

وفي الأحاديث التي صححها الشيخ الالباني حفظه الله ما ينبي عن قيام خلافة راشدة في آخر الزمان ، كأننا في انتظارها الآن ، تجدد حيوية المسلمين وترفع مستوى جيلهم .

● اعتداد بلا غرور

ان هذه الحقائق توجب سلوكين :

السلوك الأول يخصنا نحن أبناء الحركة الإسلامية ، خلاصته أن لا نسرف في اتهام أنفسنا بأنواع الضعف ، وأن نوقن اننا على خير وفير كثير ان شاء الله ، وبفضل منه ومنّة .

نعم ، ما هو بالخير الكامل ، ولسنا كمثل السلف ، لكننا أهل عره ايمانية ترجع بنا بعد كل هفوة الى اصلاح الخطأ ، وعلينا أن نعتقد أن سبيل انماء فضلنا وتكميله ليس هو سبيل التقريع الشديد للنفس ، القاتل لها ، بل هو سبيل التوبة الشرعية مرة بعد مرة ، بعد مرة ، في أول مسارنا ، وفي أواسطه ، وفي أواخره ، فبالتوبة ، وبالتناصح ، وبالتواصي بالحق والصبر ، نسد ثغرات جدارنا ونكمل بناءنا .

وليس ذلك بغرور ، أعاذنا الله منه ، ولا هو إدلال بهذا القليل من العمل الذي نؤديه للاسلام ، لكنه المنهج التربوي الذي ينبغي لنا ويجب علينا ، حذراً من أن نقع في ما وقع فيه بعض علماء العصر الأوسط من السلف ، حين أكثروا التخويف ، وتوسعوا في ذكر الوساوس ومحبطات الأعمال ، حتى لف

الناس يأس شديد ، ولم يفتحوا لهم باباً من الرجاء يقابله .

● مجازات المواعظ لا تفهم بجمود

ويصدر بعض الدعاة في تضعيف أنفسهم ومن حولهم عن فهم جامد حرفي لكلام الحماسة الذي نعظهم به ، ويغفلون عن طبيعة المربين في ايراد المجازات والقصص التي يريدون منها تنويع التذكير والتفنن فيه ، ليكون أدعى لدخول القلوب ، من دون أن تكون نيتهم طلب التطبيق الحرفي من قبل التلميذ لما يريدون .

فلقد وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لم يضع لبنة على لبنة ، وما أرادوا حرفية ذلك ، فانا نعلم أنه قد كانت لكل زوجة من زوجاته حجرة ، ولم يكن يعيش في خيمة أو في العراء ، لكنهم أرادوا عدم تطاوله في البنيان ، وتواضعه فيه ، وعدم توسيعه مساحة بنائه . ثم يأتي متحمس من الدعاة اليوم يصفق بيديه ويسترجع ، حين يرى أخاً له يبني له داراً تستره في مثل هذه المعيشة المعقدة الحاضرة .

وروينا خبر فلان من السلف ، لم يكن يميز الدرهم من الدينار ، وانما أرادوا عزوف قلبه عن الدنيا ، وشدة انغماسه في العلم والعبادة ، ثم يجلس دعاة اليوم ، يعيبون أخاً لهم يمارس التجارة ، لم تصرفه صفقاته عن واجباته في الدعوة ، ولو تأملوا لوجدوا أن عدم معرفة الدينار من الدرهم بالأمس

يقابلها جهل جميع الدعاة اليوم جهلاً مطبقاً بما هنالك من مضاربات سوق الأسهم وتركهم ذلك في سبيل الله ، مرابطة مع خطط الدعوة .

وكذلك ما تداولناه من قبل من خبر ذلك التابعي الذي بنى له ولفرسه حصناً بالكوفة ، كأنه يبدي استعداده الجهاد ، فيأتي أحد اليوم يقلده في ذلك .

والناظر بعين العقل ، المتأني ، يعرف أن مقصد ذاك التابعي منصرف الى تربية الناس بمنظر عملي على معاني المرابطة للجهاد ، وإلا فانه لو كان يريد حرفية فعلته لبنى له حصناً في جبهات القتال ، وقد تجاوزت الفتوح في عهده بخارى وبلخ .

ومثله : ذاك الذي لما حدثت الفتنة وضع الطين على بابه وجعل بيته مقفلاً ، الا فتحة صغيرة يتنفس منها ويتناول الطعام ، فهو انما أراد بفعلته هذه أن يذكر الناس بمنظر عملي معنى اعتزال الفتنة كلما مروا به وسألوا عن سر هذا الباب المطين ، والا فالذي يريد أن يعتزلها يسعه أن يعزم عزمة ويدع أبوابه مفتحة .

فعلى اخواننا أن يثقوا بأنفسهم ، ويعرفوا أن الله تعالى قد تفضل عليهم وأسبغ عليهم نعمة من الايمان والعلم والعمل يجب اظهار شكرهم له عليها ، وما ثم الا دعاء له سبحانه بأن يتم لهم نورهم .

وصحيح أن أحدنا يجب أن تكون نفسه حساسة لأدنى

تقصير ، وأن نقول مراراً — اللهم انا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه — ، وأن نقول — نبوء بنعمتك علينا ونبوء بذنوبنا ، فاغفر لنا ، فانه لا يغفر الذنوب الا أنت — ، لكن هذه الحساسية لا تقتضي مقت النفس واتهامها الاتهام المسرف الذي يقتل فيها تطلعها الى الاقتداء بالسلف المهديين ، فان ذلك من العوائق .

● ليست الصغائر مثل الكبائر

ان الكثير من حساب نفوسنا ، ووزننا للآخرين من المبتدئين العاملين معنا ، نجنح فيهما أحياناً إلى التشدد الزائد عن حد الشرع .

ففي الشرع حرام محض بالغ الحرمة ، وفيه مكروهات وصغائر ولمم ، ويمكن تمييز كل فعل ودرجته من الاثم في ذلك من النص عليه ، أو من النظر الى القرائن والظروف ، ولكن البعض يستعظم كل الاستعظام أشياء من الصغائر يقترفها اخوانه لم تأت الآيات وكلمات النبي ﷺ مستعظمة لها بمثل ذلك بمقدار ما أتت تحث على التوبة منها ، وإتباعها بحسنات تمحوها ، من صدقة وصلاة ، والنظر الى رحمة رب رحيم يقبل أوبة المتورط فيها .

وانظر الزنا المحض والكذب مثلاً ، تجد الشرع متشدداً فيهما كل التشديد ، عاداً لهما في جملة الكبائر ، واعداً من

يبرأ في حياته منهما بالجنة ، وذلك قول النبي ﷺ ، فيما رواه البخاري : (مَن تكفّل لي بما بين فخذيه ولحييه : تكفلت له بالجنة .) ، أي تكفل بسلامة فرجه من الزنا الحقيقي الذي يكون فيه التقاء الفرجين ، وبسلامة لسانه من الكذب .

ومفاد ذلك أن النظر الحرام وما وازاه ، واللغو والتنابز وأمثالهما من الصغائر ، اذا خالطت تلك العفـّة ، فان الجنة تبقى غير بعيدة عن العفيف ، لا يلزمه لتمام قربها غير حسنات يسيرات يكون فيهن تكفير صغائره .

ويتأكد ذلك اذا علمنا أن الله تعالى قد كتب عدم الكمال على كل البشر في هذا الباب المتعلق بالزنا والكذب ، قدراً محتوماً عليهم ، يدرك كل انسان من مقدماتهما والصغائر المشتقة منهما شيئاً مهماً عفّ فرجه ، فان الحديث المروي في صحيح البخاري يذكر صراحة أن : (كل ابن آدم مدرك حظه من الزنا لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان المنطق .) ، فلا يوجد البريء براءة تامة ، بل هو مقارف لبعض فروع الزنا والكذب التي يصدق عليها اسمهما مجازاً ، لا محالة ولا مفرّ له من ذلك ، وان ترك تلكما الكبيرتين الحقيقيّتين . وذلك يوجب علينا أن لا نذهب في التشدد في توثيق مقترف هذه الصغائر إلى حد التزمّت وتضعيفه تضعيفاً مطلقاً ، بل نلتزم حد الشرع الذي ميّزها عن الكبائر . هكذا ، وقس على الزنا والكذب بقية الكبائر وفروعها من الصغائر .

ورب ظان يظن أن في مثل هذا الكلام من التساهل والتجريء للداعية على اقتحام اللمم والاكثار منه ما يولد مفاسد كثيرة ويهون أمر المعاصي عليهم فيستجيزونها ، وذلك وهم ، فان الكلام التربوي لا يفهم بتجزيء ، ونحن لا ندعو إلى ترك هذا التزمت ساكتين عن حقائق الشرع الأخرى ، بل نلح الحاحاً ، ونلهج لهجاً ، بتزيين الفضائل الايمانية والدعوة إلى التمسك بها والتنافس في الإكثار منها ، وغض البصر وترك اللغو من هذه الفضائل التي تميز الدعاة إلى درجات وطبقات ، ما بين متعفف عنها شامخ بعفته ، في رنوّ إلى حوريات الجنة ، كأنه يراهن في دنياه رأي عين ، فهو في الطبقات العالية ، وآخر فاتر الهمة في مقاومة الاغراء ، فهو في انشغال قلب ينزل به إلى الدرجات الدنيا ، كما نعظ المتساهل مع نفسه وعظاً بليغاً ، ونذكره بأن النظر وما ماثله من الزنا المجازي قد يجره بالتتابع ، وباستدراج من الشيطان ، في لحظة شهوة وغفلة ، إلى الزنا الحقيقي الذي يحرمه كفالة النبي ﷺ له بالجنة . كما نذكره بأن الذي يتصدى لمرتبة دعوة الناس وتعليمهم غير العامي من المسلمين ، فان الداعية تعظم منه الصغيرة ، ويكون بها في صد عن سبيل الله ، اذا اقتدى بهفواته المقلدون ، وفي صدود بغفلته عن ذكر وتسبيح كان منبغياً له وتساعده الخطة الجماعية عليه وقتما ألهته الصغائر ، وهذا الصدد والصدود شعبة تقرب من الكبائر بالنسبة اليه ، ويظل إثمها على الفرد المتسيب أو العامي دون إثمها عليه بكثير .

وفي قصة جريج العابد ، الواردة في صحيح البخاري ، مغزى جدّ كبير . ذلك أنه عصى أمه فلم يجبها ، انشغالاً بصلاة نافلة ، فدعت عليه بالشر ، وكان منتهى دعاؤها أن يرى وجه المومسات ، فكانت قصته مع البغي المتهمة له وهو من الزنا بريء . فالداعية المتوغل في طريق الدعوة ، المتجاوز لمرحلة الابتداء ، مثله مثل جريج في عبادته ، يكون من أقصى العقوبة له أن يرى امرأة زانية فضلاً عن أن يزني بها ، فتدبّر وتأمّل ! !

وكذلك يَرِد هنا في هذا السياق أيضاً التفريق بين المقل والمكثر من هذه الصغائر ، والمصرّ والمستغفر ، من باب ما ذكره الفقهاء من أنه (لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الإستغفار) .

وأيضاً ، فان النظر إلى المرأة المصلية الملتزمة المحجبة ، وهو الذي كان أكثر ما يعنيه الفقهاء ، غير النظر الذي تتيحه ظروف الحياة اليوم إلى المتبرجات بسبب سيرهن في الشوارع العامة أو أثناء مخالطتهن في الجامعة وأماكن العمل ، مما تكون فيه النظرة الأولى جالبة لثانية دون فضول .

وهذا الذكر لهذه الحقيقة الشرعية في أمر الزنا ، والدعوة إلى التشدد إزاء مرتكب الكبيرة فيه ، والتساهل إزاء مرتكب فروعه من الصغائر ، انما شأنها شأن حقائق شرعية كان في ذكرها مفسدة على بعض المسلمين ، لما فهموها فهماً ابتداعياً

مصحوباً بجهل ، ولكن وقوع هذه المفسدة لم يغير من نسبة رجحان ذكر هذه الحقائق ونشر علمها بين المسلمين .

فمن ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه ، في دخول قائل لا اله الا الله الجنة ، وكيف أحب أن يبشر بذلك الناس ، ولكن النبي ﷺ منعه خوفاً أن يتكلوا ويدعوا الأعمال . فان أبا ذر أخبر بهذا الحديث عند موته خشية منه أن يقع في إثم كتم العلم ، وصار حقيقة شرعية وبنداً في العقيدة يهدي أصحاب القلوب الحية ذات النمط الأوسط إلى العدل في الحكم على الناس والتهيب من تكفيرهم بمجرد ولوغهم في المعاصي ، مع أن بعض المبتدعة قد استنبط منه التعويل على كلمة الشهادة وعاف العمل .

وكذلك حديث ذاك الذي لا يزيد على الفروض ولا ينقص ، الذي أفلح إن صدق ، قد اغتر أناس بظاهره فاعتادوا ترك النوافل ، ولكن ذلك لم يمنع البخاري من ذكره كحقيقة شرعية مقرونة بألوف من الأحاديث الصحيحة معه في الترغيب بالخير الزائد على مقدار الفرض ، كما لم يمنع غيره من فقهاء الأمة من النص على فسوق من يهجر السنن المؤكدة هجراً طويلاً .

وقس على هذه الأمثال ، وتأمل ما سبق ذكره من عوامل الافتراق بين جيلنا الحاضر وأجيال السلف ، لينفتح لك باب مفيد من الاقتناع بأهمية الوقوف عند حدود الشرع في التمييز

بين درجات المعاصي ، وتصنيفها إلى كبائر ولمم ، تخرج منه إلى واقعية تجبرك على مصاحبة الذين قصرت هممهم عن التملص من الصغائر ، والرفق بهم ، دونما إخلال بكلام تربوي واجب تنصحهم فيه ، غير متزمت ، ولا لهم بظالم .

ان أخذ مجتمع الدعاة بالشدة في ذلك ، وإشاعة عرف بالغ الحساسية إزاء الصغائر ، ربما يؤدي إلى نفع عظيم في جودة معادنهم ، ويوصلنا إلى نتيجة تربوية جيدة ، لكنه بالمقابل يؤدي إلى جفلة الجدد وزهد الشباب في الانتماء ، لقصور هممهم عن متابعة التعفف الكامل ، وهي مفسدة تعارض تلك المصلحة التربوية ، لا بد من مراعاتها .

ومن المهم أن تفهم أن الذي نقوله ما هو بتسويغ للتهاون ، وانما هو دعوة إلى الوقوف مع النمط الأوسط الممدوح شرعاً الذي لا يجنح إلى تفريط ، ولا يرهقه الافراط .

ومما يقارب هذه المسائل ، ونستعمل له نفس التبريرات : أمر التدخين ، فقد يكون الشاب معتاداً له قبل مخالطته لدعاة الإسلام ، ثم ينتمي لهم ولا يستطيع الفكاك من أسره ، فنتجاوز عنه . والأصوب في أمر التدخين — والله أعلم — أن لا نجزم بحرمته ، ولكن نقول بكراهته الشديدة ، وان عُرف الدعاة لا يستسيغه ، وجعلوا تركه شرطاً للعاملين .

ومثل ذلك ما اختلف فيه الفقهاء الأتقياء ، اذا ميلنا

لرأي المتشددين منهم فيما اختلفوا فيه ، كالتأمين ، والبيع والشراء بالأقساط بثمن زائد على ثمن التعجيل ، فان لرأي المجوزين وجه يجعل مخالفهم أميل إلى القول بكراهة ذلك من جزمه بالحرمة الشديدة ، وعليه أن لا يسارع إلى تضعيف العامل بافتاء مخالفيه ، بل يقتصر على وعظه بالاحتياط والابتعاد عن الشبهات ، إلاّ الاقتراض بالربا والاستفادة من قروض البنوك العقارية ، فان الذين ذكروا جواز ذلك قد صادموا النصوص الصريحة ، وليس لقولهم وجه ، ولا لهم من التقوى نصيب واضح يتقوى به خلافهم .

ويداني هذه الأمور أيضاً ما يفتّي به الداعية الحائز لبعض الفقه نفسه في أبواب الضرورات ، فربما أحاطته ظروف صعبة يجرؤ معها على فعل شيء لا يجرؤ المفتّي على التّرخيص له به ، فيعتمد هو على فقهه . وما من شك في أن هذا الأمر دقيق للغاية ، ويحتاج لاحتياط مضاعف ، ولكن حدّ التمييز بين المسموح لهم بذلك والممنوعين هو مقدار الفقه الذي يملكونه ، فمن آنسنا منه رشداً ، ودلّت سابقات على حصول نصيب له من الفقه ، فانّا لا نستكبر منه اجتهاده ونطيل له اللسان ، بل نعظه بالتقوى والأخذ بالعزيمة فحسب .

● انصفونا معاشر النقاد

وأما السلوك الثاني فانما يتمثل في واجب منتقدينا نحونا ،

فنحن نطالبهم بمثل هذه النظرة التي تتقبل أحسن ما عملنا ، وتتجاوز عن نقصنا ، ثم أن يدعو الله لنا في أن نكون من أصحاب الجنة .

ولقد أسرف بعضهم في الابتعاد عن هذه النظرة ، فأحصى ما يظنه من أخطائنا ، مما صدر عن آحاد من دعاة حركتنا ، حاولوا الاجتهاد ، فبعض أصاب وبعض أخطأ .

ولو أردنا الاستقصاء في الرد على الشبهات التي يوردها المحصون ، لوقعنا في المتاهة النفسية التي تراد لنا ، ويكون ثمة انشغال عن وجوه النفع التي نحن ماضون في جلبها وتحصيلها كل يوم .

ولسنا نضيق صدراً بنقد يوجه لنا ولا ندعي أن الله سبحانه قد حكر لنا الصواب ، لكننا ننكر الخلفية المتوترة لمثل هذا النقد ، الشبيهة بالفتنة .

والأساس في ردنا لكل ملاحظة وجهت وتوجه لنا ، أن الناقدين يغفلون مناقبنا وجمالنا وحسننا ، ويجردون الأخطاء تجريداً عما صاحبها من الاصابة وقارنها من البذل .

وان للدعوة من خلال انتشارها في الأقطار العربية مناقب كثيرة ، أقلها حفظ الشباب من الانجراف في المفاسد وامدادهم بالسكينة الايمانية والطمأنينة القلبية في عصر الاضطراب،ولو لم يكن للدعوة الا هذه المنقبة لكفاها ذاك فخراً ، كيف وان

مناقبها قد سارت كل مسار ، فمن صحف تدافع عن قضايا الأمة وترد على الملحدين ، وكتب منهجية تعين الشباب على فهم الاسلام ، وقتال لليهود والمستعمرين في فلسطين والقناة ، وسعي في اعانة الناس على نيل العلاج الطبي وضرورات الحياة ، وتوعية سياسية للأمة تقابل خطط الماسونية والصليبية ، وأمر بالمعروف ونهي عن منكر الطغاة الظالمين ، واشاعة للقرآن وتحفيظه وتعليم آدابه ، وانشاء للمكتبات والمساجد حتى أن الدعاة قد تجاوزوا في ذلك بذل أموالهم وأوقاتهم الى بذل أرواحهم ودمائهم ، فنقش الرصاص صدورهم ، والتفت الحبال على أعناقهم ، ولفظت أنفاس كريمة تحت السياط وفي غرف التعذيب .

هذه فعالنا ، وهذا تاريخنا ، وحاضرنا من بعد مرئي مشاهد ، فلم يكن تجاوز هذه الصور الفاضلة ، والمفاخر المشرفة لكل مسلم صادق الايمان ، ويسعى الناقدون الى حصر المسألة في جملة أخطاء رصدوها ، على فرض أنها أخطاء فعلاً وان الدعاة ليس لهم فيها تأويل ؟

والأصل في ذلك نقاء القيادات ، وأهليتها للتصدي لمثل ما تصدت له ، وإنا لا نعلم بحمد الله فينا الا كل قائد نجيب نبيل رفيع .

● باب مفتوح لكل طارق

أما الأتباع فلا ننكر ان فيهم من قد يخطىء في كلامه أو

تصرفه ، ولكن لا بد من الانتباه الى مسألة مهمة جداً حين تقدير ما يصدر عن الاتباع ، ذلك أن الدعوة ليست مجمعاً للكاملين ، وانمـــا هي مجتمع تربوي يسعى الى تربية كل وافـــد اليه اذا كان مبتعداً عن الكبائر ، شريفاً في الناس ، واذا قيل ان فلاناً قـــد صار من جملة شباب الدعوة فليس معنى ذلك أنه قد استكمل الايمان وحاز العلم من أقطاره ، ولكننا حين نصفه بذلك فاننا نعني أنه قد رضي بأن يربيه الدعاة . وانه قد بدأ السير وفق المنهج الأصح .

وعلى هذا فان الاتباع ، وحتى القادة ، متفاوتون في كمية حيازة خصال الايمان والفقه الشرعي الذي يجعل أعمالهـــم صائبة ، فمنهم المبتدىء الذي قد يخطىء ، ومنهم المتوسط في ذلك ، ومنهم الذي كثف خيره ، وعبق عطره .

وليست دلالة القدم أكيدة في ذلك وانما هي طاقات مختلفة من التحمل والصبر والذكاء والشجاعة ، ولربما تجد القديم في منازل المبتدئين مراوحاً اذ لم يكن له مقدار وافر من هذه الخصال الابتدائية ، فقد يخطىء في تعامله ، أو في كتاباته وأقواله .

وأمر التجميع وقبول الاتباع في الصف يعتمد الى حد كبير على الفراسة عند المربين والقادة ، والفراسة من شأنها أن تصيب أو تخطىء ، والقاعدة التي نتبعها أن نفتح بابنا لكل طارق أمين مهما قل خيره ، طالما جاءنا طامعاً في أن يقف في صف صلاتنا خلف أمامنا .

● نحاسب بالحسنى ولا نفضح

والحقيقة أن أكثر أخطاء الأعضاء محاسبون عليها ، وتشهد على ذلك قصص فيها مفخرة للقيادات في حرصها على الحسبة ونقاء الصف وتقويم الاعوجاج ، ولكنها لا تذيع ذلك أو تنشره ، لأن في المقصرين الذين حوسبوا شعباً وأنواعاً من الخير لا يراد لها أن تضمحل أو تموت بالتشهير ، ولو أذاعت القيادات محاضر محاوراتها لأمثال هؤلاء المقصرين ، معاتبة ومرشدة ومنبهة لهم لوقعت في الخطأ الذي نعيبه هنا ، ولكنه الستر على أهل الخير يستغله الناقدون بلا علم ، فيقدمون على الجرح والقدح بجرأة ، في موطن تهيبت فيه القيادات واستحسنت الهدوء في معالجة الأمر الذي هيج الناقدين .

● لا نرضى ببدعة

وفي الواقع أن أكثر الانتقادات التي توجه يمكن ردها بسهولة ، ونستطيع أن نقنع المنتقد بوجهة نظرنا اذا كان سليم الطوية ، صادراً عن حب في الاصلاح ما استطاع .

وخذ مثلاً في ذلك ما يشاع عن الجماعة من أنها لا تحارب البدع ، مع أن كل ناظر الى سيرة الامام حسن البنا رحمه الله يدرك صفاء عقيدته وبعده عن البدع ومحاربته لها ، وكفاه بالأصول العشرين وثيقة يضعها بين يدي ربه تعالى يحاجج بها ويدلل على قيامه بواجبه السُنّي الاتباعي ازاء الابتداع ، وما

زالت جماهير المنتسبين الى دعوته تتدارس هذه الأصول وتشرحها وتنشرها بين الناس.

• السياسة كلها ترجيح بين المصالح

ويتداول حديث عن أخطاء سياسية ترتكبها القيادات، وما هي بأخطاء في حقيقتها لمن أمعن النظر، لكنه تفضيل بين المصالح، واتباع لقاعدة الفقهاء في الحرص على أكبر المعروفين عند تعارضهما، ولو بتفويت أدناهما، واحتمال أيسر المفسدتين العارضتين لابعاد أعظمهما وأكبرهما.

ولقد أطال الامام ابن تيمية رحمه الله النفس في بيان هذه القاعدة وتصويبها والأمر بالعمل بها، حتى أنه أفتى في هذا الباب بافتاءات يظنها من لا يخبر السياسة غريبة معيبة.

وأغلب هذه المواقف المنتقدة على الحركة مخرجة على هذه القاعدة في الموازنة بين مراتب المعروف والمنكر ودرجات المصالح والمفاسد، فما من تعاون مع حزب معيب، أو تصريح بثناء على فعلة حسنة من حاكم لم يتم اسلامه، أو ما شابه ذلك، الا وللقيادات فيها تأويل مستخرج وفق هذا الافتاء.

ولا ندعي أن كل هذه التصرفات المعتمدة على هذه القاعدة كانت صواباً دوماً في نتائجها، فان ذلك ليس ركناً في توثيق المسلم، انما هو يجتهد في باب السياسة كما في غيرها، فيصيب ويخطىء تبعاً لمدى فراسته وطويل تجربته، انما الركن المهم هو

أن هذا التأويل والاجتهاد يستند الى أقوال معتمدة في مذاهب أعيان الفقهاء القدماء .

ومع ذلك فلا يمكن للقيادات على طول الخط أن تكشف حوارها حين تقرير مثل هذه الخطوات القائمة على الموازنة بين المصالح والمفاسد ، ذلك لأنها قد تعتمد على أسرار لا يسوغ كشفها ، أو تبريرات مضمرة لا تريد أن يتسرب علمها إلى أعداء الاسلام ، فيحورون خطتهم العدائية تبعاً لذلك .

وقد جرى العرف عندنا على الاستقلال في العمل ، والدعوة الى زوال الأحزاب ، ومقارعة الظالمين ، ومضت هذه المعاني أصولاً في التخطيط السياسي ، وأفصح عنها كلها الامام البنا رحمه الله في رسائله ، ولا تكون موازناتنا بين درجات المصالح الا على ضوء هذه القواعد .

فانصف أيها الناقد ، ذلك خير . وكفاك هذا أيها الداعية ، لا تطلب الرد حرفاً بحرف ، فانها متاهة والله متاهة الردود ... وعوائق .

ان هذه الانتقادات الجزافية هي من جهل الناقدين وقلة انصافهم ، ولولا أن البعض من علماء الأمة قد ابتلي بمثل هذا الأذى المعنوي على مرّ العصور لظننا أنه عقوبة ربانية تحيط بنا ، ولكن يبدو أن مثل هذه التشويشات والفتن سُنة من سنن العمل الإسلامي ، والعاصم منها أن ندعو بدعاء النبي ﷺ فنقول : (اللهم إنّا نعوذ بك من أن نَجهل أو يُجهل علينا .) .

٢٣ كَلمَة أخِيرَة

وبعد أيها الداعية :

فانا قد أطلنا الكلام لك عن الفتن وأسبابها واتقائها ، بعدما رأينا ما لها من ضرر على الدعوة الإسلامية يعرقل تقدمها .

والمنتظر منك أن تخلو الى نفسك ، بعيداً عن الضوضاء ، فتتأمل هذه الجمهرة النافعة المفيدة من الآيات والأحاديث ، وأقوال العلماء وأبيات الشعراء ، وتعيد قراءتها مرة بعد مرة ، وتطابق بينها وبين ما ترى من معاصي المفتونين ، لينفتح لك باب عظيم من فقه السلوك .

وانما هي العرقلة فحسب ، ولا تبلغ الفتن أبعد من ذلك أبداً ، ودعوة الله محفوظة سائرة ان شاء الله .

فليس لأمر حاول الله جمعه
مشتّ ، ولا ما فرق الله جامع

ويأبى الله الا أن يتم نوره ، وأن يرينا من قصص المفتتنين مصداق ذلك .

فمن أطرف ما يروى في ذلك أن أحد المحررين في المجلة الأسبوعية للجماعة شذ ، فنفته الدعوة ، فأصدر مجلة أخرى ، تحدياً وضراراً .

قال الامام البنا :

(فدعاها هو «الخلود» ، وقضى الله عليها بالفناء ، فلم يصدر منها الا عدد أو عددان ، وانتهى أمرها ، وكذلك الباطل لا بقاء له ، والبغي مصرعه وخيم) .[1]

ودعوة الاسلام اليوم تقف شامخة عالية منتصرة في جولتها مع الطغاة .

والدعاة في كل بلاد الإسلام كثير عددهم ، نقية عقيدتهم.

وليس النقص الحاضر نقص عدد ولا نقص ايمان ، ولا ذلك هو ما يحول دون الوصول .

لكنه :

العمـــــل الســـاذج ويعالج ببث الوعي
وطـــــول الأمـــل ويقصر بذكر الموت
وظـــلام العوائــق ويبدد بأنوار الفطنــة .

(١) مذكرات الدعوة والداعية /١٣٤ .

وتتبلور هذه الأنوار جميعاً وتتركز ، لتكشف عن أصل رئيس من أصول دعوتنا ، يعلن أن :

(القائد جزء من الدعوة ، ولا دعوة بغير قيادة ، وعلى قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة وإحكام خططها ونجاحها في الوصول إلى غايتها ، وتغلبها على ما يعترضها من عقبات وصعاب .

« فأولى لهم طاعة وقول معروف . ») (1)

« فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . » .....

---

(1) رسالة التعاليم /المجموعة /١٩ .

الفهرس

الصفحة

أطلب الكتاب الأول في سلسلة إحياء فقه الدعوة هذه
الذي صدر منذ سنتين بعنـــوان
« المنطلق »

وهو يحوي المعاني الأساسية التي ينطلق منها الداعية المسلم في العمل الحركي ، ويبين وجوب الدعوة إلى الله ، وفقه العمل الجماعي عند السلف ، وصياغته الحديثة ، وصفات جيل التأسيس ، والتوسع الموزون ، وضرورة الانتقاء والتركيز في التربية دون تكاثر واستعجال .

وانتظر الكتاب الثالث

الذي سيكون ان شاء الله مدونة للحماسة شاملة ، مبيناً معاني الجهاد ، كمنهج للدعوة وواجب على الداعية ، وارتباطه بالفقه ، مع استعراض قصص من بطولات العلماء والدعاة ، وفصول في الحث على البذل والتضحية ، والترغيب في التشمير للخير ، وإتعاب الأبدان وإنفاق الأوقات في تجميع الشباب وتوجيههم للنهي عن المنكر ومقارعة الظـــالمين